بسم الله الرحمن الرحيم

تم رفع هذه المادة العلمية من طرف أخوكم في الله: خادم العلم والمعرفة (الأسد الجريح) بن عيسى قرمزلي. ولاية المدية

الجنسية جزائرية

الديانة مسلم

موقعي المكتبة الإلكترونية لخادم العلم والمعرفة للنشر المجاني للرسائل والبحوث على

www.Theses-dz.com

للتواصل: رقم هاتف 00213771087969

البريد الإلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

حسابي على الفيسبوك: www.facebook.com/Theses.dz

جروبي: https://www.facebook.com/groups/Theses.dz

تويتر https://twitter.com@Theses_DZ

الخدمات المدفوعة

01- أطلب نسخة من مكتبتي



السعة: 2000 جيقا أي 2 تيرا !

فيها تقريبا كل التخصصات

أكثر من 80.000 رسالة وأطروحة وبحث علمي

أكثر من 600.000 وثيقة علمية (كتاب، مقالة، ملتقى، ومخطوطة...)

المكتبة مع الهرديسك بالدينار الجزائري 50.000.00 دج

المكتبة مع الهرديسك بالدولار: 500 دولار .

المكتبة مع الهرديسك بالأورو: 450 أورو

02- نوفر رسائل الأردن كاملة 20 دولار للرسالة الواحدة على https://jutheses.ju.edu.jo/default2.aspx

لا تنسوني بدعوة صالحة بظهر الغيب: ردد معي 10 سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

اللهم صل وسلم على نبينا محمد .... بن عيسى قرمزلي 2016.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة الجزائر

معهد اللغة و الادب العربي

الموضوع

شارل بودلير و إلياس أبوشبكة

دراسة مقارنة بين « ازهار الشر » و « افاعي الفردوس »

لنيل شهادة الماجستير

اعداد الطالبة :
فاطمة شعبان

اشراف الاستاذ :
د . أبو العيد دودو

الموسم الجامعي : 1989 – 90

المقدمة :

لعل مصدر رغبتي في التعامل مع الأدب الحديث يعود الى ما يتسم به هذا الأدب من غنى وخصوبة اذا ما قورن بالأدب القديم الذي درست أهم مجالاته دراسة وافية • وترجع خصوبة الأدب الحديث بالدرجة الأولى الى هذه السرعة في التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ثم الفنية والأدبية التي أدت ، في عصرنا الحديث ، الى اقامة صلات بين الأمم والشعوب ، فاحتكت ببعضها البعض ، ورفعت كلّ ما كان بينها من حدود وحواجز ، ممّا جعل شاعرا مثل أبو شبكة يتأثر بشاعر مثل بودلير، وقد جاء هذا نتيجة لسهولة انتقال الأفكار والفنون من بلد الى آخر، ومن شعب الى آخر •

ولهذا اخترت الدراسة المقارنة ، فهي مجال طريق للبحث يتهيع فيه الباحث أصول الظواهر الأدبية ، ومسار الأفكار الفنية ، ويعود بها الى منابعها الأولى ،لمعرفة ما في الأعمال الابداعية من أصالة أو تقليد • اذ لم يعد من الممكن ، في يومنا هذا ، أن ندرس الأدب العربي الحديث دون التعرض للآداب الأجنبية التي غذته بعد أن تغذت منه في مرحلة سابقة •

وموضوع بحثي هذا ، عبارة عن دراسة مقارنة بين " أزهار الشر" للشاعر الفرنسي شارل بودلير و " أفاعي الفردوس" للشاعر العربي الياس أبو شبكة • ولا ينبغي لي أن أنكر أن صعوبة هذا الموضوع ، الذي اقترحه علي أستاذي المشرف ، قد جعلتني ، بعد قراءتي السريعة لديواني الشاعرين ، أتردد في الاقبال على هذا البحث ، ثم حاولت الاقتراب من مقاصد هذا الشعر ، مستعينة

بدراسات مختلفة تعرضت للمنطلقات الفلسفية والتاريخية والنفسية عند الشاعرين • وعلى ضوء هذه الدراسات من جهة ، وتعاملي مع انتاج بودلير وأبو شبكة من جهة أخرى ، استطعت أن أميّز بين ظاهر هذا الشعر وعمقه ، وأبعاده الفلسفية والفنية ، الأمر الذي جعلني أشغف بهذا الموضوع وأقبل عليه بكل طاقتي ، واتضح لي حينها ، المحور الذي سيتطرق البحث اليه ، وهو يتمثل في الصراع بين المتناقضات والأضداد التي يقوم عليها قانون الحياة ، حياة الانسان ، بخيره وشره ، وجماله وقبحه ، وقوته وضعفه ، وسموّه وانحداره ، فعلى هذه التناقضات بنى بودلير عالمه الشعري ، ومن هذا العالم نفسه ، الذي هو " السأم والمثال " (Spleen et Idéal) ، وجدنا الياس ينقل لنا انفصالات نفسية حادة ، ومشاهد دامية مخيفة ، في قالب متمرّد ، في بعض جوانبه ، على العرف الفني العربي •

ولقد اعتمدت ديوان " أزهار الشر" في أصيله ، وكنت أرجع من حين لآخر الى بعض القصائد المترجمة منه عند ابراهيم ناجي ومصطفى القصري ، للاستشارة والاستفادة والاطلاع ، وفي هذه الحالة كنت أقارن الترجمة بالأصل ، ولا أعتمد الا الترجمة التي تبدو لي أمينة قريبة الى الأصل ، وكنت ، فيما عدا ذلك ، أعتمد جهدي الشخصي في الترجمة •

لقد اقتضت الخطة أن أقسم البحث الى ستة فصول وتمهيد وخاتمة • تعرضت في التمهيد الى لمحة وجيزة عن تاريخ لبنان الثقافي والسياسي والاجتماعي ، ونفوذ اللغة والثقافة الفرنسيتين في هذه البلاد ، واستيلائهما على ألباب الأوساط المثقفة عامة ،

والشباب منهم خاصة ، وكان جيل أبو شبكة يشكل هذه النخبة من الشباب المتحمسة لتبني هذه الثقافة .

ثم تعرضت في الفصل الأول لثقافة الياس أبو شبكة الفرنسية، ونزول " أفاعي الفردوس " الى الساحة الأدبية ، والربط بينه وبين " غلواء " الذي بدا لنا أنه كان بداية فاشلة في تقليد " أزهار الشر " ، كما ناقشت آراء بعض النقاد الذين لاحظوا الشبه بين " أفاعي الفردوس " و " أزهار الشر " ، وكتبوا عنه مقالات متعددة لا يخلو بعضها من تهجم على شاعرية الشاعر .

وفي الفصل الثاني حاولت اثبات سبل الاتصال بين بودلير والياس ، واهتمام الياس بـ " أزهار الشر " ، وبينت الأسباب التي قربت بين الشاعرين : من ظروف عائلية واجتماعية ونفسية مهدت لهذا الاتصال ، وجعلتهما ينظران الى الحياة من منظار خاص .

تحدثت عن هذه النظرة الفلسفية الى الوجود الانساني ، في الفصلين الثالث والرابع ، حيث عرضت لخصائص " السأم والمثال " البودليري ، وأثرها في " أفاعي الفردوس " هذه الخصائص التي ميزت عالم بودلير الشعري عن عوالم غيره من الشعراء الرومنسيين ، فحاولت العودة بها الى أصولها ، مع ابراز مميزاتها بصفة عامة ، والتأكيد على ميزة أساسية فيها بصفة خاصة ، وهي التمزق الروحي ،والثنائية الفكرية التي يقوم عليها الديوانان . وسيكون هذان الفصلان الأرضية الفلسفية التي سيقوم عليها الفصلان الأخيران اللذان خصصا لدراسة فنية تطبيقية ، عرضت فيها ظواهر فنية تنتمي الى " السأم والمثال " البودليري ، تبناها الياس في "أفاعي الفردوس " .

وانتهيت أخيرا الى أن الياس أبو شبكة لم يكن من المقلدين الفاقدين شخصيتهم وأصالتهم ، لكنه توفي قبل أن تكتمل شخصيته الفنية التي كان يبحث عنها بين التراث العربي ورمزية بودلير والرومنسية الغربية ٠

ولولا الصعوبات التي تعترض الباحث أثناء بحثه ، لما كانت للبحث أهمية ، ولما اتسم بالمتعة ، ولما أحس الباحث بالرضى والارتياح لمساهمته في انجاز بحث علمي ٠ ولهذا فانني لا أرى داعيا يدعوني الى ذكرها أو التعرض اليها ،لأن البحث صنو المصاعب٠

ولقد كانت هذه الدراسة المتواضعة ، وهي ثمرة جدّ واخلاص، محاولة مني في تقديم شيء يسير لأدبنا العربي ، ولا أدعي هنا أنني قمت ببحث متكامل ، فأنا على يقين من أنه يحتوي على تلك النقائص التي لا يخلو منها بحث صاحبه مبتدىء ٠

وأخيرا أود بكل عرفان واخلاص، أن أقدم شكري الجزيل لأستاذي المحترم الدكتور أبو العيد دودو، المشرف على هذه الدراسة،الذي لم يأل جهدا في توجيهي الى الصواب وارشادي الى الحقّ حتى نهاية البحث ٠ ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والتقدير لكلّ من أمدّني بالعون أثناء القيام بعملي ، وأخصّ بالذكر أستاذي الكريم الدكتور محمد حسين الأعرجي ٠

التمهيـــــد :

اذا كان الحكم السياسي الفرنسي المباشر للبنــان قد انحصــر في فترة زمنيــة محــدودة ، أي مابين 1920 و 1943، فانّ أثـر الحضـارة الفرنسيــة في التـراث اللبنانـي لم يبـدأ بابتـداء هذه الفتـرة ، ولـم ينتـه بانتهائها ، فقد كانت له أصـول تاريخيـة عميقـة وأبعـاد حضـارية جديدة (1)، بل كانت صلـة تعارف لبنـان الموارنــة (2) والمسيحيـين بأوروبا قديمـة العهـد ، وذلك منذ أواخر القرن الثاني عشـر حين احتـل الفـرنجـة السواحـل الشماليـة (3) ، اذ صـادق الموارنـة الصليبيين وحالفـوهـم ، ووضع زعمـاء من الموارنــة امكاناتهـم العسكريـة تحـت تصـرّف الفرنجــة •(4)

انّ الاتصـال المحـدود بين الصليبيـن وفرنسـي فرانسـوا الاوّل مـن ناحيـة ، واللبنانييـن من ناحيـة أخرى ، لم يكـن اتصالـه ثقافيـا بالمعنـى الحقيـقي ، ولم تكـن سمــات اللّغـة والأدب الفرنسييـن قد اتضحـت هي ذاتها ، ولكنـه مهّد لا لتقـاء أرحـب ولتأثيـر أعمــق ، جرى بين اللبنانيين والفرنسييـن منذ توافـد الارساليــات الأجنبيـة حتى يومنـا هذا •

لقد فتـح المبشرون آفاقـا ثقافيـة وحضاريـة وانسانيـة ، فأنشـؤوا المـدارس والجمعيات والمستشفيات والجامعات ، ممّا شهـد على أهمية فضلهـم الثقافـي والحضاري ، مهما يكن من أثرهم السلبي بين الأهالـي •.(5)

---

1 ـ ينظـر • كمال سليمـان الصليبـي • تاريخ لبنان الحديث • 206 •

2 ـ ينظـر نفسـه •19 :(الموارنـة في الأصل من نصارى الشرق ، انفصلـوا عن الكنيسة البريطانيـة في أواخر القرن السابع وبقيت مستقلـة حتى توحدوا في رومـا في مطلـع القـرن الثانـي عشـر •)

3ـ نفسـه • ص159 •

4ـ نفسـه • ص 21 •

5 ـ غالـب غانـم • شعر اللبنانييـن باللّغـة الفرنسيـة • 24 •

دخلت سوريا في حيز التبشير بعد معاهدة القرن السادس عشر (1536) التي شرعها السلطان سليمان نظام الامتيازات ، فبدأت تفد عليها البعثات الرهبانيـــة في أواخر القرن السابع عشر ، فكان ذلك ايذانا بفجر النهضة الحديثة ، ذلك أنها قامت في هذه الربوع على التعليم ، الا أنها لم تقتصر على أمور التبشير والدّيــن وانما اتسعت فيه قليلا ، فكانت تدرّس شيئا من الحساب واللّغة الفرنسية ، واهتمت باللّغـــة العربية ، وبعض علومهـــا الأوّليـــة . (1)

ومن المؤكّـــد أنّه كان لحملة نابليون سنة 1798 الى مصر — بكلّ الفوائـــد التي جاءت بها ، كانتشار المدارس ، ودخول المطبعة ، وانشاء الصحف والمجـــلات ، ودور الكتب ، والترجمة ، والبعثات ، والرحلات ، الى غير ذلك — صـــدى قويـــا في جميع أنحاء الشرق العربي ، ويعتبر لبنان البلد العربي الوحيد الذي شارك مصر في احياء النهضة الفكرية منذ وقت مبكّـــر ، نظرا لظروفه الخاصّة ، التي لم تتـــح لغيره من البلدان العربية الأخرى . وكانت حركة النهضة في لبنان مرتبطة الى حدّ بعيد بنشاطات الحركة الدّينية التي مارستها الارساليات الغربية في أرضه ، لتكســـب العدد الأكبر من المؤمنين بمبادئها ، ولتنشر بعد ذلك لواء الدّين المسيحـــي بين أبنائـــه . (2)

ولعبت الحركة التبشيرية الفرنسية في جبل لبنان ، بشكل خاص ، حيث يتمركـــز العدد الأكبر من أفراد الهيئة التعليمية التي كانت غالبيتها من المبشرين الفرنسيين ، وكذلك جامعة القديس يوسف ببيروت ، دورا أساسيا في الدعوة الى توسيـــع جدود لبنان المتصرفية والى ضمان فرنسا للوطن المسيحي الذي تنوي اقامتـــه ، فحتى عام 1914 كانت فرنسا تؤمن السيطرة على 50٪ من المدارس والطلاب في سوريـــا ولبنـــان ، وقـــد ساعـــد وجـــود المبشـــريـــن الفـــرنسييـــن كثيرا على ازديـــاد النفـــوذ الفـــرنســـي بشكـــل كبير . لقد جاء هذا التأييد

1ـ ينظر : حلمي مرزوق . تطوّر النقد والتفكير الأدبي الحديث . 82 .

2ـ ينظر : مفيد قميحة . الأخطل الصغير حياته وشعره . 24 .

للحماية الفرنسية في الداخل والخارج ، يضاف الى ذلك نفوذ المصالح الاقتصادية الفرنسية في سوريا وجبل لبنان ،ليشكل مصلحة مشتركة بين أصحاب رؤوس الأموال ودعاة توسيع الجبل اللبناني نحو ما أسموه بالحدود التاريخية للبنان.(1) وجاء في مذكرة ، باسم جميع مجالس بلديات جبل لبنان ، رفعت الى المتصرّف أوهانس باشا عام 1913 ، تحت العنوان التالي : " البقاء للبنانيين " جاء فيها أنّ لبنان الحالي هو سلسلة من الجبال تتناثر فيها قرى صغيرة ، أمّا اللبنانيون فقد هاجر منهم ثلاثمائة ألف الى أمريكا وغيرها ، واذا لم تتكرّم الدول الكبرى وفرنسا ، بشكل خاص ، أن تعيد الى الجبل حدوده الطبيعية ، فسيعدّ شعبنا نفسه محكوما عليه بالزوال واما سلوك طريق المنفى . وتنتهي المذكرة البالغ عدد صفحاتها ثماني عشرة صفحة ، بهذه العبارة :أنّ فرنسا ذلك الجندي المرسل من الله ومن أوروبا ،مدعوة بفخار الى مساعدة جبل لبنان المسكين .(2)

وقد تعزّز التلاقي بين الثقافة اللبنانية الشرقية والثقافة الفرنسية باسهام منهم ، وبتقبل من اللبنانيين أنفسهم ، ولم يكن بين المرسلين وأبناء لبنان جفاء كالذي كان بين العرب والترّك بصورة عامة.(3)

---

1 ـ ينظر . يوسف الصميلي . الشعر اللبناني اتجاهات ومذاهب . 10 .

2 ـ ينظر غالب غانم . 24 .

3 ـ ينظر . كمال الصليبي . 206 .

وبعد أن كان التعليم في الأديرة والمساجد ، والزوايا ، انتشرت مدارس المرسلين ، كمدرسة عينطورة ، ومدرسة القديس يوسف ، والمدرسة الوطنية ، والمدرسة السورية الانجليزية ، ومدارس الجمعيات الأهلية كالمدارس البطريركية ، ومدرسة الثلاثة الاقمار ، ومدرسة الحكمة ، تسلح العقل بأدوات المعرفة والتفتح على تيارات العلم والأدب والفن ، بل على مجاري الفكر في مختلف مجالات نشاطه • (1)

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح لبنان تحت الانتداب الفرنسي بمباركة عصبة الأمم (2) واكتسب الشرعية الدولية وبدأ يتصرف كأنه المسؤول عن مقدرات الشعوب المنتدب عليها ، فاستصدر لنفسه قانونا خاصا يؤكد سلطته ويقويها ، وينمي ثقافته ويحميها ، فقد نصت المادّة العاشرة من قانون الانتداب على أن مراقبة الدولة لبعثات المرسلين الدينية ، في سوريا ولبنان ، تقتصر على حفظ النظام العام وحسن الادارة ، وتنص مادة أخرى على أن اللغة الفرنسية والعربية رسميتان غير أن لغة التعليم الرسمي في المدارس هي اللّغة العربية • (3) فالفرنسيون وهم أصحاب السلطة السياسية الفعلية عبر ربع قرن ، جعلوا من لغتهم بابا الى التعامل الاداري ، والتواصل الثقافي ، فبانت أهميتها ، وازداد شيوعها ، وترسخت ضرورة اتقانها ، ولم تكن التركية ، وهي لغة صاحب السلطان أيضا ، لتنتشر في لبنان انتشار الفرنسية ، والسبب في ذلك يرتد الى الفارق الزمني بين الأتراك والفرنسيين ، والى الامتيازات الأجنبية والارساليات في أيام الأتراك أنفسهم ، والى التباين

---

1 ـ ينظر • كمال الصليبي • 206 •

2 ـ ينظر • نفسه • 206 •

3 ـ ينظر • يوسف العميلي • 9 •

الجوهري بين الحضارة التركية والحضارة الفرنسية ، والى تقبل اللبناني المسيحي لغة الفرنسي المسيحي دون لغة التركي المسلم ، والى أن الأتراك كانوا تلامذة الحضارة العربية ، وبخاصة ماتعلق منها بالدين واللغة • (1) وهكذا انقلبت الازدواجية المصطنعة والموهومة التي كانت بين اللغتين العربية والتركية ، في الشرق العربي ، الى ازدواجية طبيعية وحقيقية بين اللغتين العربية والفرنسية في لبنان • (2)

أما الثقافة العامة التي توفرت للبنانيين في الصدر الأول من القرن العشرين فكانت تدفع به الى الانفتاح على تراث الأمم الأخرى ، دون التخلي عن أصالة تراثه • وقد أسهمت الأسفار والهجرات المختلفة في تنميتها ، وفي تطويرها ، فلم تعد ثقافة اللبناني الفرنسية مثلا مستمدة من حتمية وجود الفرنسيين في لبنان ، انما استطاع قسم كبير من الناس أن يتعرفوا ، عن قرب ، الى ينابيع الثقافات الغربية ، وأن يعبوا منها ، حتى غدا البحث عن الثقافة هما متقدما من هموم الانسان اللبناني • وغالبا ماكان اللبناني ، أشاعرا كان أم أديبا ، يهمل الكتابة بلغته الأم ، لأن هذه الأخيرة أصبحت بالنسبة اليه لغة ثانوية ، ويلتفت الى اللغة الفرنسية التي يرى فيها طاقة تعبيرية جديدة • وثمة دليل واضح على التأثير العميق الذي تركته الثقافة الفرنسية في نفوس الأدباء اللبنانيين وفي آثارهم ، يظهر عندما نطلع على أدب النهضة في لبنان ، اذ أن معظم الشعراء والأدباء الذين كتبوا بالعربية ، وهم كثيرون ، كانوا مميزين بسمات تيارات الأدب الفرنسي • ولقد برزت الايحاءات الفرنسية عند الشعراء بأشكال مختلفة منها الترجمة والاقتباس والتأثر • (3)

1ـ ينظر • غالب غانم • 35 •

2ـ ينظر • نفسه •

3ـ ينظر • غالب غانم • 27ـ 28 •

ولقد أثار هذا الالتفات والاهتمام بالآداب الغربية لدى من كانت لهم الغيرة على أدبهم ولغتهم غضبا وخوفا ، وتذكر على سبيل المثال بعضا من مقال لأحدهم ، تحت العنوان التالي : " نهضة الشعر العربي " يقول فيه : " لماذا نغمض البواصر عن محاسن شعرنا ، ونفتحها على مساوئه ، ونفعل عكس ذلك مع محاسن الشعر الافرنجي ؟ آن في الشعر العربي لمفاتن وروائع لا تقل عن مفاتن وروائع الشعر الافرنجي جمالا وجلالا ان لم تزد ••• ولكن بعض المفتونين بالغرب على علاقة ، المكبرين كلّ ماتخرجه المطابع الغربية ، لا يرون في الشعر العربي ما يستحق الاهتمام ، فهو لا يزال في اعتقادهم تقليدا في تقليد ، يخضع لاغراض مادية توجهه وتمليه ، وهو لا يعبر عن خوالج النفس الانسانية ، ولا يصوّر عواطفها ، ولا يتورع هؤلاء البعض من القول آن الطريقة الوحيدة لابلال الشعر العربي من داء التقليد هو تطعيمه بالشعر الافرنجي وترسم خطى شعراء الغرب ••• " (1)

وكانت فئة من شعراء مخضرمين ، هم من مدرسة محمود سامي البارودي وشوقي وحافظ ، تحافظ على القديم ، وتفضل الثقافة العربية القديمة ، فتحت منحى شعراء العرب القدامى ، من جاهليين ، واسلاميين وعباسيين ، وكان منهم أمين ناصر الدين والأميرين نسيب وشكيب أرسلان ، يمثلون هذا المنحى أصدق تمثيل (2) ، ومن جهة أخرى ، وبعد تضاعف الاتصال الجذري بالأدب الغربي ، وكثرة الترجمات ، ظهرت نخبة من الشباب متحمسة للآداب الغربية ، ترغب في نهج دروبها والسير في أثرها ، وتنادي بتطعيم الأدب العربي الذي أصبح ، في نظرهم عاجزا على مواكبة تطوّر العصر ، واحتواء طموحات شبابه ، وكانوا يمثلون فئة من الشعراء المثقفين

---

1 ـ م • المناهل • ع 1 • 37 ـ 38 • 1937 •

2 ـ الأديب • ج 2 • 11 • 1958 • الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين • سامي نسيب مكارم •

ثقافة أجنبية الى جانب ثقافتهم العربية وعلى رأسهم بشارة الخوري، وأمين تقي الدين ، وشبلي الملاط والياس فياض وثقولا فياض.(1)

يقول مارون عبود : " لقد أيأسنا شعرنا من كل خير طلبناه عنده.. أطبقت عليه حتى التقليد دهورا، والتقليد اذا اجترى على كتاب لغة واحدة وسلالة واحدة ، كما فعل السلف الصالح ، يصبح ضامرا خسيسا، اعتد العربي بشعره اعتداده بنفسه حتى قال أبو الأدب العربي : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب ... فالتقليد داء أدبنا الوبيل ، هو تصلب شرايين قلب الأدب العربي والعتيق ، هيهات أن يلين بعدما يبس... فلنطعم أدبنا . قد حان لهذه الوثنية الأدبية أن تتوارى ، فالفن لا يعرف الا الها واحدا هو الجمال... فاذا شئنا خلق أدب جديد فلنخلعن أنفسنا التي ألبستنا اياها الأجيال ، وتفكر بعقل جديد وتعبير حديث ... أما مع " شعراء اليوم " فقد تنازلنا عن تلك المنجهية العارمة ، وصاهرنا الأجانب ، عن غير طريق الولاء ، فكانت لنا ذرية أدبية جديدة ، ليست كلها على نمط ... ان جوهر الشعر العربي القديم لا يتعدى المحسوسات ...[أما شعراء اليوم] فأعينهم تدرك العلاقات البعيدة التي تربط الأشياء ببعضها ، وتولجنا في أعماق جمالها الجذاب ... فالشاعر هو من يرى الأشياء أشياء غيرها ... " (2)

واجتمع شباب أدباء ، تثقفوا خير ثقافة ، واطلعوا اطلاعا حسنا على الأدبين العربي والغربي ولا سيما الفرنسي ، تحت شعار التجديد في الأدب العربي ، وكونوا " عصبة العشرة " وكان الياس أبو شبكة عضوا فيها ، شنت هذه العصبة أشد حربها على القديم وعلى شيوخ الأدب ، فنجد أحدهم يقول : " أجل ليس بين شيوخ الأدب في لبنان

1ـ الأديب . ج 4 . 26 . 1958 . الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين . سامي نسيب مكارم .

2 ـ ينظر مارون عبود . مجددون ومجترون . 75 . 95 .

من يستحق أن يدعي أديبا ، فالأديب كما يفهمه الغرب ، وكما يحاول كلّ منّا أن يكون هو ، غير " الشاعر" الذي ينبش قبور الأموات ليسرق أروع ما فيها من معنى وتركيب وصورة وخيال ... نحن نريد أن ننفذ بكتاباتنا الى سائر الطبقات المتعلمة على تفاوت درجات علومها وتباين مقادير ذكائها ..." (1) ، ومن قول الياس أبوشبكة في مقدمة كتبها لكتاب لامرتين Lamartine " سقوط ملاك " الذي نقله الى العربية : " بدأنا نشعر منذ سنوات قليلة بأنّ نزوة من نزوات أرواح متمردة على التقاليد الأدبية ، قد اندفعت لتظهر شعرنا وفلسفتنا من الأدران المتغلغلة في عروقها بعد أن استولت المادة على ذكائنا وإرادتنا زمنا طويلا! هوذا جبران خليل جبران وأيوب ولبيب والريحاني والرّاعي والشاعر القروي والأخطل الصغير وأديب مظهر ومعلوف ، فانّهم قد كشفوا عن شاعريتهم المتحجبة تحت ستور النفس العميقة ، فلا يسعنا الاّ أن نحيي فيهم تلك الطريقة الجديدة التي افتتحت عهدا جديدا في الأدب . آن لبنان الذي يفكر ويريد لم يلقكلا كان عليه بالأمس ، لأنّه نفض عنه عقم الماضي وجدابته اللذين طالما أنزفا ماء النبوغ في أرواح الأدباء" (2) .

"فاستحالت الثقافة العربية وتمثلت في نفوس أبناء جيل أبوشبكة ، وامتزجت بأرواحهم وجرت في عروقهم ، حيث ولد الواحد منهم في حجر هذه الثقافة في بيته ونهل من ينبوعها في مدرسته ، وأدمن تغذية عقله بها في مجتمعه وللأدب الفرنسي أعمق مؤثر في هذا الفريق من أدبائهم المحدثين . ويمكننا أن نعد الياس أبو شبكة في حصوله الأدبي شعرا ونثرا خير ممثل لهذه الطبقة من الأدباء اللبنانيين" (3)

---

1 ـ م . المعرض ، ع 009 . 5 . 1930 . فؤاد حبيشي (نقلا عن رزوق فرج رزوق الياس أ . ش وشعره . 13) .

2 ـ الياس أ . ش " سقوط ملاك " . 12 (قصة ألفها لامرتين Lamartine وترجمها الياس)

3 ـ م . الثقافة . ع426 . 47 19 . رفائيل بطي .

لقد آمن أبو شبكة بالصلات الثقافية بين لبنان والعالم العربي ، بينما رأى آخرون أن لبنان لا يتصل ثقافيا بالعالم العربي بل بالحضارة المتوسطية ، ليؤكدوا الروابط التي تشد لبنان الى فرنسا ، وقد قاد هذا التيار ميشال شيحا وميشال القرم ، وكان الشاعران صلاح لبكي وسعيد عقل من دعاته .(1)

وكان الصراع بين المذاهب الفكرية والفنية في العالم الغربي من أهم العوامل التي لعبت دورها في تفتح براعم النهضة الأدبية في العالم العربي ، الذي بدأت تباشيره في أعقاب الحرب الكونية الأولى ، وظلت تتطور ببطء حتى اشتد ساعدها منذ بداية الربع الثاني من هذا القرن على وجه التقريب . ولم تكن هذه المذاهب وليدة الأوضاع التي وجدت في البلاد العربية بقدر ماهي نتيجة التماس الفكري الذي ازداد في هذه الفترة بين العرب والشعوب الأوروبية عامة ، والشعبين الفرنسي والانجليزي بوجه خاص . فالمدارس الفنية التي عرفتها هذه الشعوب ، وتكونت منها آدابها ، انتقلت بحكم هذا التمازج الفكري والثقافي الى متنوري البلاد العربية ، فوجدت فيهم استعدادا للتأثر بها والانطباع بطوابعها ، وأوجدت عندهم حوافز نشيطة للعمل على غرارها ،

1- ينظر . رتا عوض . الياس أبو شبكة . 19 .

وفي هذا المضار يقول منيف موسى في كتابه (الشعر العربي الحديث في لبنان ، ص 16) :

" ... الا أن الشعراء موضوع هذه الدراسة - 1 ويقصد بهم : أديب مظهر ، يوسف غصوب ، الياس أبو شبكة ، صلاح لبكي ، سعيد عقل ، صلاح الأسير - كانوا مسيحيين ماعدا واحد منهم ، هو صلاح الأسير ، فلم يروا حرجا في تقبل مستلزمات الحضارة الجديدة الوافدة ، ربما لشعورهم بوحدة العقيدة مع المنتدب ، أو لتأثرهم البالغ بالثقافة الفرنسية التي طبعتهم بالطرائق الأوروبية وأكدت الصلة بينهم وبين الآداب الغربية ، فاستسلم لها الشعراء الناشئون استسلاما يميل الى التمذهب نوعا ما ، فكان لابد أن ينعكس هذا التأثير في شعر هؤلاء الشعراء الجدد ... "

واثارة الأفكار في الشرق على صراعها وتزاحمها . (1)

ومثل ماكان لبنان في بدء عصر النهضة الحديثة سبقا الى اقتباس العلوم والآداب ، وتطعيم النهضة بها ،مما ساعد على خلق العصر الأدبي الجديد في دنيا العرب ، كان كذلك سبقا الى التأثر بأغلب هذه المذاهب الفنية الحديثة . فكان لكل منها أنصار وتلاميذ ، وانتشر تأثيرها عن هؤلاء الانصار وعن هؤلاء التلاميذ في الأقطار العربية على مقاييس متفاوتة . وكان للأدب الفرنسي المكانة الأولى والحظ الأكبر من هذا التأثير، لما فيه من غنى في مذاهب الفكر والفن . (2)

أما حظ هذه الاتجاهات الأدبية الغربية الحديثة من التأثير في الأدب اللبناني الحديث ، فلم يكن متساويا ، فكان المذهب الرومنسي والمذهب الرمزي أوفرها وأكثرها انتشارا . (3)

فنشأ في لبنان تياران أساسيان أحدهما تغلب عليه النزعة الرومنسية ، وثانيهما يتمسك بأهداب النزعة الرمزية . وقد لاحظ كثير من الدارسين أن النزعتين ظهرتا معا في لبنان وترافقتا وتصادمتا وتشابكتا ، فالتقى شعراء هذه الفترة بهاتين المدرستين الفرنسيتين في آن واحد - (رغم أن الرومنسية في فرنسا قد سبقت الرمزية بجيلين على الأقل) - فمنهم من تأثر بالأولى وتبعها ، ومنهم من تأثر بالثانية واستلهمها ، ومنهم من وقع تحت تأثير الاثنين معا ، فلم يسلك طريق هذه ولا تلك ، بل بقي مؤرجحا بينهما ، آخذا منهما على السواء . (4)

---

1 - ينظر . الأديب . ج . 20 . 1952 . (الرمزية في الأدب العربي الحديث) عيسى الناعوري .

2 - ينظر . نفسه .

3 - ينظر غالب غانم . 154 .

4 - ينظر . م . الآداب . ع1 . 66 . 1955 . مريم صقر . وثبة الشعر اللبناني .

أمّا الرّومنسية ، في لبنان ، فلقد ترسم خطاها والتزم بها نفر كبير من شعراء النّهضة ، بحيث تسرب هذا الاتجاه الفنّي بدرجات متفاوتة الى نتاجهم ، وذلك في المرحلة الواقعة مابين الحربين العالميتين بصورة خاصّة ، ومن أبرز الذين اعتنقوا هذا المذهب ، خليل مطران ، بشارة الخوري ، الياس أبو شبكة ، نقولا فياض ، ومن المهجريين : جبران خليل جبران ، وايليا أبو ماضي وفوزي المعلوف . (1)

وأمّا الرّمزية ، ـ هذا الاتجاه الفنّي الذي يعود أصله الى آثار بعض رواده الغربيين ، وأعلامه في الأدب الغربي ـ " وقد كان (ادغار آلان بو) الأمريكي أوّل من رمى بهذه البذرة المعطاء ، فتلقاها (بودلير) الفرنسي ، وتعهدها حتى نجمت منها نبتة صغيرة ثم ربت وبسقت أغصانها في الشعر الفرنسي ، وتفيأ في ظلّها مدارس وحركات شعرية " (2) فكان لبنان هو أوّل بلد تلقى صداها ، وهفت اليه نسيمها فاستنشقه جبران خليل جبران ليلوّن بالرّومنسية عاطفته الثائرة المتمرّدة ، ويضيف اليها رمزية خفيفة لطيفة ، واستعار الياس أبو شبكة في ديوانه " أفاعي الفردوس " صورا بودليرية عنيفة غريقة بالشبق والشهوة ، يفجر التناقض والصراع ، وانتقى أمين نخلة اللّفظ الناعم الناصع المترف ومال يوسف غصوب الى جلاء صور برناسية فنحها حركة وغموضا ورمزا ، واصطاد صلاح الأسير خيالا آبدا شاردا ، وشيع رشدي معلوف وصلاح لبكي ويوسف الخال ، الدفء والسلاسة والرّقة ، ووهب سعيد عقل رعشة جديدة في الشعر والمسرحية الشعرية ، وأضفى عليها من أخيلته وألفاظه ومعانيه جوّا جديدا . (3)

1ـ ينظر • غالب غانم • 154 •

2 ـ بديع حقي • محاضرات الموسم الثقافي (1960ـ 1961) ج 4• 77 •

3 ـ ينظر نفسه • 84 ـ 85 •

فأسرعت الرّمزيّة في لبنان بعد الحرب العالمية الأولى ، واستطاعت أن تطبع عددا وفيرا من الشعراء بطابعها ، ثم تسربت الى بلدان أخرى وشعراء آخرين عرب ، فظهر بعض ظلا لها في شعر أبي ريشة ونزار قباني في سورية ، وظهرت في شعر البياتي وبدر شاكر السياب في العراق • (1)

ويقول الدّكتور حامد حنفي داود ، بأنّه أصبح للرّمزية مجال واسع النطاق في شعرنا المعاصر اليوم ، وأنّ النصف الثاني من القرن العشرين يعتبر عصر الرّمزيّة فيه • وذلك لتغلب هذا المذهب الأدبي على غيره من المذاهب • (2)

وأهمّ ما خلفته الرّمزيّة في الشعر العربي المعاصر ، هو تجربة الشعر الحرّ ، (3) وقد عرف الشعر الفرنسي من قبل هذه التجربة ، وبلا هذه الثورة التي حطمت الأوزان المعروفة المطروقة على الطريقة الكلاسيكية •

وقد رغب كثير من الشعراء الرّمزيين ، وغير الرّمزيين من العرب في التزام الشعر الحرّ ، مثل سعيد عقل ، وصلاح الأسير ، ورشدي معلوف ، ويوسف الخال ، ونزار قباني ، وعبد الوهاب البياتي ، وبدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وصلاح عبد الصبور ، وغيرهم •

---

1 ــ ينظر • بديع حقي • محاضرات الموسم الثقافي (1960 ــ 1961) ج 4 • 85م

2 ــ ينظر • تاريخ الأدب الحديث • 139 •

3 ــ ينظر • بديع حقي • محاضرات الموسم الثقافي (1960 ــ 1961) ج 4 •

الفصل الاول

1ـ ثقافة الياس الفرنسية :

لقد تأثر الياس أبو شبكة ، مثل معاصريه في لبنان ، في الفترة مابين الحربين العالميتين ، بالآداب الغربية ، وخاصّة الفرنسية منها ، بسبب وجود الانتداب الفرنسي في هذه الفترة بلبنان ، فقام شعر طائفة من الشعراء اللبنانيين على ثقافة متأثرة في مجملها بالثقافة الفرنسية ، صبت فيها روافد ثلاثة : رافد تربوي يحمل تعليم المؤسسات وبرامجها ، وأثر ذلك في بناء الانسان اللبناني في مرحلة (1918ـ1945) ، ورافد ثقافي يحمل حركة الترجمة من الفرنسية وأثرها في الشخصية الأدبية في لبنان ، ورافد اجتماعي سياسي يحمل نتائج وأثر العلاقات الاجتماعية والسياسية اللبنانية الفرنسية في نفس الحقبة.(1)

ففي جوّ هذه الثقافة نما الياس أبو شبكة وتفتح ، في فترة كانت فيه اللّغة الفرنسية تسير جنبا الى جنب مع اللّغة العربية ، فاستأنس بهذه اللّغة منذ حداثة سنه ، شأنه في ذلك شأن معاصريه اللبنانيين ، لقد تعلموها وهم صغار ، في المدارس والمؤسسات الرهبانية ، وأتقنوها وهم كبار ، فوسعوا من آفاق ثقافتهم بتفتحهم على الآداب الغربية مباشرة تارة ، وعن طريق الترجمة تارة أخرى .

---

1 ـ ينظر. منيف موسى . الأدب العربي الحديث في لبنان . 21-22 .

أمّا إلياس أبو شبكة ، فقد درس في معهد عينطورة ، وهو معهد كان يولي تدريس اللّغة الفرنسية وأدبها وتاريخ فرنسا وحضارتها ، اهتماما كبيرا . (1) ولم يكن المعهد فريدا من نوعه ، بل كانت مدارس كثيرة تشبهه ، تسابقت الى جبل لبنان تحت رايتي الكاثوليكية والبروتستانية " وجعلت كلّ منها تجتذب الأشياع والأتباع بما تسبق اليه من المدارس حتى بلغت المدارس مبلغا كبيرا بالقياس الى سكان الجبل ... " (2) ، فتهافت الناشئة على هذه المدارس " والناس يومئذ كانوا يتشوّقون الى الغرب ويتطلعون الى أد به وعلمه وثقافته ، ذلك بأنّهم كانوا يحسون أنهم انّما يكتشفون أنفسهم في هذه الحضارة الجديدة " (3) واذن ، فقد تعلّم إلياس الفرنسية منذ صغره مثل أترابه ، فناصروها وتمسّكوا بها ، وأعجبوا بكلّ ما حملته معها من ثقافة وحضارة ، فطبعت ثقافتهم بالطابع الفرنسي بصورة خاصّة ، وذلك لأنّ جلّ مدارس الارساليات كانت تنطق باللّسان الفرنسي ، فمال اللبنانيون الى هذه المدارس لوفرة عدد ها ورقي برامجها . (4)

لقد اجتذبت اللّغة الفرنسية إلياس أبو شبكة ، منذ صباه ، وراح يجتهد فيها الى جانب اللّغة العربية ، ويتفوق فيها ، الى أن تمكّن منها ، وأتقنها ، وتمرّن في نظم الشعر فيها وهو في السادسة عشر من عمره أو دونها . (5) وقد روى لنا إلياس عن نفسه أنّه نظّم ، مرّة ، في ربع ساعة ، ثلاث رباعيات باللّغة الفرنسية تحية للرئيس

1ـ ينظر . رزوق فرج رزوق . الياس أ . ش . وشعره . 57 .

2 ـ حلمي مرزوق . مقدمة في الأدب الحديث . 124 .

3ـ ينظر . نفسه .

4ـ ينظر . منيف موسى . 21 . 22 .

5ـ ينظر . رزوق ف . ر . 46 .

أساقفة روان ، عندما زار المطران يوسف الخازن في الزوق ، وألقاها أمام موكبه في الطريق ، بعد أن استوقفه بجرأة واعتداد بالنفس والشاعرية . (1)

فشبّ إلياس وكبر، وزاد تقديره لهذه اللّغة واعجابه بها ، بل امتدّ هذا الاعجاب الى وطن هذه اللّغة و نظمها السياسية والاجتماعية والأدبية ، ويظهر لنا ذلك في مؤلفاته حيث نجده ، مثلا ، في كتابه " روابط الفكر والرّوح بين العرب والفرنجة " يقول : "...وقد لا نخطئ، اذا قلنا أن فرنسا هي ثدي العالم وأن معظم الحركات الاجتماعية والسياسية والأدبية رضعت من هذا الثدي ... فلفرنسا الفضل الأكبر على جميع الحركات الأدبية التي قامت في أوروبا أولا ، وفي سائر بقاع الأرض أخيرا . فأن تكن فرنسا اعتدت في آداب الأمم الأخرى على غذاء قوي لها ، فقد أدت الى هذه الآداب خدما لم يكن لها غنى عنها ، اذ نشرتها في جميع أجواء الأرض . فلولا فرنسا لم يكن لآداب الأمم هذا الذيوع العظيم في مشارق الأرض ومغاربها ..." (2) . وهو نفسه نهل من معين الآداب الأخرى ، وذلك بقراءته الأعمال الأدبية المترجمة الى اللّغة الفرنسية . (3)

لقد تلقى إلياس هذه اللّغة بصدر رحب ، وهو طفل صغير، وتمسّك بها وهو كبير ، وجعل منها وسيلة وسلاحا يشق بهما طريقه الفكري . فاستغلها ليغرف من الثقافة الفرنسية ، بل " ليرضع ثدي العالم ،

1- ينظر . رزوق ف . ر . 46 .

2- إلياس أ .ش . ص 7 .

3- ينظر . رزوق ف . ر . 58 .

فرنسا " ، على حدّ تعبيره ، فتزوّد منها زادا وفيرا ، وتتبع أحداث هذا الوطن ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أوأدبية.(1)

لقد فتحت له هذه اللغة باب الاطلاع على أحوال فرنسا السياسية والاجتماعية ، وفتحت له مجال المقارنة بين فرنسا وبين أحوال بلاده ، لبنان _ التي كانت متدهورة يومئذ _ فأعجبته الثورة الفرنسية القائمة على مافتقده في بلاده من عدل وانسانية وحرّية ؛ يقول عن الثورة الفرنسية : " ... فمن روح الله _ من الشعب والعدل والانسانية استمدت الثورة الفرنسية عناصر دستورها ، فكان دستور الحرية والمحبة والعقل ..." (2).

لقد أصبحت فرنسا ، بالنسبة للشاعر ، المثل الأعلى ، في كلّ الميادين ، الذي ينبغي الاقتداء به ،وكثيرا مانوّه بفضل هذا الوطن العميم على الدنيا ، في حماس واندفاع شديدين . (3)

واذا كان إلياس قد أعجب بالأنظمة السياسية والاجتماعية الفرنسية ، فحظ الأدب الفرنسي كان أوفر وأوسع في نفسه ، وكم كان يحس بالفرق شاسعا بين الأدبين _ أعني العربي والفرنسي _ وهو حامل لواء النداء بالتجديد في الأدب العربي ، " نريد أدبا جديدا "(4) كان يصرخ في وجه الجمود والركود الذي استولى على الأدب العربي وشله في تلك الفترة . فساهم في المعركة التي شنها نفر من الأدباء ،

1_ ينظر . الأديب . ع . 31 و 32 . 1943 .

2 _ إلياس أ . ش . الفكر والرّوح ... 55 .

3_ ينظر . رزوق ف. ر . 61 . 62 .

4_ ينظر. رتا عوض. الياس أبو شبكة . 18 .

لتحرير أدبهم من الأوثان والأوهام والرواسب ، التي كانت تعترض طريقهم نحو التفتح والانطلاق ٠ (1)

وكان جل الاهتمام إلياس منصبا على الأدب الفرنسي ، وعنه يقول : " وان يكن الأدب الفرنسي حال خلال الحقبة الأخيرة عن عهده في جانب كبير منه فما لبث أن عقب الى تقاليده المأثورة ، هذه التقاليد التي نشرت الآداب الفرنسية في الخافقين ، وأشعلت في كل صعيد منارة للثقافة ، ستظل مضاءة مابقي العالم ٠ ففرنسا الأدبية حية في كل أرض ، سيتنشق فيها روح انساني ، وحياتها هذه كافية للقيام بجميع المهام الكبرى " (2) فاستثار الياس بهذه الضارة ، ورغب في أن يشد هذا النور الى بلاده ، الى الأدب العربي ٠ والظاهر أن اعجابه هذا ، أدى به الى المبالغة والالحاح في الثناء على فضل هذا الأدب على العالم ، بل وفي الثناء على فرنسا كلها ، فكان من نتائج حبه لفرنسا أن أصابته سهام راشها قوم من مواطنيه ، يتهمونه في وطنيته وعروبته ، مما أثار غضب الشاعر على سوء فهم هؤلاء لمقاصده ، وعلى سوء ظنهم به ، فيدافع عن نفسه في مقال غاضب ، في جريدة المكشوف قائلا : " اذا كانت الوطنية هي أن أميع وأسيل حتى يذوب جذعي الاعلى في جذعي الأسفل ، فيصبح حتى التنويه بفضل آداب أمة بايعها العالم بالفضل ، ضربا من الخيانة ، أوشتيمة وطنية ، واذا كانت الوطنية هي أن أصغر المردة واعظم القردة ، وأن

1ـ ينظر ٠ الأديب ٠ ع ٠ 3 ٠ 1953 ٠

2ـ الياس أ ٠ ش ٠ روابط الفكر والروح ... 9 ٠

أشكر لأجل مسوّد ذي دخيلة ، أو للحصول على نعمة ذليلة ماسكبته الأجيال في دمي بهجة على فمي ـ اذا كانت الوطنية هي هذا فأنا لست وطنيا ! " (1)

ولم يكن اطلاع الياس على الأدب الفرنسي سطحيا ، بل لقد أولاه كلّ اهتمامه ، فتتبع تطوّره عبر العصور ، وعرف المأثور منه وغير المأثور ، وكانت له أحكامه وآراؤه ، وهي مبنية على معرفته الجيدة للّغة الفرنسية ، وبلاغتها وأسرار جمالها ، ومعرفة قواعدها الفنية في الأدب عامّة وفي الشعر خاصّة ، فنجده يتعرض بالدرس والنقد والتقييم لنصوص أدبية من الأدب الفرنسي ، أو من الأدب اللبناني المكتوب باللّغة الفرنسية ، ولقد ظهرت له مقالات في مجلات مختلفة حول الأدب الفرنسي وأعلامه ونشاطاتهم ، ونذكر ، على سبيل المثال قوله في الأدباء الفرنسين وعلاقتهم بالأدب الألماني : "... منذ مائة سنة توارى وجه ألمانيا الجميل ، ذلك الوجه الذي أحبه فيمن أحبه أدباء فرنسا في العهد الرّومنطيقي ، وأسرفوا في حبهم اياه اسرافا مضى بهم الى العشق والهيام ، حتى اذا نمت شهوة الفتح والعداء من الأدب الألماني ، أبى الفرنسيون أن يصدقوا أنّ موطن الأحلام والخيال ، موطن الشعر والايمان والحبّ يتحوّل الى كهف مخيف لأطلال الغزو والجشع والشهوات... " (2)
ويقول أيضا في المكان نفسه عن قصيدة بعث بها " لامرتين " Alphonse de Lamartine يردّ فيها على قصيدة حماسية حربية كتبها له الشاعر

---

1 ـ ع . 406 . 7 . 1945 . (نقلا عن رزوق ف . ر . 63) .
2 ـ الأديب . ج 2 . 51 و 52 . 1943 .

الألمانـي "نقـولا بيكـر (NIkolaus Becker) يتحدّى فيها فرنسـا تحدّيـا منكـرا ، " ... ولكن قصيـدة لامرتيـن على جمالها البالـغ لم تكـن تلائـم الظـروف والأحـوال ، فالتحـدي الألمانـي كان ينتظـر تحـدّيـا مثلـه " (1) ، وينـوّه في المكـان نفسـه ، بـردّ " الفـرد ده موسـه " Alfred de Musset الذي جاء في قصيـدة ، فيقول عنه بأنّه كان في المستوى المرجـوّ في هـذه الحالـة (2) ، ولكـأننا باليـاس يأنف ويغار على فرنسـا كما لو كانت وطنـه.

وفي مقال آخر له ، تحت عنوان " ذكـرى البحيـرة " ، يحاول القـاء أضواء على قصيـدة " البحيـرة " للامرتيـن ، يقول : " لمئـة وخمس وعشريـن سنـة ولـدت على ضفـة بحيـرة بورجـه ، في مصيـف أكس له بن ، أنقى قصيـدة عرفتها اللّغـة الفرنسيـة منذ ستـة قـرون الى اليـوم ... " (3)

كانت اذن قـراءة اليـاس للأعمـال الأدبيـة الفرنسيـة مباشـرة ، فأدرك جمالها في الأصـل وتـذوقـه في لغتهـا ، مقتنـعا بأنّ لكـلّ لغة روعة انشائيـة خاصّـة ، قد يضيـع منها الكثيـر عنـد الترجمـة . ففي مقال له تحت العنوان " مختارات لدي غـول " يقـول : " ... ولقد درس السيد غراميـه تأليـف الجنـرال دي غـو ل في كتـاب صغيـر أصـدره لأشهـر خلفـت بعنوان " مختـارات لدي غـول " بمقـدمـة ممتعـة [...] ولن نجـد في هذا البحـث المقتضـب سبيـلا الى اظهـار جمال اللّغـة والأسلـوب الذي تفـرّدت به هذه المختارات المفيـدة ، ونخشى اذا نحن عمـدنا الى نقـل شـيء منها الى اللّسـان العربي أن نفقـده تلك الروعـة الانشائيـة التي لا يهتدي الى مصفـى لبابهـا الا في الأصـل : فهذه المختارات حافلـة بكلّ رائـع

1 ـ الأديب ، ج 2 ، 51 و 52 ، 1943 .

2 ـ نفسـه .

3 ـ الأديب ، ج 4 ، 17 و 18 ، 1943 .

في الصياغة وفي سمو الفكرة ، وجمال التصوّر والتصوير ..." (1)

لم يكن أبو شبكة ، اذن ، يتلقى فقط من الأدب الفرنسي ،بل كان يكتب عنه ويتعامل معه ، وله مقالات عديدة ، في مجلات مختلفة (2) تعرّض فيها لحياة أدباء فرنسيين ولأعمالهم ، فتعرّض لطرقهم في النظم ولأساليبهم المختلفة . (3) كما كان يدلّ الشعراء اللبنانيين المعبرين بالفرنسية على القواعد الفنية الصحيحة السليمة في النظم والايقاع(4) ، كما نقد وقيّم شعر شعراء فرنسيين مشهورين أمثال أرغون (ARAGON) في مجموعته الشعرية " انكسار القلب" (5) فزيادة على أنّ الياس كان يقرأ في الأدب الفرنسي ، ويكتب عنه ويوجه له انتقادات، ويتناوله بالدّرس، كان يترجم عنه الى اللّغة العربية ، ويرجع له الفضل في نقل كثير من النتاج الأدبي الفرنسي الى اللّغة العربية ، وأكثر ما ترجمه منه وطبعه ، روايات وتمثيليات . (6)

1ـ الأديب . ج 1 . 5 و 7 . 1943.

2ـ (نقلا عن رزوق ف. ر .60ـ 61) نذكر على سبيل المثال :

ـ من صفحات التاريخ الغرامي .دكتور هيغو وجولييت د روه . المعرض ع899 . 10. 1930 .

ـ من صفحات التاريخ الغرامي .سنت بون وأديل هيغو . المعرض .ع894 . 17. 1930 .

ـ الأدب عند الافرنج من الأدب الفرنساوي . الفريد ده موسيه قبل عهده بجورج ساند . البرق . ع3385 . 2 .1930 .

ـ بول فاليري في أرائه الخاطئة . الوحي الشعري .الجمهور .ع25 . 2 .1987.

ـ كتاب فرنسا الحرة . بنجمان كونستان ، الأديب ج 4 . 10 . 1942 .

ـ أفضل مفكر في عصره . ويعني به بول فاليري . المكشوف. ع412 . 05 1945.

3ـ ينظر الأديب ج 5 . 5 . 58 . 1943 .

4ـ ينظر . نفسه . 59 .

5ـ ينظر نفسه . (Le crève coeur) .

6ـ نقلا عن رزوق ف. ر .83 . مما ترجمه الياس الى العربية :

ـ " الحب العابر" لـ . هنري بوردو / Bordeaux Henry(1870- ?)

لقد كان اطلاع الياس على الأدب الفرنسي واسعا ، وكانت قراءته له قراءة المعجب المبهور ، فلم يكن غريبا أن يتأثر بما قرأ ، وأن يتسرّب الى شعره بعض ما احتفظ به ذهنه وذاكرته وقلبه من هذا النتاج ، لقد ترك صدى عميقا في عواطفه، وأثرا كبيرا في نفسه • ويتجلى ذلك فيما كتب من شعر بالعربية • (1) ويقول رفائيل بطي في هذا المضمار : " للأدب الفرنسي أعصف الاثر في هذا الفريق من أدبائهم المحدثين • ويمكننا أن نعد (الياس أبو شبكة) في محصوله الأدبي شعرا ونثرا خير مثل لهذه الطبقة من الأدباء اللبنانيين " (2) •

2 - رومنسية الياس أبو شبكة :

وكان في اهتمام الشاعر العام بالأدب الفرنسي ، اهتمام خاص بشعر الرومنسيين ، هذا الشعر الذي وجد نفسه فيه ،

= " جوسلين " و " سقوط ملاك " لـ • لامرتين / (1869 - 1790) Lamartine

- " مجدولين " لـ • ألفونس كار / (1890 - 1808) Karr Alphonse

- " الطبيب رغما عنه " و " مريض الوهم " و " المثري النبيل " و " البخيل " لـ • موليير / (1622 - 1673) Molière(Jean Baptiste)

- " بول وفرجيني " و " الكوخ الهندي " لـ • برناردين دي سن بيير / (1814 - 1737) • Bernadine de St Pierre .

- " لاميكرو ميغاس " وثلاث قصص لـ • فولتير / (1778 - 1697) (Voltaire François - Marie)

- " مانون ليسكو " لـ • بريفو / (1763 - 1637) L'Abbé Prévost

- بودلير في حياته الغرامية " لـ • كميل موكلير • Camille Mauclaire

1 - ينظر : رزوق • ف • ر • 59 . 60 . 61 .

2 - الثقافة : ع • 426 . 185 . 1947

فتعامل معه وتأثر به "عن وعي أوعن غير وعي" (1) تأثرا كبيرا حتى كاد أن يكون شعره نسخة منه ، الى درجة ان اتهمه بعض معاصريه بالسرقة ، وشنوا عليه حملة شعواء • (2)
وكيف لا يتأثر وهو الذي فتح عينيه في مجتمع انتشرت فيه الثقافة الفرنسية ، واستأنس أهله بها ، وقد احتك بالأدب الفرنسي وهو طفل صغير في مدرسة ، تطبق برامج فرنسية ، عرف مسؤولوها ، ولا شك ، كيف يحببون للناشئة اللغة الفرنسية وآدبها ، ولكن هذا لا يعني أن الشاعر كان يغفل الأدب العربي أو يجهله ، قديما كان أوحديثا ، بل كان ملما به الماما كبيرا ، وما تركنا هذا الجانب ، المهم ، من ثقافته العامة الا استجابة لطبيعة موضوع بحثنا •

وكان الياس ينفر من الانضمام الى مدرسة من المدارس الأدبية المشهورة آنذاك ، ويرى في ذلك عبودية وسجنا ، يقول في مقاله : "في حديث الشعر" : " ••• فالمدارس الشعرية سجون ونظرياتها قيود ، والشاعر لا يعيش في جو العبودية هذا ، فالطبيعة هي جوه الفسيح ، تتكيف احساساته بتكيف المظاهر المتقلبة فيه ، واذا خرج الشاعر من هذا الجو خرج من نفسه وكذب على نفسه " (3)

لكن رغم موقفه هذا من المدارس الشعرية ، ورغم رغبته في التحرر من قيودها وعدم اعترافه بها ، لم ينج ، في نظر النقاد المهتمين بشعره ، من اللحاق بالركب والانضواء تحت لواء الرومانسية ،

1 ـ ينظر • سا بايارد نازك • الياس أبو شبكة قلب سال شعرا • 20 •
2 ـ ينظر نفسه •
3 ـ الأديب • ج 10 • 4 • 1942 •

بـل ان هناك من يرى حتى في موقفـه هذا، تقليـدا لأقطـاب الرّومنسيـة الفرنسيـة ، وعلى رأسهـم فكتورهيغو ، الذي قال في مقدمـة كتابـه "كرمـويـل" : " انّ الفـن حـرّ ولايعقـل أن يتقـيّد بقاعـدة أويخضع لقـانـون ... " (1)

لقد أولـى الياس أبوشبكـة الشعر الرّومنسـيّ الفرنسي عنايـة خاصّة، فتتبـع انتاج أصحابـه بمتعة واعجاب (2) ، واقتـدى بهم في شعره ، يقول عبد الله لحـرد ، أحد أصدقاء الشاعر، في مقال له تحت عنوان : " شاعـرنا الرّومنطيقي " : " ... جاء شعر الياس كلّه عبارة عن أبواق للرّومنسيـة الغربية، بحيث صادفت هوى في أعماق كيانه ، وهـزّت فيه أدقّ الأوتار وأخفـها ... ولم يتجـل الروح الرّومنسي في شعر الياس أبي شبكـة فحسب ، بل تجلـى في تطـوّر حياتـه بكاملها ... وأننا لما نسمـع لصرخات الشاعر في كامل قصائـده، نتأكّـد بأنّه رومنسي الى أبعد حـدّ . وأنّه في صرخا تـه السامية لايقـلّ قـوّة واحساسا وذاتيـة عن أكبـر الرّومنسيـين . هذه الصرخات التي نحسـها صـادرة عن أعلق كيـان الشاعـر حتى نكاد نقول انّ الرّومنسيـة لولـم تكـن موجودة لأوجـدها الفتى الذي أنبتتـه " الـزّوف " " . (3)

لقد برزت سمـات الرّومنسيـة واضحـة جليـة ، في انتاجـه الشعـري بصفـة عامّـة ، ناطقـة بيأسـها الطافـح وكآبتهـا وقلقـها وتمـرّدهـا وحبهـا . وعلى شاكلـة الرّومنسيـين جعل من نفسـه الموضـوع والذّات ،

1ـ رزوق ف. ر . 104.

2ـ ينظر . الأديب . ج 4 . 17 و 18 . 1943 .

3ـ مجموعة مؤلفين . دراسات وذكريات . 46 .

فجاء شعره ذاتيا من الطراز الأوّل • (1)

واعتبره المهتمون بالأدب ومذاهبه رومنسيا خالصا ، لما وجدوا من تشابه بين شعره وشعر الرّومنسيين ، فرأوا بأنه مثلهم تشاءم ، ومثلهم تبرّم ونقم ، ومثلهم عرف الاثم والخطيئة وأقدم عليهما ، ومثلهم راح يطلب الغفران ويذرف الدموع ويلتمس التوبة من أجل ماصنع ومالم يصنع كما قال فؤاد حبيش أحد أصدقاء الشاعر • (2)

فاذا كانت معظم الكتب الرّومنسية مثل كتاب صلاة بالنسبة له (3) ، أي لا تفارقه ولا ينقطع عنها بالقراءة ، فلا غرابة في أن يكون شعره صدى للرّومنسية وبوقا لها ، مّا جعل دارسيه يضعونه بكل اطمئنان في صف الرّومنسيين ، ومنهم من ذهب الى أنه يعتبر المثل الأوّل لهذا المذهب في الأدب العربي الحديث • (4)

ولاينبغي أن نفهم من هذه الأحكام أن شعر الياس تغذّى من الرّومنسية وحدها ، فالرّومنسية كانت رافدا من روافد عدة قامت عليها ثقافة الشاعر ، وتغذّى منها شعره ، الا وهي الشعر العربي قديمه وحديثه ، والمذاهب الأدبية الفرنسية الأخرى ، من كلاسيكية ورمزية وواقعية ، والتوراة وما أفاده من الآداب الأجنبية الأخرى عن طريق الفرنسية ، دون أن ننسى تجربته الشخصية في الحياة •

1- ينظر ، ايليا الحاوي • الياس أبو شبكة شاعر الجحيم والنعيم • ج ا • 34 •

2- ينظر مجموعة مؤلفين • دراسات وذكريات • 165 - 167 - 169 •

3 - ينظر • ايليا الحاوي • 10

4 - ينظر • الأديب • ج 9 - 5 - 1953 (أحمد أبو سعد) •

فهذه الرّوافد كلّها نجدها تتضافر وتصب في خزان واحد حيث تتعامل عناصرها فيما بينها ، وتتآزر لتخدم ميلا في نفس الشاعر، وطبيعة له خاصّة ، فينساب شعره يحمل من كلّ عنصر شبها ، لكن فيه عنصرا يطغى على غيره من العناصر ، وهذا العنصر هو للرومنسية التي تلاءمت ونفسية الشاعر ومزاجه .

فجاء شعره زاخرا بعواطف رومنسية " غمس ريشته بجراح قلبه وصبّ الحرف من ضياء عينيه وفتنة شبابه " (1) ، وساهم في بناء صرح الرّومنسية في الأدب العربي الحديث .

والشاعر في بداية انتاجه لم يستطع الانطلاق الكلي من ذاته، ولم يقدر على التحرّر فيكون شعره مطبوعا بطابعه الشخصي دون أن يتكىء على شعر من قرأ لهم من الرّومنسيين الفرنسيين ، ويظهر ذلك في " القيثارة " باكورة انتاجه الشعري ، اذ لم يستطع أن يطير فيها بجناحيه ، بل بقي يتخبّط في أحضان الرّومنسية ، فجل القصائد ، بهذا الديوان ، مقتبسة أو مترجمة عن الفرنسية (2) ، وكان يتصرّف فيها تصرّفا مطلقا . (3)

ويعتبر رزوق فرج رزوق هذه المرحلة ، التي كتب فيها الياس مجموعته الشعرية " القيثارة " ، الثانية من مراحل العمر الثلاث ، التي تحدث عنها ت . س . اليوت ، والتي يمرّ بها الشاعر وهي تبيّن مراحل تطوّر شعر الشاعر

---

1 ـ الأديب . ج 3 . 24 . 1953 . بقلم : أحمد أبو سعد .

2 ـ ينظر . غالب غانم . شعر اللبنانيين باللّغة الفرنسية . 28 .

3 ـ ينظر . رزوق . ف . ر . 57، 58 .

ونموّ شخصيته الأدبية ، يقول (1) : " المرحلة الأولى تنتهي في الثانية عشر من العمر ، وفيها يمتلك الحدث المقدرة على بعض الاستمتاع بالشعر . والمرحلة الثانية ـ (وهي المرحلة التي يكتب فيها الياس قيثارته ") ـ تستمرّ حتى الثانية والعشرين تقريبا ، وهي مرحلة تمثّل سريع وهضم نشيط ، فيها يقبل الفتى على نتاج غيره من الشعراء بشغف واعجاب ، ويتطبع أكثر من واحد منهم فيتأثر خطاهم ، مبنى ومعنى ، ويدور في حلقة التقليد . أما المرحلة الثالثة فهي دور النضج الذي تنمو فيه عند الشاعر ملكة النقد ، ويتوفر لديه حسن الاختيار ، ثم تبرز عناصر أصالة ، فلا يعود ريشة في رياح .. " (2) ، ويتابع رزوق فرج رزوق قوله بأنّه اذا كان لا يصحّ هذا الرأي دائما ، ولا يشير بوضوح الى مراحل شاعرية كلّ الشعراء ، فهو صحيح فيما يختص بأبي شبكة في عهد قيثارته . (3)

كانت مجموعة " القيثارة " الشعرية هي فاتحة انتاج الياس الشعري ، الذي جمع في ستة دواوين (4) ألفها في مرحلة

---

1 ـ ينظر . رزوق ف . ر . 57 . 58 .

2 ـ الأديب . ج 3 . 20 . 1955 . " نظرة في النقد الأدبي " ترجمة : منح خوري (نقلا عن رزوق . ف . ر . 144) .

3ـ رزوق . ف . ر . 144 .

4ـ نفسه . 115 .

ـ " القيثارة " 1926 (ورد عند رزوق . ف . ر . 1966 خطأ . 115) مكتبة صادر .

ـ " أفاعي الفردوس " (1938 الطبعة الأولى) دار المكشوف بيروت .
(1948 الطبعة الثانية)

ـ " الألحان " 1941 . دار المكشوف . بيروت .

ـ " نداء القلب " 1944 . دار المكشوف . بيروت .

كان لايزال فيها مغمورا باعجابه بأساتذته الرومنسيين ، اعجاب واكبار لقدرة هؤلاء * جعله يفقد ، الى حدّ ما ،الثقة في نفسه ، وهذا ما حدّ — في نظرنا — من نشاط شاعريته وخياله ، وأخره عن استعمال قدراته وابرازها ، وجعله يلجأ الى شعرهم يقتبس منه، ويترجم قصائدهم دون أن يعتمد على نفسه •

أمّا مجموعاته الأخرى ، التي تلت " القيثارة " ففيها نجده يحاول الاستقلال عن هذه التبعية ، فتبرز شخصيته ، رومنسية دائما ،لكنّها لونت شعره بطابع البيئة والمحيط ، وعواطفه ، وكان لواقعه الحياتي وتجاربه حظ كبير فيه ، وان كان بهذه المجموعات مايزال يدين به الشاعر لغيره من الشعراء الفرنسيين الذين تأثر بهم كما سنرى فيما بعد •

وشعر الياس،داخل هذا الاطار الرومنسي العام لشعره ، ينقسم — في رأينا — الى قسمين ، ولا نعني بهذا التقسيم الفصل البات بين القسمين ، وهما يقيمان داخل اطار واحد هو الرومنسية :
فقسم[1] منه كان رومنسيا (عاديا) ، أي لم يتميز عن شعر معاصريه المتأثرين بهذا الاتجاه ، ولم تطرح عليه علامات استفهام وتعجب مثل القسم الآخر • وقسم آخر ، رومنسي أيضا ،لكنه اكتسب لونا جديدا تميّز به، وكان هذا اللون أسودا ودامبا جديدا ما سبق أبا شبكة — حسب

---

* — " الى الأبد " 1945 •دار المكشوف • بيروت •
— " غلواء " 1945 • مكتبة صادر •
1 — وهذا القسم هو الأخير في ترتيب انتاج الياس الشعري • فما قدّمناه الا لتسهيل سير البحث والمحافظة على خطته •

أحكام واستنتاجات دارسي شعره ـ أحد اليه في الأدب العربي قديمه وحديثه .

أما القسم الاول ـ في ترتيبنا ـ من شعر الياس، فهو رومنسي هادئ عذب ، ينسجم وخرير المياه، وأناشيد الربيع ، والموسيقى الهادئة والألم الصامت والنفوس الحزينة والعقول الحالمة ، لا ازعاج به ولا عنف ولا وحشية ، رأى فيه الدارسون الياسا " انسانا وادعا ، هنيئا يغني العفة والمحبة والهوى النقي " (1) .

جمع هذا القسم في ثلاثة دواوين : " الالحان " و " نداء القلب " و " الى الابد " .

فكانت مجموعة " الالحان " ملحمة ريفية شحنت أناشيدها بكل ضياء السماء وعبق الأرض اللبنانيتين ، تنضب لوحاتها بكل دبيب الحياة في القرى والحقول والاشجار والطيور ، وتميد بالألوان المحببة والهمسات الحلوة المتصاعدة من أعياد القرية وعاداتها وألعابها ، وطرائق العيش البسيط الهانئ فيها . (2)

أما "نداء القلب " فيتدفق حبا جديدا ، يضيء قلبه بالطمأنينة والهناء والرجاء . (3)

---

1 ـ الأديب . ج 3 . 5 . 1953 . بقلم . علي سعد .

2ـ ينظرنفسه . 7 و 75 .

3 ـ ينظر نفسه .

ويلي ذلك " الى الأبد " الذي له طابع قصصي به من حلاوات البث والتجوى بين قلبين تلاقيا على الهوى كما لو كانا أول من وقع على الحب في الأرض وأول من احترق بلهيب الوجد بين المحبين • (1)

وكانت رومنسية الياس في هذه المجموعة ، رومنسية حالمة ، سعيدة راضية هانئة هادئة • • • تنهج فيها النهج الذي سار فيه جلّ شعراء هذه الحقبة ، مهتدين بضوء الرومنسية الغربية ، في وحدة وتجانس •

لكن القسم الآخر من شعره - وهو القسم الذي يهمنا في بحثنا - والذي قلنا بأنه تميّز عن شعر معاصريه الرّومنسيين بلونه الأسود الدامي ، فيتمثل في " أفاعي الفردوس " أولا وفي " غلواء " ثانيا • حتى اعتبره بعض الدارسين زعيما للأدب الأسود بلا منازع في الأدب العربي الحديث • (2) ورأى بعضهم بأن الياس تعدّى حدود خصائص الرّومنسية ، (3)

" الى الشعر الجنسي وانصرف الى طلب الملذات المصاحبة للآلام ، فسيطر عليه بعض الميول المنحرفة ، وبهر الأدب العربي بنوع من الشعر الرّومنطيقي الملعون ، الفائر باللذائذ ، الدافق بالشهوة ، والتضرم واحتدام الشبق ، طالعا على النّاس " بأفاعي الفردوس " الكتاب الذي هزّ النوادي الأدبية وكان ثورة من عواطف مكبوتة وأجساد تتقلب على جمر الرغائب وفحيح الملذات • • • " (4)

---

1 - الأديب • ج 3 • 7و 75 • 1953 • بقلم • علي سعد •

2 - ينظر نفسه • 7 •

3 - ينظر • الأديب • ج 3 • 25 • 1953 • أحمد أبو سعد •

4 - نفسه •

3 ـ علاقة " غلواء " بـ " أغاني الفردوس " :

هزّ نزول " أغاني الفردوس " الى الساحة الأدبية النوادي الأدبية لأنّه زحزح التقاليد والمضامين الشعرية السائدة آنذاك ، وأضفى على الشعر ألوانا جديدة جلبت انتباه الأدباء اليه واهتمامهم به .

وكأننا بالياس راض عمّا وصل اليه في "أغاني الفردوس" ، وهو ما كان يصبو اليه منذ " غلواء " ـ في رأينا ـ من حقد على الناس ، ونفور منهم ومن نفسه كانسان ، بل من ظروف الوجود الانساني ككلّ ، ومن حالة النفس البشرية المتجاذبة بين طرفين هما الخير من جهة والشرّ من جهة أخرى ... فكلّ هذا كان باهتا ضئيلا في " غلواء " بلغ جهده وقواه في " أغاني الفردوس " ، تبلور واتضح في نفس الشاعر وفي نظر أهل الأدب .

لقد ضمن هذا الديوان كلّ مشاعره المتمزقة ، أدخلها الى عالم الشعر عارية ممزقة دامية أثارت اشمئزاز أهل الأدب والمحافظين على سلامته ، وصوّر اضطراباته النفسية وتقلباتها بين الاتجاهين ، اتجاه الخير واتجاه الشر ، في جرأة وتلقائية مست بخشونة وترا حساسا لدى الأخلاقيين ، وصوّر روحه جاثية تتألم ضعيفة تنهشها المتناقضات ، على مشهد من العالمين ، فاستحق لأجل اتقانه في التصوير والتلوين وسام ضعف الايمان ، والفجور واللعنة ...

فـ " غلواء " على ما يدو لنا ، كانت بداية هذا الصراع وهذا الشطط ، وما كانت ، في نظرنا ، غلواء (المرأة) الا لتمثل قطب الخير ، و " وردة " لتمثل قطب الشر في " غلواء " الديوان ، فحتى لو كان لغلواء ولوردة

وجود حقيقي في حياة الشاعر ،كما يثبت ذلك كل من درس شعره وحياته ومنهم زروق فرح زروق الذي يقول : "غلواء اسم الحبيبة التي تفتح على حبها قلب الشاعر ،وانبثق هذا الحب قصائد تموج فيها العواطف والأحاسيس والرؤى ..." (1) ، الا أن في "غلواء" الديوان ،ماكان وجودهما الا رمزا ، ولقد صرح بذلك هونفسه وماصدقه أحد ، قال ، في مقدمة هذا الديوان : " كتبت " غلواء " بين 1926 و 1932 وليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه الا شطر ضئيل فهي في مجموعها من صنع الخيال لا من صنيع الواقع .

وعبثا يحاول القارئ ، ولو طال الزمن ، أن يجد في " غلواء " مستندا لظن أو موضوعا لاجتهاد . فهي حياة جماعة لا حياة فرد ، هي الحياة وليست حياة ، هي قصيدة لاتاريخ " (2) .

الا أن هذا الاطار الذي اختاره الشاعر في ديوانه "غلواء" من الحقيقة ، لم يتسع لما كان يصطرع في نفسه من احساسات متناقضة ونظرات عميقة ، فطغت الذاتية ، بحكم واقعية الاطار ، وحدّت من جموح الاحساسات والمشاعر وبعد النظر مما كان يهدف اليه الياس ، من مشروع لفكرة أو أفكار معينة كان يريد التعبير عنها . ألم يقل هونفسه : " أنا وغلواء أو غلواء وأنا ، لا شأن لأحد في ذلك ، وكل ما يهم الناس هنا - أن يكن هناك من يهتم بي وبغلواء - أن يعلموا من أنا ومن غلواء .

---

1 - رزوق . ف . ر . 154 .

2 - " غلواء " المقدمة .

هناك غلواء ان غلـواء " القصيدة " وغلـواء الفتاة الطاهرة البريئـة الحلوة العذبـة وغلـواء الوحي الشاعـرية • قديكون لغلـواء الأخيـرة علاقة بغلـواء الأولـى ، ولكنها عـلاقـة نقيـة لا تمـت بسبب الى المشاهـد الداميـة الملطخـة في القصيـدة ، الى مشاهد النـدم والتكفيـر بعد السقوط •••

أعترف أنني كفـرت بغلواء وقصرتها * حقها ولكني لم أشأ أن أقـف في وجـه الموضوع الذي رسمتـه في مخيلتـي وكان يقتضي أن أمزج حبـي النقي بالحب القـذر ، أي ما أحسسـت بها اختبرت لأجعل من هاتيـن النظرتين عنصـرا أبني عليه فكـرة انسانيـة محضـة •••" (1)

فهذه (الفكرة الانسانيـة المحضـة) التي شغلتـه وراودتـه ، وكان هو مؤمنا بعظمتها ، أحـس بأنه فشـل في التعبيـر عنها في " غلـواء " وذلك من خـلال ردود الفعل التي لاقتها القصيدة عند نشرها ، فتجده يعـود لنفـس التجربـة في " أفاعـي الفردوس" معتمـدا في هذه المرة أطـرا وأساليـب أخرى ، أطـرا من الأسطـورة والشموليـة ، وأساليب قويـة عنيفـة تناسـب فكرتـه ، لعلـه يصـل الى بلـورة هذه (الفكرة الكونيـة) التي تشغلـه ، كأن يقتبس أسطورتي شمشون ودليلة ، ولـوط وابنتيـه ، ليرمـز الى تأصـل الخطيئـة في الانسـان • (2)

---

1 ـ المعرض الأسبوعي • ع934 • 1931 • (نقلا عن رزوق فـ• ر• 166 ـ 167) •

2 ـ ينظر• سامي ج • خوري والياس رحيم • الياس أ• ش في غلواء • 18 •

* هكذا ورد في النص ، ولعله يقصد بها : أنه أساء الى شرفها ، ـ في شعره ـ في سبيل خدمـة فكرتـه•••

"أفاعي الفردوس"، في رأينا، تطور لـ "غلواء" و "غلواء" بداية لـ "أفاعي الفردوس"، ومن الأسباب التي جعلتنا نذهب هذا المذهب، وجود نفس المعاني والأفكار بالديوانين فاق "أفاعي الفردوس" "غلواء" في صوغها وتقديمها في صورة فنية ناضجة مكتملة. فزخر "غلواء" مثل "أفاعي الفردوس" بالاضطراب والقلق والحيرة، ومثله احتوى على تمرد وسخط وتمزق، لكن في صورة باهتة ضئيلة لم تبلغ قوتها قوة مثيلتها في "أفاعي الفردوس".

ونعرض هنا لبعض المقاطع من "غلواء"، حملت البذور التي نبتت وترعرعت في "أفاعي الفردوس":

فبعد اللوحة الأولى التي يصف فيها اليأس مرض غلواء (1) الذي أثرفيه، تأتي لوحة يملأها الانسان الحائر أمام مصيره، الواعي بمشكلة وجوده، انها لوحة تحمل بذور الصراع النفسي الذي ستقتطف ثمرته ناضجة في "الأفاعي" (2)، صراع قائم على التناقض وانشعاب النفس:

أمن العدل، خالق الأرواح — أن يغيب الجمال قبل الصباح؟
أمن العدل أن يرى القلب عطشان — وخمر القلوب في الأقداح؟
أمن العدل أن تجول عيون — في ظلام والزيت في المصباح؟
ان تكن تحرم الطيور سماها — فلماذا خلقت ريش الجناح؟ (3)

---

1 ـ الياس. أ. ش. "غلواء". 14.

2ـ الياس. أ. ش. "أفاعي الفردوس" (الصلاة الحمراء) مثلا 51و 54.

3ـ الياس. أ. ش. "غلواء". 15 و 16.

انّها نقطة استفهام تتضمن الحيرة المرّة والغضب الصامت تفرز من اصطدام النقيضين ، أو عند اختراق الضدّ ضده : الظلم العدل ، العطش الشراب الظلمة النور ...

ثم تطالعنا بعد هذا ،اللوحة الثالثة ، يغمرها الاطمئنان والسعادة الناتجان عن الغفلة واللا وعي لدى الفلاح البسيط الذي يمثل الانسان العادي في الحياة - في تصميم فكرة الشاعر - الضاق لقدره الذي لم تستول عليه حيرة ولا تساؤلات تنغّص عيشه .

يقول عن الفلاح :

قال : طوبى له وطوبى لنفسه ... ما ألذّ الصفاء في ماء كأسه
ما أعزّ الأعشاب حول سواقيه ... وأغناه في قناعة بؤسه
لا يرى غير حقله ان أطلّ الفجر ... أو قبل النسا غير أنسه
جاهل يجهل القراءة في الأسفار ... لكنه حكيم بفأسه
غده مثل يومه ،ليس يغشاه شقاء ... ويومه مثل أمسه (1)

ونشهد هنا للشاعر مقارنة بين نقيضين : بين وعي حاد بالوجود الانساني وكلّ ما يصطرع داخل صاحبه من حيرة وتنكر ، وبين غفلة بريئة غفلة الفلاح الذي لم تغزه المعرفة والثقافة والحضارة .

وبعد هذا تأتي لوحة يصف الشاعر فيها الجانب الخيّر والشطر الالهي في الانسان (2) ، الذي يشخصه الشاعر في شخص غلواء الفتاة الطاهرة :

1- الياس . أ . ش . " غلواء " . 16 .

2- ينظر . " أفاعي الفردوس " : (الصلاة الحمراء) و (القاذورة) 27 - 53 - 54 .

ثم يلي مباشرة هذه اللوحة لوحة أخرى يعرض فيها الشاعر لجانب الشر في الانسان ، واضطرام الشهوات بنفسه وسيطرتها عليه وكلّ هذا مثلته وشخصته وردة •
يقول :

جمالها يحمل للجنون — وبضة الشهوة في العيون
تشعر،من جسدها المشتعل — في كلّ عرق بدماء رجل
تصوّر البركان في ثورته — تتقذف النيران من فوهته
كالمرأة البغيّ في مقلتها — عتصر تار قدّ من شهوتها
تصوّر الموت بناب أفعى — مربية بين زهور تسعى (1)

وينهي هذه اللوحة ببيتين ،يدلّ معناهما على نظرة الياس الى الطبيعة الانسانية وهذا عنصر مهم من العناصر الأساسية التي غذت " أغاني الفردوس " وأغنته ووجهته،وأجلسته على كرسي " اللعنة " في تقدير النقاد ••
يقول :

••••••

وانظر أخيرا نظرة سريعة — مختلف الشرور في الطبيعة
يبد لك المقت اذا انتعلم — كيف أرادت "وردة " جهنّمُ (2) •••

وبعد هذه اللوحة – وانطلاقا من مفهوم مسيحي للوجود الانساني – يعرض لنا الشاعر لوحات يرمز فيها الى العالم العلوي قبل السقوط وبعده ومآل اليه

---

1 – الياس • أ • ش • " غلواء " •
2 – نفسه • 21 •

أبناء آدم وحواء ،بعد ارتكاب أبواهما الخطأ الأكبر الذي جرّ على الانسانية عذابها وشقاءها فوق هذه الأرض التي هي بنفس عقاب لأبناء آدم وحواء (1) ...

ولعلّ هذه الجولة القصيرة بين معاني " غلواء " ستسمح لنا من التأكد بأنّ مواضيع " غلواء " هي مواضيع " أفاعي الفردوس " ،وأنّه لا يصعب علينا ادماج أبيات أو مقطوعات كاملة من "غلواء " في " أفاعي الفردوس " ...

هذه هي المحاور الأساسية التي قام عليها " غلواء " وستكون هي نفسها طعمة لـ " أفاعي الفردوس " . واذا كانت هذه العناصر ،كما رأينا في "غلواء" منفصلة عن بعضها ،قائمة جنبا الى جنب تسير على خطوط متوازية ففي "أفاعي الفردوس" تجتمع وتلتحم فيدخل الشر روحا في جسد الخير، والعكس، يمكن الخير جسد الشر، ففي " غلواء " توجد " وردة " وفي " وردة " توجد "غلواء" ، فلا تنفك الواحدة عن الأخرى بل تكوّنان ذاتا واحدة ، وكذلك يكون في الخطيئة عفاف ، وفي العفاف خطيئة ،وفي الندم اقدام وفي الاقدام ندم ، وفي الظلمة نور،وفي النور ظلمة ... فتحمل كلّ ظاهرة نقيضها بحيث يبقى الصراع محتدما ودائما ، والضباب قائما لا هو نور ولا هو ظلمة ، بل مزيج من الاثنين دائما .

وأما ما جعلنا أيضا نرى أنّ التجربة الشعرية التي تفتحت واكتملت في " أفاعي الفردوس " أخذت بدايتها في " غلواء " ،وجعلنا نستنتج أنّ الياس حاول تجربة واحدة في الديوانين ،كان غير راض عنها في " غلواء "

---

1 ــ اعتقاد مسيحي .

فهو أن الياس انتهى من تأليف "غلواء" سنة 1932 ولكنه لم ينشره الا سنة 1945 ، في حين أنه نشر "أفاعي الفردوس" بمجرّد ما انتهى من تأليفه سنة 1938 . فتأخره عن نشر "غلواء" يكاد يجعلنا نظن أن السبب هو عدم رضاه عن غلواء (1) فيجتهد مضطرا ، ليضفي على نفس المواضيع لمسة باللون القاتم الصارخ ، ومسحة جريئة صريحة عنيفة ...

ثم هناك نقطة أخرى نجد فيها ما يدعم فكرتنا القائلة بأن تجربة "أفاعي الفردوس" هي تجربة "غلواء" نفسها ناضجة ، وفي صورة كاملة ، هي حكاية احراق الياس لنصف من "غلواء" مثل ماجاء في قول جورج غريب :

" ... أفلا تراه و"غلواء" سبقت "الى الأبد" تاريخا ، يحاول هدم تاريخ مضى ليدخل حرم صاحبة "الى الأبد" مطهرا من "آثامه" كما أرادته هذه الأخيرة ، فلا يبقى من غلوائه سوى ناحيتها القصصية على حدّ قوله ؟" (2)

ويوثق قوله هذا بما أجابه به الياس حين لامه على احراق نصف الديوان قائلا له : حرام علي بعد اليوم الغزل في سواها . (3)

1— قال الياس : "لقد ظن بعض الخاصة من أصدقائي ، وبعض من يعرف دخائلي اثر نشري جملة مقاطع من غلواء في الصحف ، أني أدخل الناس الى خدر فتاتي ، وأعريها على عيونهم ، ولكن هذا البعض لم يرحب نظرته كما أريد وكما كنت أرجو وأتوقع ، ولو فعل ذلك لا تضح له أن الفتاة التي أعريها ليست "غلواء" التي يعرف ، بل هي فتاة العصر المخدوعة ، الفتاة المدفوعة بظواهر الحب المزيف الى هوة الشقاء الزميم !" . دراسات وذكريات . جورج غريب . ص110 .

2— جورج غريب . دراسات وذكريات . 55 .

3— ينظر نفسه .

ويساور رزوق فرج رزوق الشك في قول الياس هذا وفي استنتاج جورج غريب ، ويقول بعد البحث والدراسة : " ان ما عثرت عليه من شعر "غلواء" في الصحف والمجلات قد تضمنته كلمة " غلواء " بعد تنقيحه وحذف بعضه ؟ فأين ذهبت الأبيات الستمائة والخمسون ؟ لماذا لم ينشرها الشاعر كما نشر غيرها ، ولم يكن يوم نظمها قد تعرّف بليلى (1) ، فيمنعه حبها من أن يجاهر بحبه العنيف القديم ؟ " . (2)

ثم يتابع رزوق فرج رزوق قوله : " انّ الذي استنتجه أن الشاعر ان كان قد أحرق من "غلواء " شيئا فقد أحرق أبياتا كانت من الشعر في مستوى غير عال . ومعظمها ما نظمه في زمن مبكر من حياته وبسرعة ، فقد بدأ نظم " غلواء " عام 1926 وأتمها 1932 ونشرها عام 1945 ، وفي هذه المدة الطويلة الفاصلة بين نظمها ونشرها نمت شاعريته ، وصار ناقدا أدبيا حريا بأن ينظر الى شعره بعين الناقد البصير فينقح بعضه ويحذف البعض الآخر " . (3)

لكننا نتساءل - عن غير اقتناع بهذا الرأي - لماذا امتنع الشاعر طيلة هذه المدة ، وقبل أن (تنمو شاعريته) وقبل أن يصير (ناقدا أدبيا حريا) ، عن نشر ولو جزء ضئيل من هذه الأبيات العديدة في الصحف والمجلات ، ورزوق فرج رزوق نفسه يقول بأنّ الياس كان من الشعراء الذين كانوا ينشرون شعرهم مفرّقا في الصحف والمجلات ، وأنّه تحرى

1- انتهى الياس من نظم " غلواء " عام 1932 وبدأت علاقته بليلى عام 1940 .
(نقلا عن رزوق فرج رزوق . 176)

2- نفسه .

3- نفسه . ص176 .

هذه الصحف والمجلات ولم يجد أثرا للأبيات التي قيل عنها أحرقت ، مع أنه وجد بها كل ما جاء في " غلواء " مطبوعا !؟ (1) ولهذا نحن غير متفقين معه تماما في هذا الرأي ، لكننا نشاركه رأيه التالي الذي يقول فيه : " وليس صحيحا - في رأيي - أن يكون أبو شبكة قد أحرق ما أحرق من شعر " غلواء " ليكون ضحية على مذبح حب جديد ، اذ لو صح ذلك لوجب أن تشمل عملية الاحراق الكثير من شعر " غلواء " المنشور ، ففيه من العاطفة المتقدة والغرام العنيف ما لا ينجيه من عقوبة الاحراق ." (2)

لكن هذه الأبيات ان لم تحرق من أجل الحب الجديد ولم تحرق لأن الشاعر استضعف مستواها فالى أين ذهبت ؟ - والجواب الصحيح في رأينا - هو أن هذه الأبيات لم تحرق لسبب من السببين المذكورين ؛ وكم يكون من الصعب على شاعر احراق ستمائة وخمسين بيتا لمثل سبب من هذين السببين ! وكم كان من السهل على الياس تعديل هذه الأبيات وتنقيحها ، أو تعويض اسم " غلواء " باسم " ليلى " بدل احراقها ...

فالأبيات اذن لم تحرق - في نظرنا - وانما قد يكون الشاعر أدمجها في " أفاعي الفردوس " ، ولم تعترضه في هذه العملية أية صعوبة لأسباب سبق ذكرها . وقد يكون وجد نفسه يكررها في صورة أقوى وانضج في " أفاعي الفردوس " فحذفها ، وخاصة أن الشاعر ألف

1- رزوق . ف. ر . 175 - 176 .

2- نفسه . 176 .

الديوانيـــن في نفس الفترة تقريبـا ،ومن هنا تلتقـي بقولنا بأن "غلـواء" كانت التجربـة الأولـى لـ " أفاعـي الفردوس " ، وبأن هذين الديوانيـن يمثـلان القسـم الأول من شعر اليـاس، الذي تعـدى فيه حـدود الرومنسيـة المعروفـة ، وعلى هذا القسـم من شعـره قامـت شهرتـه في الأوسـاط الأدبيـة .

4 ـ " أفاعـي الفردوس" في ميـزان النقـد :

ويرى بعض دارسـي شعر الياس أنه كان " ...عنيفـا فاسقـا في "أفاعي الفردوس" وعطـوفا طاهرا في " الى الأبـد " . (1)

وإن كان القسـم الأول من شعر الياس يتمثل في " غلواء " و " أفاعـي الفردوس" الا أن حظ " أفاعـي الفردوس" من الدرس والنقـد كان أوفـره، وذلك لما فازبه هذا الديوان من اعجـاب الدارسين للأدب ،فرأوا اليـاس يبلـغ فيه قـمّـة النضج ويخلـد اسمـه بين المجددين في الشعرالعربـي الحديـث ، وهذا الدكتور علي سعـد يرى الياس "كائنـا شيطـانا مسربـلا بكلّ نيـران الجحيـم وآثامهـا " (2) في " أفاعي الفردوس" ويتنبـأ لـه بالخلـود في الأدب العربـي بسبب هذه " الأسطـورة الفاخرة التـي خلقهـا حولـه " (3)

1ـ مجموعة مؤلفين . دراسات وذكريات . 49 .

2ـ الأديب .ج 3 . 5 . 1953.

3ـ نفســه .

" وأكثر ما دار حوله النقد الأدبي من " أفاعي الفردوس " ناحيتان، الأولى حظ " الأفاعي " من الابتكار أو التقليد ، والثانية " لا أخلاقية " هذه الأفاعي ..." (1) . فكان هذا الجوّ المسموم بالشهوة والموت" (2) هو في الحقيقة محرّك الأقلام التي ما لبث أن أطل اليأس على أصحابها بـ" أفاعيه " حتى رفعت لتعليه مرة ولتسقطه مرة أخرى ، فكان هذا الديوان حدثا عظيما في الأدب العربي الحديث .

شعر جديد بمضامينه وصوره ولغته ، أثار فضول الأدباء فانصبت عليه الانتقادات والدّراسات تتفحصه مختلفة في تقيمه باختلاف فهم أصحابها لهذا الشعر الجديد (3) فتجده يثير ثائرة نفر من الأدباء الذين اقشعرت لظهور هذا النوع من الشعر نفوسهم، وخافوا أن تسري في الشعر العربي عدوى هذا الجوّ الشعري، "جوّ العربدة والفجور" (4) الذي "استوحى صاحبه " المواخير" وراح نظير ملعون "الديونة": " يطلي بأنياب وأظافر ..." " (5) ،فرموا الياس باختلال العقل، والكفر والسّفالة (6) ...

ووصفوا عهد " أفاعي الفردوس " بعهد السقوط والخطيئة والعنف والفسق . (7) .

1- رزوق . ف. ر . 196 .

2- الأديب . ج 3 . ص7 و 75 . 1953 . بقلم علي سعد .

3- وإن كانت هذه الانتقادات تخص أفاعي الفردوس .

4- المشرق مج 4 . 509 . 1938 . بقلم جان عزيز .

5- نفسه .

6- المكشوف . ع211 . 2 . 1939 .

7- ينظر . مجموعة مؤلفين . دراسات وذكريات . 42 .

كان الديوان عنيفا استقبل بعنف ونفور ،ورأوا فيه شعرا لايشرف الأدب العربي (1) ، شعرا ماهو الا عبارة عن تفجّر احساس شهوإباحية شيطانية (2)...

وكم آسف الياس سوء فهم هؤلاء لشعره، ولمقاصده الفنية لكن من حسن حظه أن المفاهيم والآراء اختلفت حول " أفاعيه "، فوجد عزاء في آراء نفرآخر رأى مالم يره غيره، ووجد عندهم الياس من الفطنة والذكاء ماجعلهم ينفذون معه الى ما وراء هذه الصور الشهوانية الجهنمية ، الى حقيقة ماكان يقصده الشاعرويهدف اليه ، فارتاحت نفسه لآرائهم . (3)

لقد اخترقوا معه هذه السطحيّة وتعدّوها ونزلوا مع الشاعرالى دهاليز مظلمة ، الى أعماق النفس البّشرية وسبروا أغوارها ، فوجدوا في شعره الصدق المبين ، والجرأة الجارحة ، والشجاعة النادرة ، يقول مارون عبود : " أن صاحب " أفاعي الفردوس" أصدق شعراء اليوم على الاطلاق " (4) ، وبعده آخر يقول : "لقد وسّع أبوشبكة أفق الشّعر العربي ،والشّعور العربي أيضا . وكانت اعترافاته مفعمة لا بالصدق والعنف فقط بل بالشّجاعة والحسّ الأخلاقي أيضا . فهو في هذه الناحية يتفوّق على جميع الرّومنسيين العرب دون استثناء ... " (5) .فحمدوا له هذا الصّنيع الشعري وتباركوا واستبشروا به خيرا ورأوا في " أفاعي الفردوس" " ... المحطة الكبرى في تطوّر الشعرالعربي الحديث ، أعادته الى النفس والحياة والمجتمع والحضارة ." (6) .

---

1 ـ ينظر . رزوق . ف . ر . 196.
2ـ ينظرالأديب ، ج 3 7 . 1953 .
3ـ ينظر. المكشوف . ع211 . 2 . 1939 . بقلم :الياس أبوشبكة .
4 ـ مارون عبود . مجددون ومجترون . 114 .
5ـ محيي الدين صبحي . نظرية النقد العربي . 186 .
6ـ ايليا الحاوي . 191 .

فتوقع من اعتز بشعر الياس الهجومات النقدية التي ستنهال على هذا الديوان ، وخافوا عليه من الاتهامات الظالمة ، كالفجور والسفالة والحيوانية ... الناتجة عن سوء فهم، من ستطغى عليهم صور الشهوات ، روح الياس الشعرية ، فيتخيلوه شاعرا أدمنت قريحته مشاهد الفجور والفحشاء كما قال ميخائيل نعيمة ، وأيده في ذلك الياس أبو شبكة. (1)

ويذكرنا موقف الياس هنا بموقف شارل بودليرفي رسالة وجهها الى (ألفونس دي كالون) (Alphonse de Calonne) مدير "المجلة الحديثة" "Revue contemporaine" متوقعا فيها ردود فعل معاصريه حين يطالعهم بديوانه "أزهار الشر" ، موضحا فيها مقاصده ، كفنان يقول : "... سأحاول أن أكون واضحا وجد مفهوم - سأنزل مرة الى الأسفل ، وأخرى ارتفع الى الأعلى - وبهذه الطريقة سأتمكن من النزول الى الانفعالات والشهوات السافلة الدنيئة . ومن لم يفهم لا شخصية قصائدي[(2)] المتعددة فهو على نية نية اطلاقا ." (3) ، وقد حصل ماتوقعه الشاعر اذ اتهمه معاصروه بالدعارة واللا أخلاقية ، تماما مثل ماحصل لالياس ، فشكوه للسلطان فحكم عليه وعلى ناشر ديوانه "أوغوست بولي مالاسي" (Auguste Poulet Malassi) بعقوبة مالية بسيطة ، وأجبروه على حذف ست قصائد من الديوان . (4)

واذا كان هذا ماتعرض له "أفاعي الفردوس" من النقد والاتهام باللا أخلاقية طورا ، ومن التشجيع والتبرك به كشعر جديد ،طورا آخر ،

1- ينظر . المكشوف . ع:211 . 2 . 1939 . بقلم : الياس أبو شبكة .

2 - (L'impersonnalité de mes poésies)

3- Robert Benoit ;Chérix , Commentaire des fleurs du mal;P387-388 .

4- نفسه . الست قصائد هي : Lesbos .A celle qui est trop gaie. Le Léthé Les Bijoux . Femmes Damnées. Les Métamorphoses .

فانّنا نجده، يتعرّض أيضا الى فحص آخر ، الا وهو مدى حظّ الدّيوان من الابداع والابتكار ،والتقليد والتأثر بغيره من الشعراء الفرنسيين من القرن التاسع عشر. وخاصة أنه جاء في فترة تأثر فيها الشعراللبناني الحديث بالثقافة الغربية ،وخاصة بالرّومنسية الفرنسية التي احتلت مكان الصدارة في ثقافة جيل أبو شبكة .(1)

ويؤكّد دارسو هذه الفترة — مابين الحربين العالميتين — بأنّ شعراء هذه الفترة اتخذوا شعراء رومنسيين ينسجون شعرا على منوالهم ،فقد قرّبت بينهم ظروف اجتماعية حياتية خاصّة أحيانا وعامّة أحيانا أخرى متشابهة ، أوميولات نفسية طبيعية متقاربة ... وهذا ماكان معمول به لدى جلّ معاصري الياس، وهذا ماكان شائعا ، آنذاك ، يقول منيف موسى : " ... فمثلما اهتم أديب مظهر بألبيرسمان (A. Semain) ، غدا أبو شبكة " قرين " بودلير (Baudelaire) كما أشيع ،وسعيد عقل تلميذ فاليري (P. Valery) ، مّا رسّخ الشّعر الأوروبي الفرنسي في شعرنا اللبناني ، وشعراؤه لم يكونوا مترجمين فقط ، بل كانوا أيضا، نقادا ،ومنظرين استفادوا من مطالعتهم للأدب الغربي ونقده ، وغايتهم من ذلك " أوربة " الوجدان اللبناني " .(2)

5— اختلاف النّقاد حول ما اذا كان الياس متأثرا في "أفاعي الفردوس " ب "أزهارالشرّ" أم لا :

والمام أدباء هذه الفترة بالأدب الفرنسي جعلهم قادرين على اقامة موازنات بين ما يظهر عندهم من شعر وبين ما عرفوه عن الشعر الفرنسي الحديث،

1 — ينظر . منيف موسى .26 .

2 — نفسه .

ثم ينسبون كلّ شعر نشـر من طرف معاصريهم الى مدارس أدبية فرنسية حديثة - وكان هذا طموح كلّ شعراء تلك الناشئة - (1) ، وكلما عثروا على شبه بين عمل أدبي لبناني وعمل آخر فرنسي ، أعلنوا ذلك عن طريق الصحف والمجلات في دراسات قيمة تنم عن اطلاعهم الواسع وتشبعهم بالثقافة الفرنسية .

وهكذا كان الحال بالنسبة لـ " أفاعي الفردوس " ، وبعدما أجمعوا على أنه شعر جديد على الأدب العربي ، وأن الياس أدخل على الأدب العربي " رعشة جديدة " (2) كما قال هوغو (V. Hugo) عن بودلير لما ظهر ديوانه " أزهار الشر " . الا أننا نجد الأدباء يختلفون حول مصدر هذا الجديد الذي أتى به الياس ، هل هو له أم لغيره ؟ .

فهناك فريق - وان كان عدده قليلا - ينفي تأثر الياس بغيره ، كالدكتور شوقي ضيف الذي يرى فرقا كبيرا بين " أزهار الشر " و " أفاعي الفردوس " ، " ... فتلك الأزهار نبتت وازدهرت في تربة خبيثة ، تربة كلّها انحرافات نفسية ، ومن هنا تكون معبّرة عن صاحبها مصوّرة لتحلله من القيم الخلقية . أمّا " أفاعي الفردوس " فنشأت في الخارج وجاء شاعر يصوّر سمومها وماتنفثه في البشر ، وهو تصوير شخص لا يقرّها ولا يؤمن بها ... " (3) ويرى سليمان فؤاد رأيه هذا . (4)

أمّا الفريق الثاني ، وهو الاقوى ، فيرى بأن الياس تأثر في ديوانه أفاعي الفردوس " بغيره ، وأنه " ... استقى من معين شعراء الافرنج الذين

1- ينظر . شيفي موسى . 25 .

2- Benjamin F. Baudelaire et l'expérience du gouffre, P108.

3- شوقي ضيف . دراسات في الشعر العربي المعاصر . 167 ، 168 .

4- ينظر . الثقافة ، عدد 426 . 20 . 1947 . بقلم : رفائيل بطي .

اتفق مزاجه ومزاجهم ، ولا سيما لامرتين ودء فيني ، وموسيه وبودلير.[1] حتى لقد اتهم " بأنه تقليد لديوان " أزهار الشر" للشاعر الفرنسي شارل بودلير..." (2)

واذا كان الدكتور علي سعد ، يكتفي في دراسته لشعر الياس أبي شبكة[3] باطمئنانه لرجوع الياس الى طبيعته الأصلية - في دواوينه الأخرى التي لحقت " أفاعي الفردوس" - في الحقبة الأخيرة من عمره، وانعتاقه من "الكابوس النفسي " الذي كان الشاعر يختنق في جوّه المحموم عندما ألف " أفاعي الفردوس" و " غلواء " ، وسمّى الفترة التي ألف فيها الياس "أفاعيه " و " غلواء " فترة انتقال ، أعلن أنه لا يعرف عن خفاياها الا النزر القليل ، ويرى بأن مجرد ازاحة " الكابوس" عن صدره قد أطلق عناصر الفرح والرجاء والطرب والمحبّة والدعاية من مكامنها في نفسه ، فانّ غيره من الدارسين ، استغلوا اطلاعهم على الأدب الفرنسي وأثبتوا تأثر الياس بغيره من الشعراء الرومنسين أمثال، لامرتين Lamartine ودء فيني A.de Vigny وموسيه A.de Musset وبودلير (4) ، بل منهم من رأوا بوضوح ودقة خفايا هذه الفترة الانتقالية"... فما كادت تزحف " أفاعي فردوسه " حتى صاح الأدباء هذا (بودلير لبنان").(5)

وبعدما اتفق بعض الدارسين على أن في " أفاعي الفردوس " أثرا لـ"أزهار الشر" بصفة عامّة ، تجدهم يتفاوتون في تقدير هذا التأثير .

---

1 - المكشوف ، عدد 192 ، 8 ، 1939 .

2 - عيسى الناعوري ، أدباء من الشرق والغرب ، 132.

3 - ينظر الأديب ، ج 3 ، 7 ، 1953 .

4 - واننا لا ننكر وجود أثر هؤلاء في شعر الياس بصفة عامة ، أمّا في ديوانه "أفاعي الفردوس" وبعده " غلواء " وان كان بهما الرومنسية التي اشترك فيها هؤلاء بما فيهم الياس وبودلير ، الا أنهما تميّزا بمميزات " أزهار الشر" .

5 - الثقافة ، ع426 ، 20 ، 1947 ، بقلم ، رفائيل بطي .

فهناك من يلغ بهم التطرف الى حمل لواء الهجوم على الياس، واتهموه بالسرقة ، سرقة أعمال غيره من الشعراء الرومنسيين ، ومن بينهم بودلير Baudelaire وفي مقدمة هؤلاء كرم ملحم كرم (1) الذي قال عن الياس : " ويلغ من قحه أنه غزا حتى عنوان ديوانه •

فاختار " بودلير Baudelaire عنوانا لاشعاره " أزهار الشر" فجاراه أبو شبكة في التناقض ووصم ديوانه بعنوان " أفاعي الفردوس" ، وأنشد بودلير قصيدته " القاذورة " فقلده فيها أبو شبكة ، وسرق معانيها من قصيدة " الحلم " لفكتور هيغو V. Hugo ، ونظم " بودلير" قصيدة " الأفعى " فتهجم أبو شبكة فيها تهجمه ، واستهل " بودلير" ديوانه بقصيدة " فسرقها الأستاذ أبو شبكة وختم بها ديوانه تحت عنوان " الطرح "•••" (2) ، الى غير ذلك مما جرد الياس من أي طابع شخصي •••

ولم يحبذ هذا النقد العنيف من يرون في شعر الياس طابعا شخصيا رغم تأثره بغيره ، ومنهم رزوق فرج رزوق الذي رأى شيئا من المبالغة في اتهام كرم ملحم كرم لالياس بالسرقة ، وان كان في قوله ذلك جانب من الحق • " الا أن هذا التشابه لا ينبغي أن يبالغ في تجسيمه فيسمى سرقة " • (3)

---

1 ـ من المفروض الا نعتمد قول كرم ملحم كرم نظرا للخصومة التي كانت بينه وبين الياس أثناء نقده اللاذع هذا لـ " أفاعي الفردوس " ، لا لأن كل ماجاء به خطأ ، بل لأن الرجل في حالة غضب بالغ • فهو نفسه تجده يقول في كلمة يودع بها صديقه الراحل الياس : "••• ولكن هل مات الياس أبو شبكة مالىء رحال العرب أغاريد ؟ هل قضى شاعر اللهيب ،نافخ القصيدة العربية بالألوان الحمراء بالأعصاب المتشنجة الثائرة ، وكاسي قوافي الضاد بجذوة متوقدة ،وظلال قاتمة خانقة لم يوفق لها شاعر في لغة امرىء القيس والأخطل وأبي نواس••• وطاب مثواك بطيب أعرافك • فالوهج الكامن في " أفاعيك " لم يتحسس به أدب العرب قبل أن تخلعه عليه•••"

2 ـ الأمالي • عدد 30 • 935 • 1938 • (نقلا عن رزوق • ف • ر 196 ، 197 •)

لقد صعب على رزوق فرج رزوق أن ينظر الى الياس كمقلد دون شخصية ، ومثله كان مارون عبود ، الذي قال عن الياس "...متأثرا بشعراء الفرنجة ، ولكنه ما مدّ يده الى حوائجهم وان أشبههم في حبهم الصاخب ، يعرف موسه وبودلير ويستلهمهما ، ولكنه " يشتهي مقتني غيره فيقطع منه ما استطاع..." (1) ، وفي مكان آخر يقول : "...فرغم هذا الجوّ الخانق - (في دنيا أفاعي الفردوس) - فأنت تحسّ أنك تقرأ شاعرا ملهما ،شاعر له ذاته ، وله نفسه ، وله شخصيته ، ولشعره طابع أصيل ،فيه الصور الرّاعبة على مافي خلق الصورة من صعوبة "(2)

ويرى كذلك بأن هذه "الأفاعي" "عريقة الحسب والنسب" .(3) الاّ أننا نجده في مكان آخر يعترف بوجود أثر" أزهار الشر" في أفاعي الفردوس" حين يقول : "...عنوان أفاعي الفردوس يذكرنا شارل بودلير في زهور الشر ،لا ينقص شاعرنا الاّ طلبة الشيطان ، أمّا الجيفة (4) وهي أشهر قصائد بودلير، فتقابلها "قاذورة أبو شبكة وهي مجموعات جيف" (5) .

ونستشف من دراسته لديوان أبي شبكة تأثره هو أيضا ،بالدراسات التي جاءت حول "أزهار الشر" ، وعلى سبيل المثال نجده يقول : "لاتجزع أن أقول لك هذا ، فالوردة تعيش جذورها حيث تعلم ، وتعطيك أثمارا ينعم بها أنفك ويزدان صدرك . والتفاحة كذلك ،

= 3 - الأمالي ،عدد 30 ، 197، 198 ، 1938 .

1- مارون عبود ، 100 .

2 - نفسه .

3 - مارون عبود ، 100 .

4- " الجيفة " "La Charogne"

5 - مارون عبود ، 103 .

والشعر شيء كهذا • والياس في " أفاعي الفردوس " من الشعراء المطعونين وأقوى حواسه اللمس والبصر ••• " (1)

ولكم وردت هذه العبارات ، نفسها ،في دراسات كثيرة حول " أزهار الشر" لبودلير Baudelaire • فالصورة التي يصف بها ، مثلا ،مارون عبود هنا شاعرالياس،أو يعرّف بها ديوانه : (الوردة التي تعيش جذورها حيث تعلم •••) هي من حق " أزهارالشر " بل هوهنا يعرض مبدأ فنيا " بودليريا " خاصا ، وأساسيا في شعره ، الا وهو استخراج الجمال من القبح ، وهذا ما سنتعرض له في مسارهذا البحث •

وهناك دراسات أخرى ، غيردراسة مارون عبود ، حول الديوانين أزهار الشر" و " أفاعي الفردوس" كلا على حدة لكنها تتشابه الى حدّ الاختلاط ••• واذا دلّ هذا التشابه في الدّراسات حول الديوانين على شيء فهويدل على التشابه بين الشعرين ،ونذكر بالمناسبة كتاب " الياس أبو شبكة شاعرالجحيم والنعيم "، لايليا الحاوي ، الذي نستشف ونحن نقرأه كأنّه دراسة ، من العنوان الى الخاتمة ، قائمة على ديوان "أزهار الشر " ، رغم الناعوري بعدما يجد هو نفسه تشابها بين الديوانين ، يجد عند غيره مايدعّم به ملاحظته هذه قائلا : " ••• يجب أن تذكر أنّ هذا الذي قاله (2) علي محمود طه وابراهيم ناجي في " بودلير" ينطبق كلّ الانطباق على الياس أبي شبكة في ديوانه " أفاعي الفردوس" بشكل خاص من بين سائر دواوينه •••" (3) •

1- مارون عبود • 101 •

2- يقول علي محمود طه في الفصل الذي عقده لبودلير في كتابه " أرواح شاردة" : " وقد انفرد بودلير بصور كلها رعب ،وكلها فزع وأسلوب عنيف ،وتعبيرات توصف بالقبح أحيانا ،ولكن الرجل كان صادقا ،بل انّ معجزته هي تلك الصور والأساليب العنيفة الشاذة ،حتى في التوافه التي أقامها من ذات كلماته ، يبدولناالفن أعظم مايكون طرافة وابداعا ، وأدق وأصدق ، لا من حيث التعبير فقط بل من حيث الفكرة والحسّ الذي نقل عنه ، أوتأثربه " •

ويعلن أحد رفاق الشاعر في حياته ، عن اقتناع ، وفي وضوح ، أن الياس استقل في " أفاعيه " باللون الأسود الذي خلا منه الشعر اللبناني ، وتميز بوجهته هذه عن معاصريه ، وجهة " ذهب فيها مذهبا فنيا بعيدا محتذيا بامامها " بودلير " وأجاد ماشاء ... " (1)

وهكذا نلاحظ أن الشبه بين " أفاعي الفردوس " و " أزهار الشر " لم يعد خفيا على دارسي شعر الياس ، وان كان حكمهم هذا مبنيا على ملاحظات عامة ماتزال تحتاج الى تبيين وتوثيق ، مما تحاول الوصول اليه في الفصول القادمة .

وان كنا ، نحن أيضا ، نرى أثر " أزهار الشر " في " أفاعي الفردوس " جليا ، الا أنه ينبغي لاثبات رأينا هذا ، أن نطرح الأسئلة التالية :

هل اطلع الياس على انتاج بودلير ؟
هل وجدت ظروف ، في حياة الياس عامة أو خاصة ، جعلته يحبذ هذا النوع من الشعر ويميل اليه ؟
أين يظهر تأثير نهج بودلير في " أزهار الشر " في " أفاعي الفردوس " ؟
وستكون هذه الأسئلة محاور الفصل القادم .

- وابراهيم ناجي يقول عنه : " شاعر من الطراز الأول الموسيقي في شعره لا تجارى ، وألفاظه متخيرة تخيرا عجيبا .
3 ـ عيسى الناعوري . 133 ـ 134 .
1 ـ مجموعة مؤلفين . دراسات وذكريات . 35 ، 36 .

الفصل الثاني

1 ـ سبل اطلاع الياس أبو شبكة على " أزهار الشر " :

لم تكن هذه الهالة التي واجه بها أهل الأدب ،في لبنان ، "أفاعي الفردوس" عند ظهوره في الساحة الأدبية ، وما صاحبها،الأخذ والرد بين معاصري الياس حول ما اذا كان لـ " أزهار الشر" أثر في " الأفاعي " أم لا ، الا دليلا على معرفة هؤلاء لـ" أزهار الشر " .

لقد كان لهم اطلاع واسع على الأدب الفرنسي الذي يعتبر ظهور " أزهار الشر" (1) حدثا عظيما فيه ،ولم يجد شعر بودلير أشياعا كثيرين ، بل كان مدحه أقل من ذمه بكثير فكان أغلب نجاحه قائما على الفضيحة ... (2)

لقد تخوف جل أهل الأدب الفرنسي من شعر بودلير ،ورأوا فيه خطرا على المجتمع وعلى الأدب ، (3) فكان هذا الكتاب الذي ترك به ، كما قال هو نفسه ، كل قلبه ، وحنانه ، وعقيدته ، وحقده ... محط الانتقادات الخاطئة حول معناه الحقيقي ، (4) والى حد الآن لا زال

---

1 ـ لقد أنتج بودلير ديوانا شعريا واحدا ، كانت الطبعة الأولى سنة 1857 صادرته السلطات ، وحكم عليه بحذف ستة قصائد منه ، ثم الطبعة الثانية والنهائية سنة 1961 ، عوضت فيها القصائد المحذوفة بخمسة وثلاثين قصيدة أخرى .

2ـ ينظر، Aguettant(Louis), Lecture de Baudelaire; 17 .

3ـ ينظر، Dominique Rincé , Baudelaire les Fleurs du Mal .P.213.

4ـ ينظر، Antoine Adam .Les fleurs du Mal ;P XVI .

الاختلاف قائما حول معنى " أزهار الشر" ، وحول النفسية التي صدرعنها ••• فاذا كان هناك من أرادوا اقناع القراء بأن بودليركان مسيحيا أو جد مسيحي ، في شعره ، فهناك من فضلوا أن يروا فيه ، باعجاب ، عظمة الرفض الشيطاني • (1)

وعلى كل ، ف " أزهار الشر" وان لاقت جفوة ونفورا أثناء حياة الشاعر المريرة ، ولقب بالشاعر الملعون " في عصره ، فان قيمته اتضحت بعد وفاته ، فكان أستاذ جيل الرمزيين الذين جاؤوا بعده (2) ، فكاد أن يكون " رسولا " بالنسبة لهم ، واتخذوه مصدرا وموردا لشعرهم (3) ، فنال شهرة عظيمة في نهاية القرن التاسع عشر• وكان التاريخ أرحم به وأكرم عليه من الانسان بحيث جعل دارسيه يرفعونه الى مكانته الشرعية ، ويعترفون بأنه بزّ ، في تقدير قرائه ، كل منازعيه من الشعراء ، (4) وكشف لأهل الأدب فضله على الشعر الفرنسي الذي أعاد فيه من جديد صياغة القصيدة الفرنسية وأخرجها من التفاهة والابتذال والأسلوب الخطابي الذي دارت فيهما لمدة قرون عديدة •

وكان لخلقه من جديد للقصيدة الفرنسية عواقب حميدة أغنت الشعر الفرنسي ، كما يعود له فضل تطوّر مفهوم القيم في الفن الشعري من المعقول الى اللامعقول ومن المبتذل في الفكرة الى الايحاء والأسرار الخفية في الابتكار • (5)

---

1 - ينظر • Antoine Adam . Les Fleurs du Mal ; P.XVII ;.

2- ينظر • Robert Benoit Chérix .P.XIII .

3- ينظر• Dominique Rincé ;P.65 .

4- ينظر• Robert.B. Chérix ;P.XIII

5- ينظر• Domènique Rincé . P65.

و ينظر• عبد الغفار مكاوي • ثورة الشعر الحديث من بودلير الى العصر الحاضر• 62-63 •

ومّا اتفق عليه في مجال الدراسات الأدبية الفرنسية ،هو أنّ شعر بودلير ظل منبعا ومصدرا لعدة تيارات أدبية تختلف عن أختها الممتدة من الرّومنسية ، وتفوقها في التجديد والابداع ، ومنها أعمال الشعراء الرمزيين: رامبو Rimbaud وفرلين Verlaine ، وملارمي Mallarmé ، ولقد صرّح هذا الاخير بأنّه ابتدأ مشواره الشعري حيث توقف بودلير. (1)

لقد نهج بودلير في شعره نهجا اختلف فيه عن نهج غيره من الشعراء ، الذين كانوا يرجعون باستمرار الى روح الاشياء الميتة، فكان يلاحظ ما لا يلحظ، ويسمع ما لا يسمع، ولهذا حكم له رامبو Rimbaud بأنّه " العرّاف الاوّل – (وأنّه) – ملك الشعراء ... واله حقيقي "، (2) وفي نهجه هذا أعطى الأولوية للخيال ، والصّور الفنية والأسلوب ، مّا جعل شعره يمثل منعطفا مهمّا في تاريخ الأدب الفرنسي. (3)

لقد أقحم بودلير العالم الأدبي بباقة " أزهاره " ،ودخله من أبوابه الواسعة ، فذاع صيته ، وارتفع وغطى على أصوات معاصريه – وان كان في البداية ،كما سبق، بالفضيحة لسوء فهم معاصريه لمقاصده الفنية – والنقد الحديث يعترف لبودلير بالرّيادة في الشعر الحديث ، من حيث مضامينه، في أوروبا لا في فرنسا وحدها. (4) ولشعره صدى عظيم في الآداب العالمية ،اذ امتدّ تأثيره الى خارج فرنسا ،الى ألمانيا وانجلترا ، وايطاليا ،واسبانيا (5) كذلك الى البلاد العربية ، و "..القارئ الذكي

1ـ ينظر. Dominique Rincé ;P 121 .

2ـ ينظر. Max Milner .Baudelaire(Les fleurs du Mal)Enfer ou ciel P.216 .

3ـ ينظر. ... Dominique Rincé . 121 .

4ـ ينظر. نفسه.

5ـ ينظر نفسه.

وكذلك .عبد الغفار مكاوي . 62 .

لن يعـــدم أثـره هنا وهناك على رواد شعرنا العربـــي الجديد ٠٠" (1)

ولم تتوقـف شهرة بودلـيـر عن التوسع والانتشار في عالم الفن عامّـــة ، وفي عالـم الأدب خاصّـة (2) ،فعنـي بشعره عالميـا،وترجـم ودرس في جميع اللغات ولم تكـن حياته أقل اهتماما من شعره لدى دارسيه، (3)ففـاز بعد الاهانـة ومعاناة الحرمان في حياتـه ،بتاج الملك في عالم الشعر،كمـا اعترف بذلك رامبـو Rimbaud ، وكذلك رأى دارس عربي في الشعر العـربـي الحديث ، اذ يقـول : "٠٠٠ بودلـيـر شاعر العصر الحديث ،ما من شاعر استحـق هذه التسميـة مثل بودلـيـر٠٠٠ فكل من يقرأ بودليـر اليوم يعرف بغيـر شك أنه الرّائـد الذي وضع أساس هذا البنـاء الشامـخ القريب الذي نسمـيـه بالشعـر الحديـث " (4) ٠

أما حضور بودلـيـر في الشعر العربي الحديث ، في القرن العشريـن ، والبداية منه خاصّـة ، وهي الفتـرة التي عاش فيها الياس ،فكان الأديب العربي ، بصفـة عامّـة ،على اتصـال مستمر ووثيق بالأدب الغربي ، اتصـال أوجدتـه ظروف تاريخيـة :سياسية واجتماعية وثقافيـة ،قد مـرّ بنا ذكرها في الفصـل السابق من هذا البحث ، فكان دائـم الاطـلاع على كلّ جديد في آداب الغرب ،وعـلاقة الأديب اللبناني بالأدب الفرنسـي كانت جد وثيقـة، علاقـة قامـت على الاعجاب والتقدير ،فما كان يفوتـه شيء من انتاجه الأدبـــي ، وبالأخـصّ أدب القـرن التاسع عشـر منه ٠ (5) ولقد تعـرّف على هذا الأدب

1ـ عبد الغفار مكاوي ٠ 63 ٠

2ـ ينظر ٠ R. B. Chérix .XIII .

3ـ ينظر ٠ François Porché . Baudelaire Histoire d'une âme . 450.

4ـعبد الغفار مكاوي ٠ 62٠

٠ ويعتبر سانت بوف Sainte-Beuve الناقد الفرنسي ،بودلير من رواد الشعر الفرنسي الحديث الذين هم : موسيـه Musset، بانفيـل Banville ، غوتييه Gautier(théophile) هوغـو V.Hugo ، لامرتيـن Lamartine ،لوكنت دي ليـل Leconte de lisle (نقلا عن : W.T. Bandy et Claude Pichois , Baudelaire devant ses contemporains . 196.

في المراحل الأولى من تربيته المدرسية ، في مدارس ومعاهد فرنسية ، مما سمح للشباب اللبناني بالتعرّف على العشرات من الأدباء الفرنسيين (1) ، وجعلهم يولون الثقافة الفرنسية اهتماما خاصا ويتخذون منها معينا يغترفون منه وهم شعراء كبار • (2)

وكان الياس أبو شبكة من هؤلاء ، فبعد مرحلة التلقي ، وهي المرحلة المدرسية الأولى التي زرعت فيه ، مثل كلّ أبناء جيله ، بذور الاستعداد للاقبال على الثقافة الفرنسية ، تجده ينتقل الى مرحلة ثانية ،وهي المرحلة التي يحاول فيها تنمية ما اكتسبه في المرحلة التربوية الأولى ، وفي نفس الوقت يحاول تكوين شخصيته الثقافية والفنية ، وكانت أمامه وسائل شتى وفرص عديدة للافادة من هذه الثقافة ، كالترجمة ، ومعرفة اللّغة الفرنسية نفسها ، والدراسات القائمة حول هذه الثقافة بصفة عامة وحول أدبها بصفة خاصة •

وكانت الترجمة من أنجع الوسائل لتوصيل الثقافة الفرنسية الى الوجدان العربي ،ولقد نشطت حركتها واتسعت في عهد الياس ، وشغلت أبناء جيله ، وأولوها العناية الكاملة حتى "غدت (•••) بدء من مستهل القرن العشرين ، وظيفة أدبية وعملا لشعراء (لبنان) ، يدعمون بواسطتها

= 5 ـ ينظر • منيف موسى • 22 • 23 •

1ـ ينظر • نفسه • 22•

2ـ ينظر • نفسه •

انتاجهم الشعري ويدافعون عنه، (1) وكان الياس واحدا من هؤلاء المولعين بالترجمة • (2)

ولقد أولت الدوريات ، والمجلات ، والجرائد اللبنانية الترجمة اهتماما ملحوظا في فترة مابين الحربين العالميتين ، ونذكر على سبيل المثال مجلة " المعرض " ، و " جريدة " المكشوف " ، كان يترجم بهما الى العربية شعر فرنسي ، مثل قصيدتي بودلير : " الى عابرة " (3) و " الافعى التي ترقص " (4) ومثلهما مجلة " البعث " التي نشرت بها قصيدة بودلير " الى تلك الحسناء الطروب " (5) ، ومجلة " الحديث " التي نشرت بها ترجمة قصيدة " ينبوع دم " (6) لبودلير أيضا •

لقد عني شباب فترة مابين الحربين العالميتين بدراسات مختلفة حول الانتاج الأدبي الفرنسي ، بها تلميحات واشارات الى " أزهار الشر " ، فعوّدتنا الدراسات الأدبية الحديثة في الأدب العربي الحديث عموما ، على ذكر " أزهار الشر " وصاحبها ، وهذا سواء

1ـ منيف موسى • 22• 23 •

2ـ نفسه •

3ـ نشرت بـ " المعرض " ع•102• 10 •1935 • (نقلا عن •منيف موسى •25)

4ـ نفسه •

5ـ البعث •ج 2 • 48 • 1931 • (رفيق فاخوري) •

6ـ الحديث • ع•2 • 184 • 1937 • (بشر فارس) •

• ولقد حاولنا الاستشهاد بما ترجم من شعر بودلير في الدوريات ، قبل تاريخ نشر " أفاعي الفردوس " الذي كان 1938 ، أمّا ما جاء بعد هذا التاريخ فهو لا يخصولا يعد ، الا أنه لايهمنا في بحثنا هذا •

في لبنان أو في غيرها من البلدان العربية الأخرى (1) فكان لشعره تأثير على الأدب العربي الحديث بحيث جعله يطرق مواضيع جديدة ما كان يعنى بها من قبل ٠(2)

وما نستنتجه من هذا كله هو أن بودلير كان معروفا في الأوساط الأدبية اللبنانية في عهد الياس، بل كان ،كما قال مارون عبود : معشوق شباب تلك الفترة (3) ، الذي نحا نحوه في الشعر ،كما نحوا نحو فرلين Verlaine وملارميه Mallarmé ورامبو Rimbaud تلامذة بودلير ٠(4)

أما مايشهد على اطلاع الياس على شعر بودلير ،وخاصة اهتمامه بهذا الشعر ،فهو أولا " أغانيه " ثم بعض دراساته الأدبية التي يظهر من خلالها معرفته لبودلير ،ومعرفته الجيدة لشعره داخل الشعر الفرنسي ،كقوله مثلا : " ٠٠٠ ويقيننا أنه ـ (ويقصد به الغموض) ـ دخيل على الأدب الفرنسي أيضا ، فجو فرنسا صريح ومشرق ، وما كان شعراؤها ، ماكان رونسار وكورناي ، وراسين وهوغو ولامرتين وموسيه وفيني وليكونت ده ليل وبودلير شعراء غامضين ، وماكان فرلين غامضا ولا رنبو ٠٠٠" (5)

وهذا دليل على معرفته للشعر الفرنسي قديما وحديثا ، وتعامله معه وتذوقه له بما فيه شعر بودلير ٠ وفي غير هذا المكان يظهر الياس

1ـ ينظر ٠ ماهر حسن فهمي ٠ تطوّر الشعر العربي الحديث في مصر1900ـ1950

2ـ ينظر ٠ مناف منصور ٠ الانسان وعالم المدنية الحديث ٠ 198 ٠

3ـ مارون عبود ٠ مجدّدون ومجترون ٠ 80 ٠

4ـ منيف موسى ٠ 22 ٠

5ـ روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ٠ 137 ٠

مطلعا على شعر بودليراطلاعا دقيقا ،(1) ونجده أحيانا يفصح عن اعجابه بشعربودلير صراحة (2) ، وأحيانا أخرى يأتي اعجابه غير صريح ، كأن يضمن ،مثلا ،تقده لشعرأحد الشعراء اللبنانيين (3) الذي كتب مجموعة شعرية باللغة الفرنسية بعنوان " مصابيح من خزف "(4) مايكنه من اعجاب بشعر بودلير ، يقول فيه ،بعدما انتهى من ذكرنقائصها، "... ولن أعدد الحسنات فهي كثيرة وفي عدد ها (Marche Funèbre) التي تمت بنسب الى جيفة بودلير ..." (5) .

فالياس هنا يكفيه نسب هذه القصيدة الى " جيفة " بودلير ليمنحها تقديرا حسنا ،وينال من اعجابه ، وهذه القصيدة بالذات ، يعني " جيفة" بودلير (La Charogne) ، لها قيمة مهمة في شعره ،بل يمكن وضعها بين الأسس التي قام عليها فن بودلير الشعري .

ومن أدلة اعجاب الياس ببودلير أيضا واطلاعه عليه ، أنه ترجم من الفرنسية الى العربية كتابا عنوانه " حياة بودلير الغرامية " (6) للكاتب كميل موكلير ، ومن المعروف أننا نعجب بانتاج كاتب قبل أن نعجب بشخصيته، والانتاج هو الذي يجرنا الى حياة صاحبه لا العكس .

ومما لاشك فيه ، وهذا اعتقادنا ،هوأن الياس بعدما قرأ للشاعر " أزهار الشر " أراد أن يقترب من الرجل أكثر لمعرفة أسرار في "حياته

1- ينظر "أغاني الفردوس" . المقدمة ،18 .
2- ينظر . روابط الفكر والروح... 122 .
3- الشاعر هوأدمون سعد .
4- مصابيح من خزف (Les Lampes D'argile, Im. Catholique 1943
5- الأديب ،ج 5 ، 58، 1943 .
6- Camille Mauclair. La vie amoureuse de Ch. Baudelaire, Ernest Flamarion, 1927 .

الغرامية " انه أحس بحاجة الى " مفاتيح " يفتح بها هذه الأسرار الغامضة المبهمة ، ويدخل عالمه الشعري ويدرك معانيه،فوجد ضالته في هذا الكتاب (1) ،الذي يربط صاحبه ربطا وثيقا بين حياة الشاعر عامة ، والغرامية منها خاصة ، وشعره ، الشيء الذي جعله يستشهد بكثير من قصائد " أزهار الشر " .

وسنحاول تلخيص الأفكار الواردة في هذا الكتاب ،لما بها من أهمية كبيرة في شعر بودلير أولا ،ولما لها من بصمات واضحة في " أفاعي الفردوس" ثانيا .

فالفكرة الأساسية ، في هذا الكتاب ، تعالج علاقة بودلير بالمرأة ، ومفهومه الخاص للأنوثة ، وللعلاقة الجنسية والحب . وهناك أفكار جزئية ، قامت عليها الفكرة الأساسية ،تناول فيها :- حياة بودلير داخل أسرته فارق السن بين والديه وأثره في تكوين الشاعر الفيزيولوجي ــ علاقة بودلير بوالده ، علاقته بأمه بعد موت والده ، وحبه لها وغيرته عليها ، زواج أمه من العقيد أوبيك (AUPICK) وأثر هذا الحدث في نفسه وفي علاقاته الغرامية .

وحياة بودلير الغرامية ، مع بساطة مظهرها ، تظل متشابكة الجذور ومعقدة المنطلق ، وتظرته للمرأة تحمل رواسب ورصيدا هائلا من العقد النفسية ورثتها رجولته عن طفولته ، كان أثرها قويا في شعره بحيث وجهته وجهة خاصة .

1ــ ويعد روبير بونوا شريكيس R.B. Chérix ،كميل موكلير من الأوائل الذين درسوا بودلير بجدية . وله كتاب آخر : " شارل بودلير حياته وفنه وأسطورته " ، ولانستبعد أن يكون الياس قد اطلع عليه .

R.B. Chérix ; P. XII .

أمّا أهمية هذا الكتاب بالنسبة لبحثنا في اثبات أثر شعر بودلير في " أفاعي الفردوس " فتتمثل أولا في علاقة حياة بودلير بشعره ، وثانيا فيما وجدناه من أثر مباشر لحياة شاعر " أزهار الشر " في ديوان الياس • لقد اطلع الياس على تفاصيل حياة بودلير في هذا الكتاب ، ومن الأحداث الهامة في حياته زواج أمه ، الذي اعتبره بودلير، دائما ، خدعة وتخلّ عنه • (1) فلا تستبعد أنّ الياس استغل شخص كارولين أمّ بودلير ،مثلا ،كموذج للمرأة التي تتمثل فيها غرائزها الحيوانية العواطف السامية كعاطفة الأمومة وواجباتها • (2)

ونجده أيضا يستغل شخصية بودلير الأدبية ، والصورة التي رسمها له معاصروه ، حيث يصفونه بالانسان المخيف المنحرف وب" بابا " الأدب الخارق للقدسيات ، وبالملعون ، ويقعدونه على " مملكة جهنم " بالمكتبات السرية ، (3) كما جاء في قصيدته الدينونة • (4)

وكم شاعر خبثت فيه عرائسه فراح يطلي بأنياب وأظافر
من المواخير أوحين الجمال له معرّف الشهوة السفلى بأزهار

ومن أنبت الزهرة في الشر واستوحى الجمال منه!؟ ، انّه بودلير • ولعلّ الياس هنا يتكلم عن نفسه أيضا ، هو الذي اتجه وجهة بودلير الشعرية ، ونجده

---

1 ـ ينظر • Camille Mauclair . 25 . 26 .

2ـ ينظر • قصيدة " الأفعى " ، " أفاعي الفردوس " 31 •

3ـ ينظر • Camille Mauclair . 11

4ـ " أفاعي الفردوس " • 56 •

في بيت آخر من القصيدة نفسها ؛ يتقمص شخصية بودلير ، فيقول :

ابليس خذه وعقمه فلا نشأت   من صلبه أسرة شوهاء في دار

يذكرنا هذا البيت بما جاء في قصيدة من " أزهار الشر " وهي " بركة " (Bénédiction) التي فيها يذكر بودلير بأن أمه ، لما وضعته ، رفعت يديها الى السماء ، حاقدة كافرة ناقمة على الاله ، تتوعده، بأنها ستنتقم بما ملأ صدرها من حقد وكراهية ، من هذا الطفل ، الذي ماهو الا وسيلة ملعونة وشر من شروره ، وأنها ستتقن تحطيم هذه الشجرة الشقية حتى لا تؤتي ثمارها الموبوءة ... (1)

لقد اطلع الياس أبو شبكة على بودلير الرجل والشاعر، واستفاد من الاثنين في " أفاعيه " ، وكان سهل التأثر بمطالعاته، (2) يقول في مقال نشره في مجلة " المعرض " تحت عنوان : " أنا " :
" ... أما الموضوع فأكون قد فكرت به الليلة الفائتة ، لست من الكتبة الذين يستطيعون أن يخلقوا شخصية من غير أن يكون هناك نموذج لها (موديل) ." (3) .

2- أسباب ميل الياس الى شعر بودلير :

أما السؤال الذي يطرح نفسه الآن ، بعدما حاولنا اثبات اطلاع الياس على شعر بودلير وعلى حياته ، فهو : ماهو السبب أو الأسباب التي

1- "أزهار الشر " ، 9 .
2- ينظر ، م. مؤلفين ، دراسات وذكريات ، 35 .
3- ع 55 ، 9 ، 1955 ، (نقلا عن م . مؤلفين ، دراسات وذكريات ، 11) .

قربت بين الشاعرين ، وجعلت الياس يتأثر في " أناعيه " ب " أزهار الشر " ؟

لقد لاحظنا ، بعد تتبعنا لمراحل حياتي الشاعرين، أسبابا نفسية داخلية ذاتية ، اشترك فيها الشاعران ، وأخرى خارجية : أسرية واجتماعية وقدرية ، قربت بين تصور الشاعرين للوجود الانساني وبين موقفيهما منه •

وقد يتعذر أحيانا ، أو يصعب ، فهم شعر فهما صحيحا في غياب معرفة حياة الشاعر ، فالشاعر قبل أن يكون شاعرا ، هو انسان اجتماعي عادي ، وأفكاره وهواجسه لا تخلق من عدم بل تنجبها ظروف حياتية ما ، وتتغذى من عوامل هذه الظروف وتصدر عنها • وقد تكون هذه العوامل ظروفا عاشها الشاعر ، سواء في الواقع أو في الخيال ، في مراحل متتالية في حياته كالظروف الأسرية ثم المدرسية ثم الاجتماعية بمفهومها الواسع ثم الثقافية ، مما يؤدي الى أن يكون الشعر صدى لهذه الأصوات مجتمعة ، والتي لم تخمد بأعماق نفس الشاعر •

ومما أفادنا في فهم تقرب الياس من بودلير ، هو التشابه الموجود بين ظروف حياتيهما ، فاذا أخذنا المرحلة الأولى من حياتيهما ، وهي المرحلة الأسرية ، نجد أن أكبر حدث اشتركا فيه ، وترك أثره العميق بنفسيهما هو اليتم • لقد فقد بودلير والده ، الذي كان شديد التعلق به ، فزاد تعلقه بأمه وكانت كل شيء بالنسبة له الى أن تعلقت هي برجل غريب ، وتزوجت به • (1)

---

1 ــ ينظر • Camille Mauclair . 25 , 26 - 27 , 28 , 29 .

وينظر • Marcel Ruff , Baudelaire . 6 .

وينظر • Max Milner . 210 .

فان كان يتم بودلير من أبيه وزواج أمه برجل آخر قد أثقلا حياته ، وطبعا انتاجه الأدبي ،فانّ يتم الياس من أبيه لم يكن أقل أثرا في حياته وشعره . لقد اغتيل والده وهو في العاشرة من عمره ،وكان الوالد والابن يتبادلان أعظم حبّ ، فكان الخطب جليلا خلق في نفس الشاعر آثارا عميقة الجراح ، (1) بحيث نجده بعد اثني عشرة سنة من الحدث ، تقريبا ، وهو شاب ، يقول في كلمة اهداء مجموعته الشعرية " القيثارة " لوالده :
" ياأبي ،لقد فتكت بك يد أثيمة في بلاد الغربة بعيدا عن زوجك وصغارك ،فخلفت اليأس في صدر أمي والأسى في قلبي إكت في العاشرة من عمري يوم توارى وجهك اللطيف الى الأبد ،وكنت لا أزال أدفأ بين جناحيك ، وهاأنا اليوم في الثانية والعشرين في عهد الشباب في عهد الجهاد والألم ... ياأبي لقد توالت الأيام العديدة وهي أشدّ سوادا من ظلمة قبرك ،وأنا ثابت في مبادئي كالأرزة في وجه العاصفة ، أود شكاة فلا أجد من يصغي الي غير روحك المرفرفة فوق رأسي ..." (2)

فواضح أنّ الصدمة كانت عنيفة في نفس الطفل ،امتدّ صداها الى نفسه وهو شاب ، فتحولت ، مع الأيام ،الى نوع من الكآبة الدائمة . (3) ولانعتقد أن ما يتأتى عن اليتم من احساسات كالحزن والأسى والحرمان والقهر والظلم وعدم الأمن وحتى انعدام العدالة الالهية ، يختلف من طفل لآخر،انّها احساسات تهيّئ لأرضية بنفس اليتيم ، مواتية لتواجد الثورة والتمرد والسخط ومايشبه ذلك من الاحساسات التي تستولي عليه وتجعله ناقما حاقدا في الحياة .

1- ينظر . رزوق . ف. ر. 40 .

2- نفسه 41 . (نقلا عن ديوان الياس " القيثارة ")

3- المعرفة . ع. 251 . 1983 . (دمشق) .

ولقد تلقى الشاعران ،وهما طفلا ن في حضن أسرتهما ،تربية دينية مسيحية ، سنجد لها أثرها القوي في شعرهما ،(1) وستكون من العوامل الأساسية التي هيأت لتقارب الشاعرين .

أمّا المرحلة الثانية ،من حياتيهما ،فهي المرحلة المدرسية ،ولاتقل هذه المرحلة أهمية عن أختها السابقة من حيث تشابه سلوك الشاعرين المدرسي .

فكل من اقترب بالشاعرين أو تعامل معهما في هذه المرحلة ، يشهد لهما بالذكاء والتفوق والتميز ،فبودلير ،مثلا ،يعترف زوج أمه بذكائه المبكر في قوله لمدير ثانوية (سان لوي) وهو يقدّمه له : "سيدي ،هذه هدية أقدّمها لكم ستشرّف مدرستكم " . (2) وكان له منذ حداثة سنه ، ميل الى الشعر ،فكان يهتم بكتابته ، وحتى أثناء حصّة الرياضيات في المدرسة كان يتبادل وريقات يكتب بها أبياتا شعرية مع بعض زملائه ، (3) وكان مستواه قويا في تأليف أبيات شعرية لاتينية كما يشهد له بذلك أحد أصدقائه ،اذ قال : " لم تكن علاقتي وثيقة به ، لأنني لم أكن في قسمه ، لكنني كنت أحترمه كثيرا ،لأنّه كان قويا في تأليف الأبيات اللاتينية " (4)

وكان الحال كذلك بالنسبة لالياس ،لقد تفوّق في عهد تلمذته في اللّغة العربية ، فنظم الشعر بها ،وتحدّى أستاذه في معرفة قواعدها ،كما أتقن

1- ينظر بالنسبة لالياس ،رزوق . ف . ر . 64 .

ومحي الدين صبحي ،نظرية النقد العربي وتطوره ، 185 .

وبالنسبة لبودلير : Marcel Ruff . 17 .

2- ينظر . W.T.Bandy . Claude Pichois , Baudelaire devant ses contemporains . 42 . _ François Porché . 34

3- ينظر . W.T.Bandy.Claude Pichois .P43 .

4- ينظر . François Porché . 34 .

اللغة الفرنسية، ونظم الشعر بها، وهو لا يزال صغيرا . (1)
وقد برهن ، في هذه المرحلة ، على نباهته وذكائه ، وإن كان زمن اتصاله بالمدرسة قصيرا . (2)

لقد تميز الشاعران ، منذ صغرهما ، بحدة من الذكاء تستحق الانتباه والاهتمام ، لما سيكون لهذا الذكاء من فعالية في كتاباتهما وحياتيهما ، وجدنا في هذه المرحلة تفعلها تشابها آخر ، وهو ميلهما الى قراءة الشعر الرومنسي ، واهتمامهما بفطاحلته كفكتور هيغو V. Hugo ولامرتين Lamartine . كانا مولعين بترديد شعرهما . (3)
ومما لا يقل أهمية عن اهتمام الشاعرين بالانتاج الرومنسي اجتذابهما نحو الشعر المتشائم والنافر من الحياة ، كاعجاب بودلير ، مثلا ، بنظرة شاتوبريان Chateaubriand للحياة ، هذه النظرة التي عبّر عنها في روايته " روني " (4) واتيان دي ستانكور Etienne de Senancour في مؤلفه " أوبيرمان " (5) فكل من البطلين ناقم على فساد أخلاق الناس ، نافر من الحياة ، عاجز على التكيف معها وعن الانسجام في المجتمع .

1– ينظر . رزوق . ف . ر . 46 .
2– نفسه .
3– ينظر . بودلير . Marcel Ruff . 6 et
Aguettant louis . lecture de Baudelaire . 10 .
ينظر . الياس . سامي جورج خوري . الياس أ . ش . في غلوا . 12 .
و . دراسات وذكريات .
4– " روني " : (René) رواية نشرها شاتوبريان سنة 1802 ، ثم 1805 يصف بها الكاتب أمراض العصر يعني " انتشار موضة الشهوات " ويمثل لذلك بقصة روني الشاب الكئيب الذي ذاب وانضنى في أوهام .
5– " أوبيرمان " (Oberman) مؤلف لـ . ايتيان دي سينانكور (Etienne de Senancour) 1804 جاء في سلسلة من الرسائل اليومية =

ويقول بودليرفي رسالة بعث بها للناقد الكبير (سانت بوف) . Sainte- Beuve حوالي 1844 بأنه بدأ يفك رموز تنهدات " رونيي " بانطلاق وسهولة منذ حداثة سنه • (1)

وأدبنا العربي القديم لا يخلو من مثل نظرة شاتوبريان للحياة ، وأحسن من مثلها هوأبو العلاء المعري الذي كان الياس معجبا به (2) ، ولقد ذكره في أول مجموعته الشعرية " القيثارة " ذكر المعظم المحب و" ••• نجده متأثرا به في فلسفته التشاؤمية ، القائمة على ذمّ الناس الأشرار ، والنقمة على الظلم والفساد والرياء والجحود ، وعلى اليأس من صلاح المجتمع والسأم من الحياة • (3)

ومّا نعرفه هوأن الهيام بمثل هذا الشعر يقتضي سنّا متقدمة وتجربة في الحياة غنية ••• لكن كبر الشاعرين لم يكن بالسنين بل يرجع الى طبعهما البصير الذي نبهته ودربته ، مبكرا ، التجربة الذهنية وأشاختهما نفسيا (4) • وبودلير يقول في قصيدة (5) لو أنّ له من الذكريات ما يفوق مثيلتها اذا كان بعمره ألف سنة وما لميل الشاعرين ، المبكر،الى مثل هذا النوع من التأملات الا تفسير واحد ، وهو نضجهما الفكري ، واتساع تفكيرهما ، فهما

= يحلل نفسية البطل الذي هو (أوبرمان) في عدم تكيفه مع الحياة ، وفي ذلك يشبه " رونيي " شاتوبريان •

1 ـ ينظر • 36 • François porché

2 ـ ينظر • رزوق • ف • ر • 144 •

3 ـ نفسه •

4 ـ ينظر • François Porché.35.

5 ـ " أزهار الشر " Spleen "J'ai plus de Souvenirs..."

لم يعيشا " ثمانين حولا " ليأسا من الحياة لكن تفكيرهما سبق السنين (1) ••• ولم يكن هذا كلّه بدون أهمية على تجربتهما الحياتية أوّلا والفنية ثانيا •

وإذا كان ذكاء الطفل فوق المعدّل ، فهو كالسّيف ذي الحدين ، وإن كان هذا شيئا محمودا لوجوده كظاهرة عند الطفل ، فانّ ما سيترتب عنها غالبا ما يكون ممّا لا تحمد عقباه ، وذلك لأنّ الطفل ، بمستواه العقلي يتجاوز ويتعدّى مراحل معروفة يمرّ بها الطفل العادي ،(2) فلاهوناضج نضج الانسان العادي الذي مرّ بالمراحل الطبيعية التي مرّ بها الطفل ليصل الى النضج ، ولاهوطفل في سلوكه اليومي ، فامّا أن تواتيه الظروف المناسبة فيتفتح ويبرز ويشجع ، فيرجى منه خيره وامّا أن تخونه الظروف المناسبة فينحرف • أمّا الحياة العادية ، كالامتثال للقوانين الاجتماعية أو المدرسية أو الأسرية ،والانسجام مع محيطه فنادرا ما يعرفها • (3) ونقصد بالانحراف هنا ، الخروج عن السلوك العادي المتعارف عليه ، وكانت هذه حالة الشاعرين ، في نظرنا ،بعدما تفحصنا حياتيهما ، فمنذ تلمذتهما في المدارس ظهرت في سلوكهما سمات الغرابة ، وعدم التكيف مع المحيط والاندماج فيه والانسجام معه •

ويقول زميلا ن لبودليرفي عهد تلمذته بالمدرسة ، بأنّه كان يظهر وكأن بعقله " خللا " ، فكان يبدو أحيانا متزهدا وأخرى وقحا •

---

1 ـ ينظر • Rémy Chauvin . les Surdoués . 89

2 ـ ينظر • نفسه 90 •

3ـ ينظر • نفسه • 90 •

لكنّه دائما غريب الأطوار ، يتحرف عن سلوك التلاميذ العادي ، وقد لازمته هذه الصفات ولم تفارقه طوال حياته (1) وكان أساتذته يأخذون عليه طبعه الغريب وأحيانا الشاذ ، (2) ومثل هذا السلوك هو الذي جعل ادارة احدى الثانويات تتخذ قرارا بفصله عن المؤسسة.(3)

أولم يكن لالياس السلوك نفسه تقريبا ؟ لقد رأى من عاشروه في سلوكه غرابة وتفرّدا "... فكان يتميز عن رفاقه بغرابة الأطوار وصعوبة المراس، واضطراب السلوك ، لا يكاد يخضع لنظام، فاتبع حياة عصامية ..." (4)

واذا كان بودلير قد اتهم ، من قبل ، " بخلل " في عقله، فانّ الياس لم ينج كذلك من مثل هذه التهمة ، فقد لقبوه في مدرسته "بالمجنون"(5)، وقد تمرّد على أساتذته (6) مثل بودلير ، ممّا جعل الادارة تقرّر طرده من المؤسسة هو أيضا . (7)

بعدما استعرضنا ماكان من تشابه بين المرحلتين الأولى والثانية من حياتي الشاعرين ، تنتقل الى المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة

---

1 — ينظر . François Porché . 31

2— ينظر . Marcel Ruff . 10

3 — ينظر . نفسه . 11

4— سامي ج . خوري والياس رحيم . 129 .

5— ينظر الأديب . ج 6 . 24 . 1956 . (عادل الأعور) .

6— ينظر دراسات وذكريات . 27 و 151 .

7— ينظر . الأديب . ج 6 . 24 . 1956 .

وينظر . رزوق . ف . ر . 42 .

التي كان الشاعران ولا شك ينتظران الخير منها ، لأنهما كانت لهما طوال المرحلتين الأولى والثانية ،طموحات وآمال وأحلام شأنهما في ذلك شأن كلّ الأطفال الحالمين ، وهي أحلام الطفولة البريئة لا تشوبها شوائب ، أحلام منطلقة لا تضايقها قيود ، ولا توقفها عراقيل ، ولا تثقلها قوانين ، ولاتقاليد . وكانا يعتقدان اعتقادا صادقا أنهما متفوّقان على محيطهما ، وكان تمرّدهما ، وهما طفلان ، دليلا على ذلك ، لكن هذا الاعتقاد صاحبهما الى مرحلة الرجولة ، فبقي طموحهما قويا . وبودلير رجلا ، كان مغرما بالانتصار ، قويّ النزوع الى القوة ، (1) ولم يشك يوما في تفوّقه الأدبي (2) ، وقد وصفه سارتر Sartre بالعجرفة والتكبّر . (3)

وفي قصيدة نثرية له : " في الواحدة صباحا " يقول : " وأنت ياسيدي ! ياإلهي ! أيتها الأرواح التي غنيت من أجلها ! آزرني ، ساعدني ! أبعدي عني الخرافة وأبخرة العالم المرهقة ! ... وأنت يا سيدي ! ياإلهي ! هبني شرف ابداع بعض الأبيات الشعرية الجميلة ، تكون حجة اقناع لي أنا ... بأنني لست الأخير في صفوة الرجال ، ولا أقل من أولئك الذين أحتقرهم ! ..."(4)

وينطلق اليأس من الاحساس نفسه ، ويقول في قصيدته "القاذورة" :

وثمّ جرادات عطاش غوارث	يكرّرها وهج الجناح فتمرد
محبّرة الاردان مفجوعة الحشا	توابيت يطليها لجين وعسجد
لها في مقاصير السماء مطامح	وليس لها في مسلك الجو مقود
تفرّش فيه وقح الوجه والسما	لأنسرها ، لا للصراصير ، مصعد(5)

1- ينظر . 102 François Porché.

2- ينظر. Carmille Mauclair . 59 -60 - 61

3- ينظر. J. P. Sartre . Baudelaire

4- الأديب . ج 6 . 50 . 1956 . ترجمة الطيب الشريف .

=

انه لايقل طموحا وكبرياء عن بودلير، طبيعة واحساس متشابهان عند الشاعرين ، جعلا الياس يستعير من " أزهار الشر " ما يناسبه من صور ومعان ، فكأن ينعت نفسه ، هو الشاعر ، بالطائر العظيم "النسر" وغيره من الشعراء بـ " الصراصير " ، وبودلير نعت نفسه بـ " ألباتروس " البحار ، صورة للشاعر العظيم .

لكن الانسان محكوم عليه بالتغيّر عبر هذه المراحل ، لا ذاتيا أوجسديا فحسب بل روحيا ونفسيا ، وفي التغيّر الأخير يكمن شقاء ذوي الاحساس المرهف مثل بودلير والياس ، فاحساسهما بالتفوّق لم يفدهما في شيء ، وذلك لأنّه ما كاد ، كلّ منهما يدخل مرحلة الرجولة حتى يثبت له ، بعنف ، أنّه لا يختلف عن بقية النّاس، انّها يقظة من حلم آلمتهما وأزعجتهما ، فظلا يرفضان الوضعية الانسانية من أساسها ، ويتنكران لما يتملكهما من شهوات وغرائز .

وكان أوّل ما صدما به ، عند دخولهما هذه المرحلة هي الخطوة الأولى التي بها يثبت الرجل رجولته . وكانت خيبة أمل كبرى بالنسبة للشاعرين الذين تملكهما احساس قوي بالانهيار الرّوحي ، ممّا جعلهما يلتفتان ، دائما ، الى الطفولة البريئة الطاهرة ، والى ماض ودّعاه به المثال ، في حسرة وألم وندم .
ولبودلير بضعة أبيات سجل فيها هذا الاحساس ، وهو على أبواب الرجولة وعمره حوالي سبع عشرة سنة ، يقول :

- 5 - " أغاني الفردوس " . 26 .

كم هوحلو أن تبحث أحيانا في الشرق البعيد
عمّا اذا كان لايزال بامكاننا رؤية احمرار الصباح ،
ونحن في حالة تعب وارتخاء كباقي الرجال
ولمّا نتقدم في درب الحياة الشاق
نتلذذ لسماع أصداء تغني خلفنا
وهمس الحبّ الفتي الذي جعله الاله في بداية أيامنا • (1)

ويرى فرانسوا بورشيه ، أنّ هذه الأبيات قالها الشاعر بعد خطوته الأولى في الخطيئة • لأنّ هذا يمثل مرحلة انتقال من حالة الى أخرى ، من الشاب الى الرجل الداخل مرحلة تاريخية من حياته يبقى مسؤولا فيها عن خطاياه • ويرى المؤلف في هذه الأبيات ما يدلّ على حسرته وأسفه على الطهر الضائع ، وفقدانه " للفردوس الأخضر، للحب الطفولي " ويرى كذلك أنّ العناصر الأساسية للقلق والاضطراب البودليري ، أخذت ، ابتداء من هذه الفترة ، تتطوّر تحو فكرة الخطيئة وفكرة السقوط • كانت فكرة مجردة عامة مسيطرة على احساسه الداخلي ، اقترنت ، في هذه المرحلة ، بصورة موضوعية لاثمه الشخصي•(2)

لم تكن هذه المرحلة بالنسبة لبودليرمجرّد مرحلة انتقالية، ومجرد احساس عابر يحسه كلّ شاب في مثل هذه السن ، فنزوة الشباب هذه لازمته وهو رجل ، ولم تكن نزوة مؤقتة أتلفها الزمن ، بل ملأت حياته وفنه، طوال حياته ، وكانت لها خطورتها عليهما •

1- ينظر • François Porché .92.

2- ينظر • نفسه •

أمّا عند الياس، فتجد هذا الاحساس يضعف كثيرا مع مرور الزمن ، فيتلاشى ويكاد يضمحل في شعره الذي تلا " أغاني الفردوس " . أمّا في " أغاني الفردوس " ، فاننا تجده جليا وحادا ، فهو يتأسف ،بدوره على طهر ضاع منه بعد دخوله عالم الخطيئة ، فيقول في قصيدته "عهدان " (1) على غرار بودلير :

أو لا تراهم يرتدون   الليل حتى منتهاه
يستنزفون دم الشباب   ويرقصون على قواه؟
هذا فتى كانت تموّج   بالجواذب وجنتاه
كان الندى يطفو على   آماله وعلى صباه ،
كانت أزاهير الربى   بالامس تسكر من شذاه ،
وذرى الجبال اذا رأته   تقول : " ما أعلى ذراه! "
ماذا دهاه اليوم؟ –   الشهوات تعرف مادهاه
أما الجمال فانه   لم تبق تعرفه دماه
ولكم سمعت الورد ينكره   فيسأل : " من تراه؟ "
والفجر أصبح يعرف   الدنيا جميعا ... ما عداه
...
عهدان : عهد هوى نقيّ   مات في شرف وجاه ،
وهوى يعربد في دمي   وتنشّ في كأسي دماه ،

وفي قصيدة " الشهوة الحمراء " (2) يقول :

حبي النقيّ كايماني القديم مضى :   وهم هذيت به من بعض أوهامي!
أترى للغصن مذ يمر عليه   عاصف الريح كيف تذوي زهوره
هكذا القلب حين تلبسه   الآثام يقسو ، وقد يجف شعوره

1 – " أغاني الفردوس " .39 .
2 – نفسه .41 .

لقد تعذب الياس حين رأى أن ما تمثله في الخيال أعز من أن يكون حقيقة تدرج على الأرض . (1)
كانت هذه أول خطوة للشاعرين في حياتهما الراشدة الجديدة ، وما جعلهما يتأسفان على عهد الطفولة ، بل على طهرهما - الطهر الروحي والفزيولوجي (2) - هو تشبعهما طفلين بالروح الدينية والأخلاقية،(3) لأن خيبة أملهما هذه كانت نتيجة اصطدام بين عاطفتين متناقضتين مثالية ومادية ، بذهنهما ، وسوف ترى هذا الاصطدام يثبت على المستوى الفكري ، لديهما ويتطور الى صراع حاد ومحتدم ، ويؤدي الى انفصام في روحيهما والى ضياعهما بين قوتين ، قوة الخير وقوة الشر،وهذه هي الأرضية التي سيشيد عليها كل من بودلير والياس، شعرهما في " أزهار الشر" و " أفاعي الفردوس" ، وهو شعر قامت قصائده وانبثقت من تغسية قلقه الى حد المرض والوسوسة ، وجمعت بين الأضداد :ثورة ورضى ،اثم وطهر ،جهنم وفردوس، شيطان وملاك.

ولقد تكررت خيبة الأمل في حياتهما الراشدة ،على مستويات مختلفة ، فمنها ماهو روحي مثل ما مر بنا في أعلاه،من تمزق روحي وانفصام فكري ، ومنها ماهو مادي لا يقل أهمية عما سبق ذكره ، وهو الضيق المالي الذي عكر صفو حياتهما ، وعرقل سيرمشاريعهما الفنية وطموحاتهما ، كالرغبة في اثبات وجودهما وتفوقهما في ساحة الفن كشاعرين عظيمين لا " كأقزام " في عالم الفكر والفن ، وقد حال هذا الضيق بينهما وبين الحرية التي كان ينشدها كل منهما ، والتي كلفتهما غاليا من الكفاح والتضحيات.(4)

---

1 - ينظر . رزوق ف . ر ، 186 .

2- ينظر . بودلير . 45 . François Porché

3- ينظر .الأديب ،ج 3 . 6 . 1953 .

و ينظر . بودلير . Marcel Ruff.22.

4- ينظر . بودلير Marcel Ruff.17/ Et , François Porché . 40

و " . الياس . الأديب . ج 3 . 3 . 1953 .

لقد عانى كلّ من الياس[1] وبودلير من ضيق ذات اليد ، وذاقا مرارته، ولضيق بودلير المالي قصة معروفة كان لها مكانها بين المآسي البودليرية التي نغصت حياته وغذت فنه (2) .

وللمجتمع والحياة العامة حظهما في تكوين نفسية الشاعرين، ولقد لاحظنا شبها بين الظروف الاجتماعية التي عاشها كلّ من الشاعرين، على مابين بيئتيهما من اختلاف وما بين عصريهما من فارق ، لقد كان القرن التاسع عشر في فرنسا عصر القلق واضطراب ويأس وحيرة ، عصر انقلابات سياسية ، وتحولات اقتصادية واجتماعية ... فبتى الفن لـ" ألم العصر " تمثالا " : حظي بتقديس الفنانين بما فيهم الشعراء . (3)

كذلك كان لبنان يعاني ، في النصف الأوّل من القرن العشرين أمراضا واضطرابات مختلفة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولن ينجو الأدب من هذه الاضطرابات . (4)

وما يهمنا من هذه الملاحظة ، هو أنّ الشاعرين عاشا في جوّ عام متشابه من حيث وجود القلق والاضطراب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وما يترتب عليه من عدم الاستقرار والطمأنينة والوئام .

---

1 ـ ينظر . رزوق . ف . ر . 74 .

2ـ ينظر . مصطفى القصري . الشاعر بودلير . 18 و 19 .

و ينظر . W.T. Bandy et Claude Pichois. Baudelaire devant ses contemporains. 74.

وينظر . François Porché . 194 _ 195 _ 196 _

3ـ ينظر . 202 _ 203- 216- 235 Lagarde et Michard XIX Siècle. 40et 7.

4ـ ينظر . رزوق . ف . ر . 15,9.

3_ علاقة التجربة الحياتية بالتجربة الشعرية عند بودلير والياس :

لقد لمسنا شبها كبيرا بين ظروف حياتي الشاعرين ، الخاصّة والعامّة ، ولسنا مبالغين اذا قلنا أنّ هناك شبها حتى بين مصيرهما (1)، ومن وراء وقوفنا عند أوجه الشبه في حياتيهما ، من الطفولة الى الرّجولة ، وفحصنا لمواقفهما ازاء أحداث متشابهة ، وتتبعنا لسلوكاتهما الغريبة المتشابهة ، نهدف أولا الى ايضاح الأسباب التي قرّبت بين شاعرين من موطنين مختلفين وبيئتين مختلفتين ، وجعلت الياس يولي بودلير و" أزهاره " اهتماما خاصا (2)، ويتهجى تهجه في الشعر، وثانيا الى اثبات قسط من الأصالة لالياس في " أفاعيه " ، والتخفيف من الحكم عليه بالتقليد الأعمى واللاواعي ، رغم تأثره الجلي ببودلير ، وبهذا الصدد قال أحد دارسي شعره : " الياس لم يكن يبلغ هذه الاجادة فيما قدّمه للعرب من الشعر الملوّن لو كان محتذيا فحسب ، يغظم وهو ملىء الرأس بروائع شعراء الغرب الذين وافقوا نزعاته وفي مقدّمتهم شارل بودلير " . (3)

---

(1) يقول عيسى الناعوري : " وجدير بالذكر أنّ المشابهة بين بودلير وأبي شبكة لاتقتصر على الفجور وعلى الرّوحية في شعرهما فحسب ، أو على بعض الشبه في حياتهما الخاصّة ، ولكنّها تتعدّى ذلك الى أشياء أخرى ، من أهمها : أنّ الشاعرين عاشا مدّة متقاربة من العمر : فبودلير عاش ستة وأربعين عاما فقط _ (1821 _ 1867) _ ثم مات مشلولا ، وعاش أبو شبكة أربعة وأربعين عاما فقط _ (من 1903 الى 1947) _ ثم مات بفقر الدم الذي لازمه طوال السنوات السبع الأخيرة من عمره ".عن كتابه : أدباء من الشرق والغرب . 140 .

2_ ينظر . رتا عوض . الياس أبو شبكة . 11 .

3_ الثقافة . ج 426 . 21 . 1947 . بقلم رفئيل بطي .

وتعتبر هذه الظروف المتشابهة في حياتي الشاعرين عنصرا ديناميكيا في عملية الخلق الابداعي لدى بودلير، أما عند الياس فكانت العامل الذي جعله يفهم شعر بودلير، ويقبل عليه، ويقتدي به، ويستعير صوره وتعابيره، ليعبر عما يختلج في نفسه، أو بمعنى آخر، لقد أوجدت، هذه الظروف المتشابهة، قابلية واستعدادا عند الياس، لاستيعاب الفكر البودليري وفلسفته في الحياة •

والانتاج الأدبي يتغذى من عوامل عدة منها : الظروف الحياتية الخاصة في البيت والأسرة خلال فترة الطفولة، ثم خارج البيت في الاطار المدرسي، ثم الظروف الاجتماعية بما فيها السياسة والاقتصاد والاتجاهات الفكرية و المعتقدات الدينية، والقيم المشتركة بين الأغلبية من الناس، يعني، الحالات العامة المستقرة التي تشغل جيلا كاملا • (1).

ونجد بودلير نفسه يؤكد على استمرارية الطفولة في حياة الانسان، فيرى بأن هذه الطفولة تبقى ماثلة في فنه رجلا، ويرى بأن " كل عمل فني اذا ما تأملناه بعمق، أحسسنا وكأن نظرة طفولة المؤلف تخترقنا بكل ماتحمله من انطباعات، تنصب في أنفسنا من النور ومن الظلمات الروحانية، ويكفي أن يكون للطفل احساس مرهفا، فيضخم كآبة صغيرة، أو تلذذا بسيطا ليثبت هذا وذاك، فيسجلان في ذاكرته الحسية ويخرجان في صورة كاملة ناضجة" (2) وما النبوغ عنده " الا طفولة معبر عنها بوضوح وجلاء•••" (3)

---

1 - ينظر• G.Bouthoul . Les Mentalités . 23 . 29 .

2 - ينظر• François Porché . 20 :

3- ينظر• نفسه •

ويرى ماكس ميلنير، بأن الانسان يصبح عندما يكبر " ذاكرة كبرى " تحتفظ بالأحداث الهامة، بالنسبة له، من كل المراحل التي اجتازها في حياته، فاذا كان فنانا برزت في انتاجه مدعمة وملونة، وقد امتزجت حياة بودلير بفنه وأثرت فيه أكثر من غيره (1) بحيث يرى أغلب دارسيه عدم امكان الفصل بينهما .

لقد نالت العلاقة بين تجربة بودلير الحياتية وتجربته الفنية أهمية كبرى في مجال الدراسات المختلفة لشعره، كما لوحظ أن أهم وأخطر حدث في حياته، أقام عليه عالمه الشعري، هو زواج أمه، فكان المصدر الأول لاحساسه القوي بالوحدة والعزلة والتشرد المسيطر على انتاجه الفني .(2) ويرى روبير بوتوا شيريكس أن العراقيل والصعوبات التي اعترضته في حياته كانت مصدرا للاحساس المأساوي بنفسه (3)؛ فكلهم يرون بأن أحداث حياته كانت مصدرا ومنطلقا لاحساسات مختلفة لونت شعره، دون أن يذهبوا الى أن شعره تأريخ لحياته كما لاحظ جورج غريب على شعر الياس قائلا :
" ... أنا لا أعرف شاعرا التقى عيشه وشعره على الرقاع كما التقى عيش أبو شبكة وشعره، من هنا كان سر اعجابه بولي الدين يكن الأديب الذي جعل أدبه تأريخا لحياته ... " (4)
فان كان هذا القول يصح على انتاج الياس كله، فهو لا يصح على "أفاعي الفردوس" . ألم يقل الياس نفسه : " ان العالم مليء بالبلهاء والحمقى اللئام الذين لا يرون في الفن والأدب الا صورة تمثل أخلاقهم الدنيئة، وسحنتهم البشعة الممسوخة! اني لأسخر

1- ينظر . Max Miluer . 206 . 210 .
2- ينظر . نفسه . 134 .
3- ينظر . 63 . R.B . Chérix
4- جورج غريب . الياس دراسات وذكريات . 96 و 97 .

من جميع هؤلاء ، وأحتقرهم وان يكن الحظ قد وضعهم على قمّة المجد الزمني ، واني لأعف أن أرفس برجلي التي وطئت بلاط الأولمب هؤلاء الجهلة المدّعين ... أما آراؤهم وحججهم التي يحترمها الآخرون محاباة لهم وتدليسا فأهزأ بها كما أهزأ بمحفظة البخيل وبحذائي القديم ! " (1)

صحيح أن "أفاعي الفردوس" اعتراف ، واعتراف جريء ، الا أنه بعيد عن أن يكون اعترافا لصاحبه الياس وحده - في رأينا - بل هو اعتراف " الانسان " بصفة عامّة ، وما كان طموح الياس في " أفاعيه " أن يقف عند غاية طرح أحاسيسه ، التي في أكثرها شيطانية ، وعواطفه المتصارعة في السوق الأدبية ، أو المعرض الأدبي ، وما كان يجرؤ على ذلك لو عرفها خاصة به وحده ، أو حتى خاصّة بالقلة من الناس ! ، ألم يقل في كتابه " روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة " بأن الشاعر " ... هو ملتقى منازع البشر والوتر الأعظم الذي تنقر عليه أحاسيس الناس ومطامحهم "!؟ .(2)

وصحيح أيضا ، ما يراه ماكس ميلنير ، من أن ادراك النص الأدبي القائم على التجربة الحياتية والتجربة الأدبية يكون أهون اذا بحثنا في ردود الأفعال الصادرة عن طبع صاحبه ومزاجه ، وفي ثقافته ، وفي الضغوط الاجتماعية وفي أحداث حياته الخاصّة ، لكن هذا لا يعني أن معرفة هذه الجوانب تكفي وحدها لشرح العمل الفني والكشف على أسراره ، لكنها تبقى المكونات أو الأدوات التي يقيم بها الفنان لغته الخاصّة .(3)

---

1 - م . مؤلفين . دراسات وذكريات . 12 و 13 .

2- ص . 164 .

3- ينظر . 134 . Max Miluer.

وبالتالي نقول أنّه اذا كان لحياة بودلير ، ومن بعده اليا س، أثر في انتاجهما الفني ، فهذا لا يعني أنّ فنهما كان تأريخا لحياتهما ، يرى اللويد جو. بأنّ " أزهار الشر " حصيلة اجتماع احساسين رقيقين لدى الشاعر : الأوّل قلبي ، والثاني خيالي ، ويرى بأنّ الأوّل يبقى فعله سلبي في عملية الخلق الابداعي ، والثاني نشيط * (1) فان كانت أحداث حياة بودلير بذرة في عملية الخلق الابداعي فشعره شجرة من هذه البذرة ، لكن لا تشبهها في شيء ، لقد انطلق في شعره من ذاته وتعدّاها ، بل لقد كسّر حدودها وبلغ الشمولية، بلغ محيط الانسانية ، أو كما قال صلاح لبكي عن الشعر المهجري أنّه انساني تعدّى حدود الوجدانية ليتصل بالشعور البشري العام (2). وبهذا الصدد يقول جان كاسو عن بودلير : انّه " .. يضع بين أيدينا حالة خاصة سرعان ما تتخلّص من خاصّيتها و تصبح عامّة ، حالة الكائن المطلق ، الكائن الانساني ، فمن خوف جب منبوذ ومحتقر، وشخص مجروح العواطف ، وطفل معذّب من طرف أمّه ، مسكين ملعون من طرف المجتمع ، مريض ، حالم ، يصنع الخوف والذعر ، وعلى تصوّره يبني العالم " . (3) *

1- ينظر . Lloyd J.A . L'univers Poétique de Baudelaire . 42

+ ولقد لاحظنا شبها بين هذا القول وما جاء عند ايليا الحاوي في كتابه " الياس أ. ش." ج 2 . 103 : " ... هنا الذاتية وليدة الانفعال ، غير خالقة والموضوعية قد سفحت ذاتها بالفكرة العامة وهي أعظم آناتها ... "

2- ينظر ، التيارات الأدبية الحديثة في لبنان (لبنان الشاعر) 143. .

3- (Jean Cassou). Préface de: Baudelaire et l'experience du gouffre . Benjamin Fondane.

* ولكأننا بإليا الحاوي (في كتابه المذكور أعلاه بنفس الصفحة) يطبّق هذا القول نفسه على الياس حيث يقول : " والشعر ينطلق أبدا من الوجدان الفردي من فاجعة في وجدان الشاعر ذاته ، فاذا تمادى وأوغل ، تلمس حقائق الوجدان العام وحلّ فيها ، مؤلفا الذاتية والموضوعية ، مستمدا من الأولى =

ونجد بنجمان فونــدان ، يقارن بين طريقـة هوغـو V.Hugo وطريقــة بودليـر في كتابـة الشعر ، ويقول : اذا كان هو غـو ينطلق من معرفـة عامـة وبودليـر من معرفـة فرديـة ، فهو غـو يفتـرض حقيقـة عامّـة ويخصّـصها لشخصـه ، أما بودليـر فيفعل عكـس ذلك تماما ، انّه يعـمّـم تجربـة شخصيـة ، انّه يفـرض ولا يفتـرض • ومن تجربتـه اغـراء وفتنـة الشـر له ، والرغبـة في تعذيب النفس واغتصابها وكشـف أغـوارها • (1)

ولقد أجهد بودليـر نفسـه في الحفاظ على " الكليـات " الساميـة خـلال كتابـه (2) ، وفي هذا المضمـار يقـول بودليـر نفســه في " يومياتـه الحميمـة " : " هناك أوقات من الوجود يكون فيها الزمـان والمكـان أكثـر عمقـا ، والاحساس بالوجود ضخمـا جـدا ••• ، (وأن) ،بعض الحالات النفسية تكاد تكون خارقـة للطبيعـة يظهر عمـق الحياة بكاملـه في مشهـد واحـد ، مهما كان عاديـا ، تقـع عليـه أعيننـا ، فيصبـح رمـزا لهذا العمـق •••" (3)

ونـفس الفكـرة تقـريبا وجدناها عنـد الياس يقـول في قصيـدة :

رّب جـرح قد صـار ينبوع شعـر   تلتقـي عنـده النفـوس الظوامـي
وزفيـر أمسـ اذا قدّسته الروحـ   ضـربـا من أقـدس الأنغـام
وعـذاب قد فـاح منـه بخـور   خالـد في مجامـر الأحـلام ••

= الصـدق والاخلاص والانفعال ومن الثانية الرصيد الانساني الجدي الدّائم ، فلا يستحيـل الى تـرهـات وأضاليـل •" •

1ـ ينظر • Benjamin Fondane . 162 - 163 .

2ـ ينظـر A . Adam . les fleurs du mal . VI, et,R.B. Chérix.XIII•

3ـ ينظـر • Oeuvres Complètes . Journal intime . 23 .24

فما يمكننا استنتاجه مما تقدم هو أن شعر بودلير ، ومثله الياس في " أفاعي الفردوس " ـ لم يكن مجرد ترجمة ذاتية ، وما كان ذلك بغية صاحب " أزهار الشر " ولا صاحب " أفاعي الفردوس " ، لكن هذا لا يسمح لنا بتفي وجود أثر حياتهما في شعرهما ، كما يجزم ذلك الدكتور عبد الغفار مكاوي على بودلير ـ في جزء من قوله ـ : "... ولذلك فلا بد من القول بأن بودلير أول شاعر حديث تنفصل حياته عن أدبه ... والكلمة الشعرية لديه لم تعد تصدر عن وحدة تجمع بين الشعر والشاعر الحي" كما حاول الرومانتيكيون ذلك وحققوه الى حد كبير ..." (1) ، ولو أن الكاتب استدرك وقال في نفس المكان : "... ومع ذلك فلا يجب أن تفهم من هذا أن بودلير يلغي "الأنا" أو " الذات " لأن قصائد (زهور الشر) تكاد كلها تتحدث عن "الأنا" وتعبر عنها ... انه يعبر عن نفسه من حيث هو انسان يتعذب بروح العصر الحديث ، ويعاني آلامه ومن حيث هو شاعر يدرك هذه الحقيقة ويعيها تمام الوعي ..." (2) .

لقد أراد بودلير أن يقدم للمرء ، من خلال تجربته الخاصة ، وصفا دقيقا للمأساة التي تعيشها الانسانية في الحياة من جراء عواطفها واحساساتها المتناقضة التي لم يبلغ العلم بعد استكناه حقيقتها وبواعثها ومصدرها . (3)

فاذا كان بودلير نفسه يقدم ديوانه " أزهار الشر " على أنه بعيد كل البعد عن تجربته الشخصية (4) ، فذلك من اقتناعه بأن مهمته

---

1 ـ ثورة الشعر الحديث من بودلير الى العصر الحاضر . 64 .

2 ـ نفسه . 65 .

3ـ ينظر . مصطفى القصري . 29 ـ 30 .

4ـ ينظر . 237 . François Porché .

كشاعر ،ووظيفة شعره أسمى من أن تحصر في اطار الذاتية والوجدان . وفي حلقة الوضعية الانسانية يلتقي بودلير مع الكثيرين من الشعراء ، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم واعتقاداتهم ، وذلك بخروجه من الذاتية الى الشمولية ،أو بتعبير آخر ،بتطوّره من ذاته الى " الذات الانسانية " وهذا ما جعل أثر شعره يخرج من وطنه ويتعدّى حدوده ، ويخترق من غير موعد الأوطان ، والنفوس الرّقيقة أينما كانت ، و " ... الحياة لا جنسية لها ، و لا أوضاع ولا حدود وهي أوسع من أن تضع لها حدودا ومقاييس والدائرة غير المحدودة لاتنحصر في الحدقة الضيقة ." كما قال الياس نفسه .(1) فيصبح شعر بودلير عالميا وخالدا ،ينتصر على الحدود الجغرافية وعلى الزمن ، بفضل مهارة صاحبه في اختيار منابع فنه ، من مواضيع حساسة ومضامين غنية ، يغنى الانسان وهي لاتفنى ، وفي توظيف احساسه المرهف خاصّة وخياله الخصب ، وفي استغلال السؤال العظيم الذي يطرحه الانسان بطرق مختلفة حول وجوده وقدره وحياته .

---

1 ـ أفاعي الفردوس " من المقدمة . 5 .

الفصل الثالث

لقد كان منهج بودلير الشعري " الخاص" ذا أهمية كبيرة بالنسبة لطموح الياس أبو شبكة ، وبالنسبة لما كان يختلج في نفسه، فكان متنفسا تنفس فيهما ، وقد رأينا في الفصل السابق ما كان من تشابه بين ظروف حياتي الشاعرين : الأسرية والاجتماعية الروحية والمادية،هيأت الأسباب لتأثر الياس في " أفاعيه " ب" أزهار الشر" ، ثم هذه الظروف المتشابهة هي التي أهلت كلا منهما للاهتمام بهذا الجانب من الحياة دون غيره .

لقد لمسنا أثرا قويا ل" أزهار الشر" في " أفاعي الفردوس" هذا الديوان الذي قام شعره على الصراع بين تطلع الشاعر الى المثال من جهة ، واحساس عميق بالسقوط من جهة أخرى، واصطدام المثال، في نفسه ، بواقع مخيب للأمل تعارضه به الحياة .. فوجد هذا الصراع والاحتدام بقوة متفاوتة ، في ستة أقسام معنونة في الديوان :

فالقسم الأول ، وهو الأكبر ، جاء تحت هذا العنوان :"السأم والمثال " (Spleen et Idéal) ، وقد خصص هذا القسم للتعبير عن الصراع الذي قام عليه الديوان ، ويعتبر هو الأساس في"أزهار الشر " ،يحتوي المعنى العام الذي أراده بودلير لديوانه ،والذي كرس له حياته كاملة ، وبه اكتسب شعره ميزته الخاصة .

ويلي " السأم والمثال " القسم الثاني ، " المناظر الباريزية" (Tableaux Parisiens) .

ثم القسم الثالث : " الخمر" (Le Vin) ،وبهذين القسمين نجد محاولة الشاعر الترفيه عن نفسه و الابتعاد عن التراجيدية الانسانية القائمة في قلب الديوان والناتجة عن الصراع القائم بين السأم والمثال .

ويلي هذين القسمين قسم رابع ، ينتصر فيه الشر المتمكن من نفس الانسان وهو " أزهار الشر " (Les Fleurs du Mal) ، هذا الشر الذي يتضخم ويثقل على الشاعر ، ويدفع به الى " الثورة " (La Révolte) التي تحتل القسم الخامس .
ثم بعد تمرّد على الحياة ، وتعب من الشقاء ، نجده يجرّب المجهول الذي هو " الموت " (La Mort) الذي تكفّل به القسم السادس والأخير . وهذا هو التصميم (1) الذي نظم فيه بودلير شعره في الطبعة الثانية والنهائية سنة 1861 .

واذا كان القسم المهم في " أزهار الشر " الذي هو " السأم والمثال " يعالج انفصام الرّوح بين قطبي الخير والشر ، والتمزّق ، الذي يعانيهما الشاعر بين الواقع المؤلم الذي لا يطاق ، والمثال المتعذّر اللحاق به (2) . ففي " أغاني الفردوس " نجده يحتل نفس المرتبة ، مرتبة الصدارة والأهمية . وبهذا القسم تأثر الياس في " أغانيه " ـ ولا نعني ، بهذا ، أن هذا القسم مستقل لا يمت بصلة للأقسام الأخرى من الديوان ، فـ " أزهار الشر " يتميز بوحدة نفسية تآزرت أقسامه كلها لتحقيقها ـ . لقد استغل الياس اصطدام هذين العالمين لدى بودلير في " أزهار الشر " عالم المثل وعالم الواقع ، لينسج شعره الذي تتخلله خيوط من ألوان متناقضة متنافرة لكنها متلازمة ، تهدف الى خدمة صراع قائم بين قوتين متناقضتين متنافرتين ومتساويتين ، هما الخير والشر .

---

1 ـ ينظر . 53 . Aguettant Louis

2ـ ينظر . 112 . Max Miluer.

ولقد أعلن الياس عن ذلك الصراع والتناقض، متأثرا بـ "أزهار الشر" منذ العنوان الذي أراده لديوانه، - ولسنا مقتنعين بأن الياس لم يختره هو نفسه، عنوانه (1)، كما لم تقتنع بما قيل عن ديوان بودلير من قبل (2)، بما يقارب ما قيل عن ديوان الياس، لأنه ما كان، في نظرنا، عنوان آخر ليصدق على محتوى كل من الديوانين مثل عنوانيهما: "أزهار الشر" و "أفاعي الفردوس"، ويكفي أن نذكر مثل هذا البيت من قصيدة الياس "الطرح" لنعرف أن العنوان مستوحى من الديوان:

ورأيت الفردوس لفت أفاعيه غصوني وكمشت أوراقي(3)

ومهما يكن من أمر، فإننا نقول لا سعادة يذهب الى أن الياس أبو شبكة تأثر بعنوان "أزهار الشر": "هذا العنوان أتى "مرتين، عفوا أم عمدا، تحت قلم أبي شبكة في ديوان "أفاعي الفردوس"، "يقول أبو شبكة في قصيدة "الأفعى":

لقد أيبس التفكير أزهار عهرها

" ويقول في قصيدة أخرى: معرّف الشهوة السفلى بأزهار (الدينونة) "أن الأزهار في الشاهد الأول تقترن "بالعهر"، وهي تقترن في الشاهد الثاني بالشهوة السفلى ... وفي هذا تسلط واضح لعنوان الديوان البودليري على ذهن أبي شبكة.
ومظهر آخر لهذا التسلط اختيار عنوان "أفاعي الفردوس" نفسه".

---

1 - ينظر . رزوق . ف . ر . 201 .
و ينظر . م . مؤلفين . دراسات وذكريات . 169 .
2- ينظر . 222 . François Porché.
3- "أفاعي الفردوس" . 61 .

أن هذا العنوان يتكون من لفظين ينفر معنى أحدهما من معنى الآخر تماما كما في " أزهار الشر" • (1)

أن عنوان " أفاعي الفردوس" عنوان غريب بالفعل لكنه، كما بدا لنا، عنوان جاء نتيجة حتمية تناسب معنى الديوان ، وحصيلة لعالمين متناقضين في قلب الديوان ، ومعنى هذا أن العنوان أعمق من عملية جمع بين نقيضين ، أو لفظين متنافرين من حيث معناهما!! ومما يجدر بنا معرفته ههنا هو أن الياس لم ينهج منهج بودلير الشعري ، بطريقة عشوائية أو لا واعية ، بل كان تأثره في "أفاعي الفردوس" بـ " أزهار الشر" عن دراية ووعي بمفهوم بودلير للحياة ، الذي عليه ارتكز معنى الديوان ، ومن هنا تهيأ له أن يخرج بفهم صحيح ، أو أمين ، فكان في تأثره " بأزهار الشر" مقتنعا متحمسا بمعانيه الأساسية وبفلسفته في الحياة •

وكان للمعنى المحوري في " أزهار الشر " صدى قوي في نفس الياس، فعبر عن ذلك ابتداء من العنوان : " أفاعي الفردوس" ، وكأننا بالياس يأخذ عنوانه هذا جاهزا ، تقريبا ، من قصيدة لبودلير وهي " الصوت " (La Voix) ،هذه القصيدة التي تفسر" السأم والمثال " البودليري المعروف ، والتي تعتبر أهم القصائد الحاملة لمعنى الديوان ،وفيها يعلن بودلير عن حالته النفسية التي كانت أساس عالمه الشعري ، هذه الحالة هي : روح ممزقة يتجاذبها احساسان قويان ؛ احساس الشاعر بصوتين يناديانه ، داخل نفسه، ويتجاذبانه منذ طفولته : يدعوه الصوت الأول الى التمتع بالدنيا ، وما على الأرض من ملاذ ومغريات ، والآخر يدعوه الى السمو

1 ـ نقولا سعادة • قضايا أدبية • 132• 133 •

والتعالي والسفر الى عالم الأحلام ، الى مافوق السكن ،الى المجهول ...

فيستجيب المنادي للصوت الثاني ، بنية الانقطاع عن سماع الصوت الأول ، ولكن بدون جدوى ،اذ هو لم ينجح في التخلص من الرغبة في التمتع بملاذ الدنيا ، فيقول للصوت الثاني الذي استجاب لندائه :

أجيبك : " نعم أيها الصوت العذب" ومن هنا
كانت بداية ، ما يمكن تسميته ، للأسف ! جرحي
وتكبتي ، فمن وراء مظاهر
الكون الفسيح (اني أغوص) الى أعمق الهاوية (بنظري)
فأرى بجلاء عوالم غريبة ،
وكضحية ، لبعد نظري الذهولي هذا ،
اني أجر أفاعي تلدغ حذائي ... (1)

فهذا الشطط ،وهذه الثنائية الفكرية بالذات ، والوعي الحاد الذي جعل من بودلير ضحية ،هوأساس ديوانه ، وتناوب هذه المتطلبات أو الرغبات المتناقضة هي من خصوصيات شعره ، بل يعتدّ دارسو شعره هذه الظاهرة من اكتشافه (2) ،كما يعتقدون أن هذه الثنائية الفكرية القائمة على التقاء الخير والشر في الابداع ، وهذا الصراع الدائم بين قوتين ، ليست هي أساس الشعر البودليري فحسب بل هي بودلير نفسه . (3)

فنجد هذه الثنائية الفكرية نفسها ، يستخلصها الياس في "أفاعيه" ، ويعلن عنها ابتداء من العنوان ، ولعل ما يؤيد رأينا أن ننظر في تحليل

1ـ Les Fleurs du Mal . La Voix . 183

2ـ ينظر . Robert B. Ch. 440 .

3ـ ينظر . نفسه .

جورج غريب لنفسية الياس الشعرية ، في " أفاعي الفردوس "
وكأنه مستوحى من " أزهار الشر " بعامة ، وقصيدة " الصوت " (1)
منه بخاصة اذ يقول :
" كان أبو شبكة ، وهو في جحيم أفاعيه ، وسط معترك الفحيح
والسموم والتلوي ، تلتف عليه الأفاعي فتحبك المصارع في كل طيّة
أو التواء ، يلتفت من وراء آناقه المشتعلة الى نعيم نداء القلب
وغلواء والى الأبد ،فينقلب ، في قلبه ، جحيمه جنّة (...)
عجيب احساس هذا الشاعر : قدماه في جحيم وعيناه على نعيم،
نصفه في نار ،ونصفه في جنة ، يغمس الريشة في لهيب ثم يغمسها
في ندى ، فيمين في سعير،وشمال في صقيع تلاقى الكفر والايمان
في فكره ، فاطمأن الواحد الى الآخر ،وتلاقى العهر والطهر في قلبه
فتجاورا على وفاق ." (2)

واذا كان الكاتب قد وفّق في الشطر الأوّل من تحليله لنفسية
صاحب " أفاعي الفردوس" الشعرية ، حيث يثبت الصراع والمعترك،
فهو لم يوفق ، في نظرنا ، في الشطر الثاني الذي يرى فيه بأنّ
المتناقضات تجتمع في نفس الشاعر في وفاق واطمئنان ، وكأننا بالشطرين
من قوله يتنافيان ويتناقضان .
ف " أفاعي الفردوس" يعبر بكامله عن صراع محتدم لا يعرف الهدوء ،
وتمزّق نفسي ، وانفصام بين عالم المثل والأخلاق ، وعالم المادة
والشهوات ، والياس فيه ، مثل بودلير، متردّد بين ندائين مزعجين
الأوّل من الواقع الفظ ، والثاني من الالهام المثالي ومن مصدر
نوراني .(3) .

1ـ " أزهار الشر" . 183 . (La VOIX)

2ـ جورج غريب . دراسات وذكريات . 81 .

3ـ ينظر . 68 . R. B. Chérix .

وهذه قصيدة الياس " القاذورة " (1) ، ونحن نقرأها تحسّ بجو قصيدة بودلير " الصوت " يغمرنا ، يقول :

حلمت بدنيا - ليتها لا تبدّد لذائذ احلامي ولا كان لي غد إ-
أضن بانشادي على الناس سحرها وهل في الورى أذن اذا قمت انشد
وأوقظت مذ عورا الى شر هاجس كأني روح ، في جثام ، مشرّد
- تفيق من الحلم الشهي الورى : كوابيس في يقظاتنا تتسرد -
فألفيت دنيا من فواجعها الورى على بابها لوح من الرق أسود
قرأت عليها احرفا خطها اللظى يروعك منها اثنان : "سجن مؤبد"
فطوّفت في غمر من الليل والخنا يعربد والارجاس ترغي وتزبد
وللحمأ الغالي تشيش و رغوة كأن الورى مستنقع يتنهد
وأغمدت في صلب الدجنّة ناظري وفي كل جفن لي من الهدب مبرد
فأبصرت اطياقا تعمّدها يد : أصابع من عظم ، وتصبغها يد
صباغ يغور الخزي منه ملاصقا اذا علقت فيها النواظر تجمد
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى تموربها الديدان سكرى تعربد

فالياس تماما مثل بودلير ، أحبّ عالم الحلم ، عالم المثل ، ولكنه لم يقدر على الانفكاك من الواقع الأليم ، انهما أسيران الى الابد ، في هوة بين الحلم والواقع ، وأسيرا رؤيتهما الجلية للعالمين ، وهذا هو مصدر الألم البودليري الذي تبناه الياس في " أغاعيه ".
وهذه العوالم الغريبة التي يراها بودلير ، في قصيدته " الصوت " ، بجلاء ، وينفذ لها ببصره من خلال المشاهد البشعة ، الى أعماق الوجود ، هي نفسها التي يعرضها علينا الياس ههنا في القاذورة " بتفصيل فلا الواقع يجرها و يغمرها ويحميهما من المثال ، ولا الحلم يتشلهما ويخلّصهما

---

1 - "أفاعي الفردوس" 26 .

من الواقع " فالافاعي تلدغ حذاء " بودلير لا قدميه ! فالسم لا يصل الى أعماق روحه ، كذلك اليأس :

كذلك يبقى في دجى النفس ثابتا جمال له في قبة النفس فرقد . (1)

لقد ظل هذا التمزق والانفصام الرّوحي خاصية من خصوصيات بودلير وشعره (2) ولقد شبهت حالته النفسية بمبارزة أو صراع قائم بين فريقين متعاديين من الجلادين من جنس مختلف : ملائكة من الجنة ، وجنّ من جهنم ، والمعذَّب ، بودلير ، فريسة دامية بينهما وكلّ فريق مصمّم على تمزيق الضحية بدلا من تركها لخصمه ... (3)

ويرى سارتر ، الانسان البودليري ممزّقا بين قوتين متناقضتين تهدف كلّ واحدة منهما الى تحطيمه ... لأنّ الواحدة تهدف الى تحطيم الملاك والأخرى الحيوان ، وهو ملاك وحيوان في آن واحد ... (4) .

هذه هي الفسحة ، فسحة الصراع والتمزّق والانشعاب التي اختارها بودلير لبناء صرح شعره . ولقد عبّر خلال ديوانه ، كاملا ، عن هذا الاحساس المخيف الذي استولى عليه منذ صباه : احساسه بالتفكّك الموجود بكيانه ، الناتج عمّا يعيشه ويحسه ويراه من تناقض بين الحلم والواقع ، الجسد والرّوح ، الواجب والشهوة ، النية والفعل ، التشبث بالحياة والنزوع الى العدم ، نداء الاله واغراء الشيطان ... (5)

---

1 ـ " أفاعي الفردوس " . 27 .

2 ـ ينظر . 304 . François Porché.

3 ـ ينظر . نفسه . 191 .

4 ـ ينظر . Jean Paul Sartre. 45.

5 ـ ينظر . 67 . R. B. Chérix.

فمن هذه الفسحة انبعثت أصداء وأحاطت بـ "أغاني الفردوس"، فعاش الياس في "أغانيه" في فسحة يحدّها طرفان : الأوّل البراءة وتتمثل في الطفولة والحلم والطهر، والثاني العالم، أي الواقع أو الدنيا، وفي الطرف الثاني يكمن الشر." (1)

لقد أراد الياس أن يكون "بودليرلبنان" فيجعل من نفسه، مثل بودلير، ضحية وعيه الحاد بالمأساة الانسانية، وعلى شاكلته يقيم شعره على "بركان" من نار اشتعلت لالتقاء نقيضين، من "شرّ وحكمة، ومن نور وظلمة"، اذ يقول في قصيدته : شمسون " (2) :

محق الله في شر ظلامي فلتضئ في الحياة حكمة نوري

فالانسان خلق ليكون محلّ تناقض، تلقض، وصراع لا قدرة للانسان على اصلاحهما، هذا هو اعتقاد بودلير ومفهومه للوجود الانساني، فنجده تحت تأثير "الخطأ الأصلي" ومع نوع من المبالغة والاسراف يفسّر هذه الثنائية : بأنها ثورة بني آدم المتمثلة في اتجاههم المضاد والمعاكس للارادة الالهية، نحو رغبة مكوّنة من رغبتين متناقضتين : رغبة في تذوّق السعادة المطلقة التي هي من ملك الاله، ورغبة في الفوز في الوقت نفسه، بمتاع الدنيا الزّائل، والسعادة الفورية على الأرض. (3) يقول في قصيدته "الطارئ" (L'imprévu)، على لسان الشيطان الذي يخاطب "عباده" الشريرين، في احتقار واستهزاء :

ثم يظهر شخص، قد أنكره الجميع،
يقول لهم ضاحكا فخورا : "لقد شاركتم، حسب اعتقادي بما فيه الكفاية
في الصّلاة السّارة السوداء ؟

1- أدونيس علي أحمد سعيد . مقدمة للشعر العربي . 88 .

2- " أغاني الفردوس " . 25 .

3- ينظر . 67 . 66 . R.B. Chérix

وكلّ واحـد منكم صنع لي معبـدا في فـؤاده ،
وقد قبّلتـم عجيزتي القذ رة في سـرّ !
فتعرّفـوا على الشيطان بقهقهتـه المنتصـرة ،
انّه ضخـم وبشـع مثل العالـم !

وهل استطعتم،اذن، أيها المنافقـون المفاجأون ،
الاعتقاد بأنه يمكن السّخرية من المولى والغش والاحتيال معه ،
وبأن الفـوز ، بجائزتيـن أمـر طبيعـي
(أي) الذهاب الى الجنـة والغنـى ؟ (1)

ولهذا نجده يحكم أنه " لكلّ انسان ، وفي كلّ وقت ، التماسان متزامنان، واحد للا لـه والآخر للشيطـان . فالتمسك بحبل الالـه رغبـة في الصعود والتفـوّق ، والتمسـك بحبـل الشيطـان ، أو الحيوانيـة هي سعادة السقـوط " (2) ، كما نجده يكشف في " طانها و زيـر" (Tannhaüser) لريشارفاغنيـر (Richard Wagner) ،بصورة مبالـغ فيها ،هدفها محاولـة فهم مقـاصـد المؤلـف : أن الصـراع القائم بين المبدئين اختـار القلـب الانسانـي كساحـة للحرب ، حرب الغرائـز الجنسيـة مع الـروح ،وحرب جهنـم مع الجنـة ، وحـرب الشيطـان مع الالـه .(3)
ويشهد الياس، بتأثـرلن بودليـر ،على وجود الاحساسيـن في نفـس الانسان ،يقول في قصيدته " القاذورة " (4)

يحـس فراديس الحياة بـروحـه وليس يرى الاّجحيما يهـدّد

---

1 _ Les Fleurs du Mal . 195 .

2 _ Oeuvres Complètes (Mon cœur mis à nu)XIX

3 _ Max Milner .125 .(Revue Européenne,9Janvier1859, P.L 656)

4 _ " أغاني الفردوس " . 27 .

كما نجده يتساءل ، في حيرة تنطوي على شكوى العاجز وأسى الضعيف، في قصيدته " الطرح " (1)

لذة الاثم كيف تمقتها النفس ويحلو عصيرها في المذاق ؟
كم فتى يسعر الجحيم بعينيه وفي القلب للسماء مراق

وهذا يشبه قول بودلير في قصيدته " الى القارئ " (AU Lecteur)

اننا نجد فيما تشمئز منه النفس مغريات (2) .

وهكذا صلب الياس في " أفاعي الفردوس " ، مثل بودلير ، بين السأم والمثال ، وعانى هذه التجربة ، تجربة التمزّق والانفصام ، التي تنبّه لها أغلب دارسيه ، وذلك ماتبين لنا وما استنتجناه من العناوين التي وضعها كلّ منهم لدراسته ، أو من تعابير داخل الدراسة تعلن عن الشق في النفس ، ونذكر ، على سبيل المثال وصف عيسى الناعوري ، في كتابه " أدباء من الشرق والغرب " ، الديوان بأنه : " فاجر وروحاني معا " (3)
ورأى غيره في الياس أبو شبكة " الانسان المشق على ذاته المشبوح اليدين على صليب النور والظلمة والأمل واليأس ، والعفة والدنس ، والكرامة والهوان " . (4)
كما وضع اليا الحاوي العنوان التالي لدراسته لشعر الياس " الياس أبو شبكة شاعر الجحيم والنعيم " ، وعنون دارس آخر دراسته ب " الياس أبو شبكة بين نداء الذكرى وجاذبية الهاوية " (5) ،

1 - أفاعي الفردوس " . 27 .
2 - " أزهار الشر " ترجمة مصطفى القصري . 37 .
3 - 132 .
4 - اليا الحاوي . 73 .
5 - الأديب . ج 3 . 9 . 1953 . بقلم علي سعد .

واختار دارس آخر لدراسته عنوان : " أفاعي الفردوس " بين الشهوة الصاخبة والعفّة التائية " (1)

وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات التي تناولت " أزهار الشر " ، فقد عنونت ، في أغلبها بعناوين تنمّ عن التناقض والصراع القائم في الديوان ، ونذكر منها ، على سبيل المثال : " بودلير الملاك والحيوان " (2) ، " بودلير بين الاله والشيطان " (3) ، " بودلير، المرأة والاله " (4) ، " بودلير جهنم أو جنة " ، (5) ، " شقاء وجمال " (6) ... الى آخر ذلك ... وهذا ما يدلّ على ما في الديوانين من تشابه بين العناصر المسيطرة على الشاعرين في شعرهما، هذه العناصر المتناقضة والمتصارعة ، وهذا ما كان يهدف له اليأس في " أفاعي الفردوس " وما كان يودّ أن يفهمه منه ويتوصل اليه دارسو شعره ، ولقد استنتجنا ذلك من دفاعه عن نفسه ـ بوجه من أساء فهم " أفاعي الفردوس " من النقاد عند ظهوره ، فاتّهم صاحبه بالكفر والسفالة والحيوانية (7) ـ حيث يقول : "... قال المرحوم فليكس فارس ، في محاضرة عن " أفاعي الفردوس " ألقاها في الاسكندرية ونشرها في مجلة " الرسالة " المصرية : " انّ أباشبكة لا يهمّه في فنه الا أن يصوّر لك منعكسات الكون على نفسه، ونفسه تتنازعها خلجات قلبه وخاطرات دماغه فهو يحس بأنّ الحياة المضللة قد أفسدت الانسان ، ويشعر أنّ في الانسان نسمة

---

1 ـ المشرق ، ج 4 ، 509 ، 1938 .

2 – Huxley Aldous . Baudelaire L'ange et la Bête .

3 – Jean Massin . Baudelaire entre dieu et Satan .

4 – Pierre Emmanuel .Baudelaire La Femme et Dieu .

5 – Max Milner . Baudelaire Enfer ou Ciel.

6 – Noël Tacouet . Baudelaire Misère et Beauté .

7 ـ ينظر ، المكشوف ، ع211 ، 3 ، 1939 .

تتلململ فيما حبكت الأجيال حولها من قيود ، فيصوّر لك هذا العراك العنيف بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ..." (1) .
وفي نفس المكان يرحب بفهم الأستاذ حسن كامل الصيرفي لديوانه بأنه : " يعبّر عن الثورة في النفس بين عوالم الخير والشر ..."(2)

وفي اطمئنان الياس الى فهم هؤلاء لمضمون ديوانه، كما رأينا هنا ، اثبات لهذه الثنائية الرّوحية التي أقام عليها شعره في " الأفاعي" عن وعي وقصد ، - في نظرنا - تابعا لا مبدعا .
على أنّ هناك من استغرب وجود هذه الثنائية وهذا الانشعاب عند الياس ، مثل مارون عبود (3) الذي قال : " أمّا في قصيدة " في هيكل الشهوات " فتهدأ ثورة الشاعر التي لم أشهد مثلها في تاريخ أدبنا ، ويدهشني قوله بعدما أقام الدنيا وأقعدها :

لي مهجة كدموع الفجر صافية تقاربي والتقى أم لها وأب
فكيف اختلس الحق الذي اختلسوا وكيف اذأب عن لؤمٍ كما ذئبوا ؟ " (4)

فلدهشة مارون عبود هذه التي تحمل سؤالا في ثناياها ، جواب في قول الياس نفسه :
" ... ولنفرض أنّ الشاعر جاء في قطعة واحدة أو في قطعتين بصورة متناقضة عن نفسه ، فهل في ذلك دليل على أنّه لم يصدق ولم يعرب عن شعوره الصحيح أليست الحياة مزيجا من المتناقضات من الألم واللذة والحب والبغض، والصفح والانتقام ، والانغماس في الشهوة والترفع عنها فلم لا يكون الشاعر كذلك ؟ " (5) ، ونلاحظ

1- ينظر المكشوف . ع211 . 2 . 1939 .
2- نفسه .
3- مجددون ومجترون . 107 .
4- " أفاعي الفردوس" ، " في هيكل الشهوات " . 33 .
5- الجمهور . ع98 . 12 . 1938 (نقلا عن رزوق ف.ر . 106)

هنا أن هذا المقال نشر في نفس السنة التي ظهر فيها " أفاعي الفردوس " ، مما جعله يحمل الأفكار والرؤية كما جاءتا في الديوان • وكأننا به يردد تعريف بودلير للفنان حيث يقول : بأن الفنان لا يحق له أن يكون فنانا الا اذا كان مزدوج الشخصية ، وبشرط الا يهمل أي ظاهرة من طبيعته الثنائية • (1)

ولقد احتفظ الياس ، مثل بودلير ، بهذا التناقض والانشعاب في الروح خلال كل الديوان ، فـ " ••• تلاقت في قلبه عاطفتان عنيفتان متلازمتان والى حد ما متناقضتان ، وهاتان العاطفتان هما العاطفة الدينية والعاطفة الجنسية " ، كما رأى ذلك ميخائيل نعيمة • (2)

وهكذا لم تخف ظاهرة التناقض ، البارزة في " أفاعي الفردوس " ، على جل دارسي شعر الياس ، فقال نقولا سعادة - الذي نسب هذه الظاهرة عند الياس في " أفاعيه " الى مثيلتها عند بودلير في " أزهار الشر " - : " التشابه بين بودلير وأبي شبكة واضح جلي على صعيد النزعات النفسية •••" (3)

ولم يتأثر أحد مثل بودلير ، بثنائية الطبيعة الانسانية ، فهو لم يرتض هذا الوضع قط ، ولم يحاول التلاؤم معه ، مثل غيره ،

---

1 - Baudelaire . Curiosités Esthétiques. 387 de CL; Richers.

2 - الغربال الجديد • المجلد 7 • 402 •

3 - قضايا أدبية • 137 •

فهلك في ألمه القاسي الناتج عن هذا الانفصام والصراع، وذلك لشدة ضحوة ضميره الذي لم يرحمه ولم يلن اطلاقا (1) ، ولذا نجد مظاهر العالم البودليري ، كلّها تعكس هذا النوع من الانفصام في الرّوح ، والانشعاب بين قطبين متناقضين هما "السأم والمثال" (2) ، مذهب الجمالية والميل الى المشاهد البشعة الخارقة ، الفينوس السوداء وربّة الفن ، وصف باريس والحنين الى الأوطان الغريبة ، عبادات وكفر ، جهنم وجنة ••• (3)

ومن هذه الأرضية انطلق الياس أبو شبكة ، ومن هذه الأجواء انبعثت " أفاعيه " تماما كما أراد لها صاحبها باعجاب واقتناع•

2 ـ أثر الدين في تفكير بودلير والياس :

و " السأم والمثال " البودليري هو الجدلية التي يقوم عليها الكون ، وعليه يقوم التوازن الذي هو الحياة ، حياة الانسان•وقد يجرّنا هذا الى قطبية الخير والشر بحياة الانسان • فمنذ وجد الانسان على هذه المعمورة ، ومنذ تكونت المجتمعات ، وجدت لكلّ مجتمع مجموعة معارف تجريبية واستنتاجية وجدلية وتأولية ، في نفس الوقت ، ناتجة عن نوعية نظرة هذا المجتمع للكون والكائنات والأشياء وأصولها ، والعلاقات القائمة بينهما ، وكلّ مجتمع يقدّم لاعضائه تفسيرا لهذا الوجود ، فيكون هذا التفسير ، في أغلب الأحيان ، أسطوريا له علاقة بالاعتقادات الدينية •(4)

---

1 ـ ينظر • Marcel . Ruff . 13.

2 ـ (Spleen et Idéeal)

3 ـ ينظر • R.B . Chérix. 67..

4 ـ ينظر • G. Bouthoul. 36.

واذا كان الخير والشر يتنازعان قلب الانسان ، فهذا ، كما يرى رجال الدين، من نتائج الخطأ الأصلي ، التي لم ينج منها أحد من بني آدم . لكن من المألوف أن يحتل كلّ من الجانبين أماكن متباينة ومتميزة (1) ، والأمثلة في هذا المجال عديدة ، والأدب العربي زاخر بها ، ويمكننا القول ، بصفة عامة ، أن كلّ المفكرين ، على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ، _ وتخصّ منهم الفنانين الذين يوسعهم التعبير عن تفكيرهم ومواقفهم بوضوح _ ، يصلون في طريق سعيهم وراء فهم الوجود الانساني ومعناه ، وفي وعيهم بأنفسهم ، الى مفترق طرق واتجاهات يحتم عليهم فيه الاختيار ، فيتضح ذلك من خلال سلوكهم في الحياة ، فيذهب كلّ مذهبه ويسلك مسلكه * وحسب ما جبلت به نفسه من ارادة وطموح وغرور وميل الى غير ذلك ممّا يكوّن شخصية الانسان. فنجد في الحياة من ينصرف عن متاع الدنيا ، ويزهد فيها وكأن عزلته هذه تحمل خوفا من نفسه واعترافا ضمنيا بوجود الشر فيها ، فيتسلح بارادة قوية لكبت جموحها ، ليعيش جانبا واحدا من نفسه ، وهو جانب الخير ، على حساب الجانب الثاني منها وهو الشر المكبوت فيها وذلك رغبة في ارضاء الارادة الالهية .

وهناك من فعل العكس تماما ، فهولم يقدر على الوقوف في وجه نفسه الأمارة بالسوء ، فانساق وراء غرائزه يروي عطشها ، مستسلما لا مقاوما ، ثائرا أحيانا على قدره ، وأخرى طامعا في غفران ربه ورحمته ... وكم منهم من اتبع

---

1 _ ينظر . 191 . François Porché.

* كما عبّر عن ذلك عمر الخيام في رباعياته . 90 . تعريب أحمد الصافي النجفي :

من نال ذرّة عقل عاد منتبها
فلم يضع من ثمين العمر لحظته
إمّا شقي رضاء اللّه مجتهدا
أو عب كأس الطلا واختار راحته

غنّى نفسه وأشبع مطالبها ثم عاد الى نقطة الانطلاق ، " خالي الوفاض " ليأخذ الطريق الناقض ، هؤلاء هم " المساكين " الذين يذكرهم الياس في قصيدته :الصلاة الحمراء " (1)

وما غرضنا من تصنيف هذه المواقف ، المواقف الانسانية تجاه المصير ، الا لفرز موقف بودلير ، الخاص به ، حتى يتسنّى لنا معرفة تأثر الياس في شعره ببودلير .
لأنّه على خلاف كل ما عرضناه من مواقف ، لا نجد من بينها موقف بودلير ، وذلك أننا لم نستطع تلمس موقف واضح عنده تجاه أحد هذين الحيّزين ، الخير والشر ، في شعره الصادر عن نفسه المكبلة بخيطيّ هذين الحيّزين المتلازمين في توازن ، فتجد جانب الخير في احساس بودلير وفي موقفه الشعري ، يحمل في ثناياه الشر ، وتجد الشر حاملا للخير ، وهذه حالة عرف بها بودلير في شعره دون غيره ، وهي حالة خاصة به (2) .
يقول في قصيدته " الصوت " (LA Voix):

ومنذ ذلك الحين تجدني
أحب بحنان وبهذا المقدار الصحراء والبحر
وأتطلع بأعيني الى السماء فأسقط في حفر
مثل الأنبياء . (3)

---

1 _ " أغاني الفردوس " 54 .

وحين أفقت من سكر الهوى خجلا بحثت عنك ، وكاد العار يخفيني
فلم تمل قلبك الرحمن عن ألمي وقلت : "تطلبني بين المساكين "

2 _ ينظر . François Porché . 191

3 _ Les Fleurs du Mal .La Voix . 183 .

وفي تلاطم بودلير ومثله الياس، في "أفاعيه" بين السأم والمثال بكل ما يحتويه كلّ قطب من أنواع الخير والشر، كثرت التساؤلات، عند دارسي شعرهما حول ايمانهما .

ويرجع ذلك اللبس في تحديد طريق بودلير، ومثله الياس في "أفاعي الفردوس" الى عدم وضوح موقفهما من الدين .

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا هو : هل كان بامكانهما اتخاذ موقف ما تجاه أي شيء كان !؟

لقد كان بودلير كله تناقضا وغموضا، كما سبق أن ذكرنا ذلك، فهو من كفره يسلّ ايمانه، ومن ايمانه يسلّ كفره، فكان " لابد أن يشبع نهم القطب السالب لكي يلمس أثر الموجب على روحه ولابدّ أ ن يطيع الشيطان قبل أن يشتاق الى السماء ." (1)

وكذلك كان موقف الياس من الدّين متذبذبا غير واضح، حتى نجده يصرّح مرّة قائلا : "... لا أعلم أي دافع يردعني عن القيام بالواجبات المفروضة على المسيحيين، ففي نفسي عوامل متناقضة، منها ما يحاول ابعادي عن المراسم الدينية ومنها مايحاول تقريبي منها" (2) ألم نلاحظ بصمات "ازدواجية الالتماس" (3) البودليرية هنا !؟ ، ويتابع الياس في المكان نفسه، مراعيا شعور المجتمع : " ولو الحالين أنا مسيحي بالمعنى الشامل، وأجد فرقا عظيما بين المسيحية الحقة والمراسم المتبعة في المعابد ..." (4)

---

1 - عبد الغفار مكاوي . 77 .

2 - دراسات وذكريات . 204 .

3 - (La Double Postulation) ترجمها نقولا سعادة في قضايا أدبية بـ (ازدواجية التجاذب) .

4 - م . مؤلفين . دراسات وذكريات . 204 .

فأيّ مسيحية حقة هذه التي يقصدها الياس؟ ، انّه في حالة تجاذب بين ما تأمر به المسيحية وتعاليمها ، وما يحس به في نفسه من رغبة في ارضاء اللّه ، وبين ما تأمر به طبيعته ونفسه ، أو بين ما تتشوّق له روحه وماتطلبه غرائزه ، فهو في الوضعية المعلقة بين نقيضين يتكلم ، أمّا ما يقصده فلعله الصفاء ، صفاء النفس، صفاء الرؤية في الحياة ، الصفاء الذي يمنح صاحبه الاطمئنان والارتياح الى موقف ما ، ويمكنّه من الانخراط في صف من صفوف الأحياء " الضعاف " على هذه الأرض ، في وفاق مع نفسه .

لكن ذلك الصفاء بقي أمنية وحلما ،كم تشوّق له بودليره لكن من دون جدوى ، فلم يصف الجوّأبدا ، لجانب من الجانبين في نفسه ، ولقد وصل الحال به ، من كثرة ألمه من الانشعاب والانفصام المؤلم والقلق المرهق ، الى التوسل والاستجاد بكلّ من الجانبين في آن واحد ، الاله والشيطان (1) لانقاذه من هذا الجوّ النفسي الخانق ، والصراع المرير... يقول في احدى قصائده :

مادامت هذه النار تحترقنا في الصميم فاننا نريد
أن نغوص في أغوار الهاوية :جحيما أونعيما ، ما همّ ؟
في أعماق المجهول لكي نتوصّل الى الجديد ! (2)

ضائقا بالحياة ذرعا يقول :

ماذا تريد منّا قوانين العدل والجور* (3)

---

1 _ ينظر . Pierre .E. 157.

2 _ ترجمة . ياسين الأيوبي . مذاهب الأدب الرمزية . 34 .

3 _ Les Fleurs du Mal (Lesbos) 167 .

*أو (الصحيح وغيرالصحيح) (Le Juste et L'injuste)

أولم يـر الياس النعيم في الجحيم هوأيضا ؟ ـ ففي قصيدته "الصلاة الحمراء" (1) تجده يتوسل الى الاله ليغفرله ذنوبه، وينتشله من أخطائه وغيه ، وأثناء توسّله للاله يحسّ أن بنفسه قوة تعادل قوة الاله ، بل تفوقها ، تمنعه من اتباعه والدخول في صفحه ، فيعاني هذا التجاذب ، ويتألم ، هوأيضا ،من " النار التي تحترقه " فيصل به القنوط والعذاب الى الطمع في الرحمتين معا : رحمة الاله ورحمة الشيطان .
فيقول بعدما يعرض لتسلط القوة الشيطانية على نفسه :

فصرت أغذوه عارا والنفس في تيهان
وصار يسكر روحي بنغمتي خفقان
بنغمة من لهيب ونغمة من دخان
حتى ظننت نعيمي في ذلك البركان
رباه عفوك ، اني كافرجان ! (2)

ويبقى الى نهاية القصيدة مصلوبا بين رغبته في العفو الالهي من جهة ، وكفره القائم من الجهة الأخرى ، يعيش " ازدواجية الالتماس" البودليرية .
وتشهد كذلك الأبيات التالية على طمعه في رحمة الآثام اذا فازت بروحه كلية :

لقد تعبت من الأحلام في جند مل العفاف بألوان من الألم
ولتماط الهوى ،لعل عصيرا من ثمار الشقاء والاكباد
أولعل الآثام تشرب منا ما تبقى من طهرماء العماد (3)

---

1 ـ " أغاني الفردوس" 50 .
2 ـ " أغاني الفردوس" " الصلاة الحمراء" 50 .
3 ـ " أغاني الفردوس" " الشهوة الحمراء" 42 .

وفي قصيدة "الشهوة الحمراء" نفسها يتبع ، وهو نازل في دهاليز مظلمة ، أصوات غرائزه ، فيتوسّل الى الظلمة أن تحتضنه وتغمره ، ولا تترك في نفسه مجالا لنور يوقظه ويفاجئه ، باحثا عن هناء مهما كان أصله . يقول بعدما عرض للفساد الذي هلك فيه الانسان :

اطفىء ضياك فانّ النور يذكرني أمسي ، وتقلق روحي هذه الشهب
قد يوقظ النور أعيادا مقدسة تشع من خلل الماضي وتلتهب
أطفئه بالليل وإغمرني بحالكة من الظلام فأنسى حين احتجب

وكأننا بالياس في قصيدته هذه ، يكرّر المعنى الذي ورد في قصيدة بودلير " امتحان بالليل " (L'examen de minuit) ، تأخذ منها هذه الأبيات :

وأنت أيها الفساد لقد باركتاك طويلا
وأخيرا لنغرق هذياننا في لجة الشرور
نحن الشعراء كهنة القيثار
الذين يسرّهم أن يسكبوا خمر الأسى والظلام
شربنا بلا ظمأ ، وأكلنا بلا جوع
اطفىء المصباح
ودعنا نختبىء وراء ستر الليل . (1)

وكذلك في قصيدته " وسواس " (Obsession) ، (2) يقول :

---

1 _ " أزهار الشر " _ ترجمة ابراهيم ناجي . 137 .
2 _ Les Fleurs du Mal .(Obsessoin).

كم تعجبني أيها الليل بدون نجومك
التي يتكلّم نورها لغة معروفة !
لأنني أبحث عن الفراغ والظلام والعري !.

لم يكن لبودلير ، في يوم ما ، موقف واضح تجاه الخير أو الشر، حتى نطمئن الى تصنيف شعره في هذا أو ذاك ، وان كان يكره الواقع الانساني ، لقد عانى الغموض، وتداخل الاحساسات المتناقضة، فعاش ومات في (مابين بين) ، في فسحة كلها ذهنية ، فسحة دوران توجد بين منطقتين في العقل انعدمت طرق الاتصال بينهما ، (1) فكان ، كله ، دائما ، مركبا من نقيضين ، عادلا بين ما بنفسه من مثالية وواقعية ، فكانت يمناه لهذه ويسراه لتلك ، وبقي متجاذبا بين الطرفين ، بلا رحمة ولا هوادة ، متألما ، ويستجد بالضدين ، ومن حالته وضعيته هذه غنّى ، وبها تغنى عن وعي واختيار .

لقد بحث الشاعران عن الصفاء الكامل _ ولا تقول الكمال _ الأصيل الخالص... من دون تشويش ولا تداخل عناصر القطبين المتناقضين للخير والشر ، اللذين يتجاذبان الانسان "كفريسة دامية" . لقد طلبا المستحيل ، طلبا الكمال في الانسان ، والانسان ، انسان لأنّه ناقص..
ولوأنّ أمنية بودلير في الصفاء والكمال ينبغي أن نفهم منها صفاء الجوّ لجانب من الجانبين ، خير أو شر ، حتى ينعدم الصراع والتجاذب والألم الذي يعانيه الانسان ، وخاصّة الشاعر صاحب الرّؤية الجلية ، الذي ، كما يرى ذلك بودلير نفسه ، لا يكتفي بوصف

---

1 _ ينظر . Georges Poulet . La Poésie éclatée . 15 .

ملعوقائم ومعمول به ، لأن في ذلك اهانة له ، ولا يقص ماهو ممكن، بل " الشاعر روح مشتركة ومركبة ، تسأل ، تبكي ، تأمل ،وأحيانا تتنبأ . (1)

كانت الحياة ، بالنسبة لبودلير ، دائما ،مأساة انسانية ، وخطيئة ، تتخللها آنات حزينة ومخيفة للانسان الساقط ، هذا الانسان الذي يطلب منه بودلير ، أن يتأمل نفسه بشجاعة وبموضوعية ، وأن يتعرّف على شهوات الحياة الفظة ، ويتوسل الى اللّه " . (2)

ومثله الياس،في " أفاعي الفردوس " ، يشفق على الانسان في هذه الحياة ،ويحتقره في تيهه ، وجهله ، وغروره .
انّ بودلير والياس يريان في وجود الانسان ، على هذه الأرض، سقوطا ومنفى وعقابا متعذرا اصلاحه ، وهذا اعتقاد مسيحي يقف في وجهه زهو شيطاني ، وثورة انسانية يائسة . ورفض يتسدّ من الاحساس بالظلم ، وغضب يتغذى من احساس بالحرمان ، وحنين الى " فردوس مفقود " وخزه وأيقظه واقع فظ ، وتمرّد يصدر عن رغبة في الانتقام ...

أمّا من رأى بأنّ بودلير أحسّ الحاجة الى السقوط ، احساسا ملحا وعنيفا ، أحسّ بضرورة " السقوط " كوسيلة لا غنى عنها للسمّو والارتفاع (3) ، ففي رأينا ،أنه لم يكن بودلير مخططا ولا مصمّما ولا هادفا في احساساته ، لقد ثبت في مرحلة تقريرية وصفية تحليلية لم يتعدّها ، بقي يدور في حلقة مغلقة ، وكذلك الياس في "أفاعيه" ، وما تصوّر بودلير ، مرة ، أنّه سينفلت يوما من قبضة شيطانه المتسلط ، أو طمع في تعويض ما ضاع ، والاّ فكيف يفسّر عدم ايمانه

---

1 — R.B. Chérix . 303 .

2 — من Baudelaire Fusée VIII

3 — ينظر عبد الغفار مكاوي . 77 .

بعقيدة الخلاص التي تبشر بها المسيحية!؟ (1)

فالانسان يخطئ ، في مفهوم الشاعرين ، لأنه مجبر وهذا هو قدره ، ووجوده على هذه الأرض هوأول رمز لسقوطه في الخطيئة ، الذي منه تشعبت الأخطاء وضخمت الخطأ الأصلي ، في نفس الوقت ، الذي ملأ الحياة .(2)

يقول بودلير في قصيدة (3) له :

لكي لا ننسى الشيء الأساسي ،
لقد رأينا في كل مكان ، ومن دون أن نبحث عنه ،
من أعلى سلم القدر الى أسفله ،
مشهد الاثم الخالد المضجر ...

ويتبع الشاعرهذا المقطع بمقاطع أخرى ، يقدّم فيها تقريرا وافيا عن سلوك الانسان المغرور ، الساقط في الخطيئة بزهو،" عبد العبد " ، الحقير ، النهم ، الطاغية الظالم ، الداعر، القاسي ، الجشع ، وعن الأديان المتنافسة المتزاحمة وغير ذلك .
وينهي قصيدته بهذا البيت :

وهذه هي المذكرة الخالدة للكرة (الأرضية) كاملة .(4)

ويقول الياس عن الأرض وسكانها ،في نفس الأسلوب والمعنى الموجود عند بودلير، في قصيدته " الصلاة الحمراء " .(5)

---

1 ـ ينظر، عبد الغفار مكاوي . 76 .
2 ينظر . Pierre Emmanuel .Baudelaire la Femme et Dieu.96
3 ـ VI (أيتها العقول الصبانية) Les Fleurs du Mal(ô Cerveaux enfantins).
4 ـ نفسه .
5 ـ " أفاعي الفردوس " . 50 .

وغاب عنّي اني عشبة نبتت على جوانب ابريق من الخزف
على جوانب ابريق اذا نظرت عين الى عنقه انحطت على تلف
فخارة ذات نتن قديمة كالزمان
مرّت قرون عليها فحال لون الدهان
ومهّد النتن فيها مسارب الديدان
فخارة دنّستها خواطر الانسان
تخاصمت جانبيها مظالم الأديان

وفي قصيدته " القاذورة " (1) يبقى الشاعر يدور حول المعنى نفسه ، ويعرض لسلوك الانسان الخاطئ ، الساقط ، ويذكر الشعراء من بين الغاوين ، يقول :

مجانين تستاف البلى من خيالهم يناط بهم من نسل عبقر سؤدد

وقد قال بودلير عن الشعراء من بين " مساكين " الأرض :

و(نجد) من هم أقل غباء ، وقحين عاشقين الجنون ،
هاربين من القطيع الكبير الذي حوّشه القدر ،
لاجئين في الأفيون الهائل !.. (2)

وفي غثيان بودلير من غرور الانسان وجهله لواقعه ، يحتفظ له بقسط من الشفقة ، ويترجم كل التظاهرات الحيوية بالعويل الانساني (3) ، داخل سجن مظلم هو السجن الأعظم ، الذي يفتح الشاعر أعينه ويجد

---

1 — " أغاني الفردوس " . 26

2 — Les Fleurs du Mal : (ô Cerveaux enfantins).

3 — ينظر . Jean Pommier. La Mystique de Baudelaire . 149

نفســه فيه محاصرا مضايقا ،يقول :

هذا الحالم الذي توقظه البشاعــة من حلمــه
هذا هو رمــزك ،أيتها الرّوح ذات الأحــلام الغامضة
التي يخنقهــا الواقــع بين جــدرانــه الأربعــة !(1)

ويقــول اليــاس منطلقــا من الاحســاس نفســه :

حلمت بدنيــا ـ ليتها لا تبــدّد … لذائذ أحلامي ولا كان لي غــد إــ
أضن بانشادي على الناس سحرها … وهل في الورى أذن اذا قمت أنشد
واوقظت مذعورا الى شر هاجــس … كأني روح ، في جثمان ، مشــرّد
ـ تفيق من الحلم الشهي الى رؤى : … كوابيس في يقظاتنا تتســــرد ـ
فألفيت دنيا من فواجعها الورى … على بابها لوح من الورق اســود
قرأت عليه احرفا خطها اللظــى … يروعك منها اثنان : " سجن مؤبــد"(2)

ومن قبل الياس أحسّ بودليــر بالنفــى في هذا العالم المحسوس ، وكان ذلك طــول حياتــه ، فعاش مضايقــا من الواقــع مثل " الأسيــر فــي المنارة " ، ولــم يشــق بوعيــه في هذا العالــم الناقــص ، الخــاضــع لحتميــة الزمــان فقــط ، بل لقد أحسّ بعــذاب روحــه الدائم لوجــود الحواجــز المضايقــة التي فرضــها عليه الواقــع ، والعالــم المادّي ، الــذي لم يكتــف بتسميم الذات داخــل حــدودها المنيعــة ، بل يشــل ، كذلك ، انفعالات الرّوح ، ويكســر أجنحتها ويعــطّل انطــلاقها ... (3)

---

1 ـ ينظــر ، 193 ، Les Fleurs du Mal" Sur le Tasse en Prison "
2 ـ " أغاني الفردوس " ، (القاذورة) ، 26 ،
3 ـ ينظــر ، 57 ، Marc Eigeldinger . Le Platomisme de Baudelaire.

واذا كان التدين يميل كفّة الخير عند الانسان ، فكل من بودلير والياس تلقيا أثناء طفولتهما ، تربية دينية مسيحية (1) ، وهناك من يرى بأن احساسهما القوي بالخطيئة دليل على وجود الايمان والعفة في قلبيهما (2) ، وما احساسهما بالسقوط ، وحنينهما الى الماضي البعيد ، الا اخلاص " للوحدة الكبرى " التي سقطا منها بعد الخطيئة ، ولم يتمكن السقوط منهما كليا ، ذلك لوعيهما بسقوط عظمتهما (3) ، وهذا الوعي هو الذي حماها ،دائما ،من الانجراف الكلي في الخطأ رغم معايشتهما له ووجودهما فيه... ونجد بودلير يستفسر عن وجود الانسان ، في " يومياته الحميمة " يقول :

" — ماهو السقوط ؟ — اذا كانت الوحدة هي التي تحوّلت الى ثنائية ، فالاله هو الذي سقط ! وبتعبيرآخر — ألم تكن عملية الخلق هي سقوط الاله ذاته !؟" (4)

لقد كان اخلاص بودلير لذكرى " الوحدة الفردوسية " وكرهه للواقع الانساني توأمين ، فكان ، دائما ، يحتفظ بطهارة الرّوح وصفائها ونقاوة المبدأ الرّوحي في صميم الشر (5) .

1— ينظر . بودلير : 308 . François Porché.

و — 22 Noël Taconet . Les Fleurs du Mal.

— ينظر. الياس: أ رزوق ف. ر . 64 .

2— ينظر . بودلير : 101 . Max Milner.

R.B.Chérix . 178

— ينظر . الياس : الثقافة . ع426 . 19 . 1947.

— ميخائيل نعيمة . الغربال الجديد .

— اليّا الحاوي . 87. 88 .

— ريتا عوض. 31

— جورج غريب . دراسات وذكريات . 30 .

3— ينظر . 96 . نقلا عن : Pierre Emmanuel.

4 — نفسه . 73 .

5 — نفسه . 96 .

لقد رأى بودلير، وفي اثره اليأس، في الوجود الانساني مأساة كلّ شيء فيه يذكّرهما بالسقوط (1) والقنوط والندب والعويل، والحياة لا تستحق الآن الحزن والكآبة، كآبة الانسان المطرود من الفردوس عن غير رضى، الملحق باللعنة الالهية لما ورثه من الخطيئة الأصلية، وما الحياة الآن تراجيدية انسانية تتردد بها ألحان نوح وكآبة الانسان الشقي (2)، يقول بودلير :

أجراس تدقّ، بغتة، بعنف،
وتبعث الى السماء عويلا بشعا،
كأنه أرواح تائهة بلا وطن،
تشكو وتنوح بعناد وتشبث.(3)

فالحياة كما يراها الشاعران شقاء، يستحيل معه أن تحلو للانسان أو أن يطمأن اليها، وذلك بسبب جلاء رؤيتهما، كما يعتقدان، لذلك نجدهما يريان في طرب الناس ومرحهم جهلا وبلاهة، أو تجاهلا بواقعهم الجهنمي، يقول بودلير :

من الآن فصاعدا، ماأنت، أيتها المادّة الحية إلا
أصوان يحيطه عراء مرعب مخيف
خامد في أعماق صحراء مضبّبة
أبو هول عجوز مجهولا من الناس اللامبالين...(4)

---

1 - ينظر . 149 . Jean Pommier . La Mystique de Baudelaire .

2 - ينظر . 96 . Pierre Emmanuel.

3 - Les Fleurs du Mal(Spleen)80.(quand le ciel bas et lourd pèse comme un couvercle)

4 - " " " ":(J'ai plus de souvenirs que si j'avais mille ans.)

والياس يقول :

مقاذر تمشي في الحياة طروبة   تغني ، واصداء القبور تردد
هم الناس في الدنيا تهاويل حنطت   بكيت عليهم في جحيمي وعبدوا
وما هذه الدنيا ، يذري رمادها   لريح الفناء ، الا جحيم مرمد (1)

انهما يشفقان على هذه المخلوقات البشعة ، التي تمثل عالما شقيا ، لأنه مهما كان ، فهؤلاء الأشقياء يبقون اخوتهما ، فهم مخطئون مثلهم (2) .

فالحياة كلها مفسدة واثم ، وهذا سر يعرفه الكل ، حسب الشاعرين ، ولكن مفاسد هذه الحياة لم تتمكن من جوهرهما ، أو تطمس ما في أعماقهما من نورانية .

وحينما نشر بودليرأول مرة " أزهار الشر " ، بعث له فلوبير برسالة يقول فيها : لقد تغنيت باللذة والشهوة دون أن تحبهما ، بطريقة حزينة حيادية ، تعجبني . (3) كما يرى جان بوميي بأن بودلير كان عفيفا ، الى حد ما ، (4) أما غوصه في الرذيلة والتأمل فيها ، فذلك ، حسب رأي بودلير نفسه ، وكما جاء ذلك في شعره يجعله يحس بالعفة أكثر ويستخرج جوهر الأشياء ، بينما يبقى جزء من روحه مقدسا طاهرا ، " كالوحش الذي يستيقظ داخله ملاك (5) . انه " يجر أفاعي تلدغ حذاءه " دون

---

1 ـ "أفاعي الفردوس" "القاذورة" . 27 .
2 ـ ينظر . 199 . François Porché .
3 ـ ينظر . 337 . Lloyd J.A .
4 ـ ينظر . 149 . Jean Pommier .
5 ـ ينظر . 51 . Les Fleurs du Mal. L'aube Spirituelle

أن تصيب قدمه ... (1)

وكذلك الياس ،فقد " ... وصف الشهوة في نفسها وفي أثرها في الانسان والمجتمع ، في سلسلة صور قاتمة بينما ظل قلبه بعيدا عنها لم يتورط في حمأتها ..." (2)

ونجد الياس ، وكأنه يلح على هذه الظاهرة ، في شعره وحياته ، وذلك بتكراره لها في عدة قصائد تذكر منها على سبيل المثال :

هيكل الاثم لم ابح لك ذلي   شبح الرّق لم أسلمك تبري (3)
أمّا أنا ولو استسلمت أمراني   خمر الليالي ، فقلبي ليس يشعب (4)
قد أشرب الخمر لكن لا أدنسها   وأقرب الاثم لكني لست أرتكب (5)
ان في قلبي البغي خيالا   من عفاف ما فجرته البغايا (6)
قيثارتي لم ألطخها بأقذار   على طوافي بها في بؤرة العار (7)

وذلك في ، رأينا ، يرجع الى اختلاف البيئتين ، والنظرة الاجتماعية في كلّ بيئة ، واذا كان قد نظر الى " أزهار الشر " و " السيدة بوفاري " (8) بطريقة سلبية ، فانّ بودلير ، على ما يبدو لنا ، يتمتع بجرأة أكثر ، وثقة في النفس أقوى ، مصدرهما اعتقاد وايمان الشاعر بمذهبه الفني والفكري .

---

1 _ " أزهار الشر " " الصوت " (La Voix) 183 .
2 _ المكشوف . ع 211 . 2 . 1939 .
3 _ " أفاعي الفردوس " _ " شمشون " . 24 .
4 _ " " _ " في هيكل الشهوات " .33 .
5 _ " " _ " في هيكل الشهوات " .33 .
6 _ " " _ " الخيال النقي " .38 .
7 _ " " _ " الدينونة " .56 .
8 _ (1821 _ 1880) "Madame Bauvary" de Flaubert Gustave. _
" السيدة بوفاري " رواية لـ فلوبير ظهرت سنة 1857 ، وأحدث ظهورها ضجة في بعض الأوساط البورجوازية آنذاك ، أدت الى امتثال المؤلف أمام محكمة الجنح ... وهي مترجمة الى العربية .

الفصل الرابع

1 ـ "علاقات" بودلير وأثرها في "أفاعي الفردوس" :

وقد يقودنا حديثنا عن "المثال" وتأثير عناصره في حياة الشاعر وشعره، بحيث جعلته يزدري الحياة ويحتقر الانسان وينفر من قدره كانسان، الى "العلاقات" عند بودلير (Les Correspondances)

ويعدّ بودلير، رائد المذهب الرمزي في الشعر الفرنسي، في رأي جان بوميي Jean Pommier في جملة المفكرين، من فلاسفة وفنانين، المعتقدين بـ "العلاقات"، ويلخص لنا عقيدة "العلاقات" (Les Correspondances) كالتالي :
انّ كلّ العالم الطبيعي يطابق العالم الرّوحي، العالم العلوي. كلّ شيء في العالم المحسوس من كائنات الطبيعة يطابق ويماثل ما في السماء... فكلّ من الانسان والحيوان والنبات والليل والنهار رموز لطباق قائم بين ما هو موجود على الأرض وما هو في السماء...(1)
ويرى الكاتب نفسه (2)، بأنّ بودلير اهتدى الى هذه العقيدة عن طريق سويدنبورغ (Swedenborg) (3)، ولفتير (Lavater) (4)، وأتباع فورنيي (Les Fouriéristes) (5).

---

1 ـ ينظر. Jean Pommier. La Mystique de Baudelaire ;37.
2 ـ ينظر. نفسه. 41.
3ـ سويدنبورغ ايمانويل (Swedenborg Emmanuel) 1688 ـ 1772. فيلسوف سويدي، ثيوصوفي ـ (الثيوصوفية: نظرية اشراقية دينية، موضوعها الاتحاد بالرب) ـ ومدّعي رؤى ـ له مؤلفات مطوّلة يعرض فيها مذهبه، وله أتباع كثيرون في انجلترا والولايات المتحدة. وهو القائل بأنّ : "شبه الكلّ يوجد في الجزء، وشبه الجزء في الكلّ، مثل مجموعة من المكعبات اذا جمعت كوّنت مكعبا واحدا". Encyclopédie universelle Vol.I5 P.597

(4) لفتير جوان كاسبار (Lavater Johann Caspâr) (1741 ـ 1801) =

ويرى ايجلد نجر مارك (Eigeldinger Marc) بأن " العلاقات " عند بودلير تعود وتنسب الى ماهو أبعد من سويدنبورغ ، أي الى أفلاطون ومثاليته ، والى ديالكتيكيته ، القائلة بأن الفكر يصعد من المظاهر المحسوسة الى " الفكرة " "L"Idée" ويبحث عن الشكل الواحد الأسمى وراء الأشكال المتعددة وهذا مبدأ كل شيء. (1)

فاذا كان تعدد المحسوسات عند أفلاطون يشارك في الأنموذج السامي " للفكرة " (L'Idée) ، فاننا نجد المحسوس عند بودليرفي " المماثلات " يتعلق كذلك بالمجرد ويرتبط به بروابط خفية . (2) .

وفي رسالة بعث بها لصديق له (3) يقول :

" أن الخيال يفوق كل الملكات علميا ، لأنه ، هو وحده ، يفهم المماثلة الشاملة أوما يسمى في دين صوفي بالتراسل " كما قال في مكان آخر (4) " أن العالم الطبيعي المحسوس ملىء بالمماثلات الدقيقة للعالم المجرد " ،

= سويسري ،فيلسوف وشاعر ، وطالب اللاهوت ، بروستانتي ،وهو مبدع علم الفراسة :ـ (معرفة المزاج والخلق من ملامح الانسان) ـ وهوالقائل بأن " كل جزء من كل عضو شبيه بالمجموع وبأخذ منه خاصية "،ويقول كذلك بأنه : يمكن أن ينظر للذات الانسانية على أساس أنها نباتات، وأن كل جزء منها يحتفظ بخاصية من الساق . كما قال بوجود العلاقة بين الصفات الذاتية والصفات الخلقية ، فالصفات الذاتية مرآة للروح ، وبامكان قراءة ماهو روحي في المادة ومن خلالها ...

Dictionnaire des Philosophes.
Presses Universitaires de France p.1530

5 ـ فوريي شارل (Fourier charles) (1772 ـ 1837) ، فرنسي ، فيلسوف واجتماعي ،توقع اجتماع أفراد في " انتاج مشترك " وجماعات من الناس مكونة في انسجام لتوفر لكل فرد من أفرادها السعادة بالعمل الخياري . وهو القائل " بالوحدة الشاملة "

Dictionnaire des Philosophes P.U. de France.
p. 947.

1 ـ ينظر .57 . = Eigeldinger Marc ;

وقال(1): "أن هذا الميل الفطري ،العجيب والخالد :الى الجمال ، هو الذي يجعلنا تعتبر الأرض ومشاهدها على أنها لمحة من السماء وتطابق لها " •

ومن هنا دخلت ، وبلا انقطاع ، التلميحات الى عقيدة المماثلة الشاملة وتطبيقاتها ، في ميدان الاحساسات •(2)

أن العملية الثانية التي تقوم عليها نظرية " المماثلات" ، عند بودلير ، أي توحيد معطيات العالم المحسوس والكشف عن المشابهات بالعالم المجرّد - تشخص خاصيتين أساسيتين لمثالية بودلير: من جهة " مثالية أفقية وهي التي تقيم ،بفضل " تزامن الأحاسيس" (Les Synesthésies) ،وحدة العالم المخلوق ، ومن جهة أخرى " مثالية عمودية " وهي التي من خلال " المماثلات " بمعناها المعروف ، تربط الأرض بالسماء والطبيعي بالفوق طبيعي ، فيستخلص ايجلد نجر Eigeldinger بأن في " علاقات " بودلير (Correspondances) جانبا ، من جانبيها ، له صلة بنظرية أفلاطون : " المشاركة " وهي " المماثلة العمودية " •(3) وفي قصيدته " العلاقات (Correspondances) يعلن عن ذلك :

---

2 - ينظر • 67 - 68 Eigemdinger Marc .

3 - Antoine Adam , Les Fleurs du Mal . 273 (Lettre écrite à Toussenel , le 21 Janvier 1856)

4 - نفسه • (من ترجمته لـ " القصص العجيبة " لـ• ادغارآلان بو)

1- نفسه • (من مقدمة لـ " القصص العجيبة " لـ " ادغارألان بو ")

2 - نفسه •

3 - ينظر • Eigeldinger Marc , 63.

الطبيعة معبد تبعث أحيانا
من أعمدته الحية أصوات مبهمة ،
فيضي الانسان خلالها خلال غابات من رموز
ترنو اليه بنظرات أليفة • (1)

أنّ هذه الطبيعة الموحّدة صورة من السماء تظهر على شكل قبر، وبنية محكمة تحتوي على رموز من العالم الرّوحي ، كلّ شيء بها يبقى " هيروغليفيا " يحتفظ بمعنى خفي ولا يصدر عنها سوى "كلام مبهم" (2):

وكالأصداء الطويلة التي تتمازج بعيدا
في وحدة عميقة قاتمة ،
رحيبة كالليل •• كالضياء ،
تتجاوب الأصوات والألوان والعطور • (3)

ويقول اللويد ج • أ • Lloyd.J.A بأنّ بودلير نفسه أعلن عن هذه الثنائية، في قصيدته " العلاقات " وفي مقطوعات أخرى نثرية •، أي أن لمذهبه الرمزي وجهين : الأوّل ديني والثاني جمالي ، فعلى المستوى الديني يقترح على الانسان الصعود نحو الوحدة الالهية انطلاقا من الواقع، وعلى المستوى الجمالي يدعو الشاعر الى الوصول الى تجربة نفسية، حيث تجتمع وتتحد كل معطيات الحواس ، أو الى الادراك في وحدة "مظلمة وعميقة "، وهذه هي التجربة التي تصل اليها تجربة " ا تزامن الاحساسات " فتقود الشاعر ،بصفة عامة ، الى استخدام المجاز

---

1 ـ " أزهار الشر" ، ترجمة أبو العيد دودو • في المعلم الجديد • ج 1 م19 1955.

2 ـ ينظر • Egeldinger Marc . 64 . 65 .

3 ـ " أزهار الشر" ترجمة أبو العيد دودو •

والتشبيه المعتمد على المماثلات ، ومعادلات بين معطيات الحواس من جهة ، والأفكار والاحساسات من جهة أخرى . (1)

ويرى المؤلف نفسه بأن بودلير تميز عن غيره في استغلاله للماثلات ، بحيث " دتيتو " ما كان ، منذ أزمنة غابرة موقفا وعقيدة ، لاهوتيين أو ميتافيزيقيين ، لقد انطلق من " رمزية سامية " الى " رمزية انسانية " خالصة ، فقامت رمزيته على هذين العنصرين الأساسيين " تزامن الاحساسات " و " المماثلات " فلا يمكن تقديم الواحد على الآخر لأن لكل منهما دوره الهام في الشعر البودليري (2) .

" فالسأم والمثال " البودليري يقوم على العلاقة الأبدية والمتزامنة بين المثال والحياة (3) ، يقول بودلير : " أن الالتحام الأبدي بين ما يسمى بالروح وما يسمى بالذات يفسر ، جيدا ، أن كل شيء مادي ... يمثل ، وسيمثل ، دائما ، الروحي الذي منه اشتق " (4) .

أما ما يهمنا من " المماثلات " ، ونحن بصدد البحث عن أثر بودلير في " أغاني الفردوس " ، فهو أننا وجدنا الياس يستفيد من وجه واحد لرمزية بودلير ، وهو الوجه الديني ، الذي ينطلق الشاعر فيه من الواقع نحو الوحدة الالهية . ومفهوم بودلير لهذا الوجه يختلف عن مفهوم غيره له . فان كل أصحاب " الرمزية " التقليدية يرون بأن وراء الحقيقة الدنيوية توجد حقيقة الهية ، فبودلير وان كان له ، هو أيضا نفس الاعتقاد ، الا أنه لما بحث عن الوجه الالهي في الواقع لم يجده ، بل وجد عكس ذلك تماما أي أن وراء الحقيقة الدنيوية تقوم حقيقة

---

1 - ينظر . 55 Lloyd . J .A .

2 - ينظر نفسه .

3 - ينظر . 58 . Eilgeldinger Marc.

4 - Baudelaire . L'Art Romantique(Les Peintres de la Vie moderne IV).

شيطانيـة ، وأن الأرض ليست صـورة ولا طبـاقا للسماء،كما كان ينبغـي أن تكون ، لكنها انعكاس لجهنـم ، وهذا ما صـدم به أثنـاء محاولتـه تبيّين عـلامات قـوة سماويـة في مشاهـد الأرض، ومماثلـة وملامـح سماويـة • (1)

لقد وصـل الى نتائـج مخيفـة ، الى اكتشـاف مـلامح شيطانيـة سائـدة عريقـة ، يستحيـل اقتـلاعها •

وفي هذه المرحلـة بالذات من ، رحلـة بودليـر الذهنيـة ، نجـد اليـاس أبو شبكـة ، فلنسمعـه وهو يقـول :

" ••• وتراءت لي الطبيعة دنيـا   من كمـال نسيقـه الأذواق
فرأيت الجمال شيعان حبا   كلّ صدر عليه شـدي سـاق
انّ في الحبّ صورة الله ،لكن   أين في الخلق صورة الخلاق ؟ " (2)

يتضح لنا من هذه الأبيات أولا وجود قاعـدة " المماثـلات" التقليديـة التي انطلق منها ، ثم خيبـة أملـه في افتقـاده اياها في السلـوك البشـري ، وهذا ما فهمناه من صيغـة الاستفهام النفيـة في البيت الذي أنهى قصيدتـه به هنا •

وهذا هو رأي بودليـر يقـول في قصيـدة له :(3)

" سأخـرج من هذا العالم مقتنعـا / بأن الفعل فيه ليس أخا للخيال "

فالعلاقـة بين المثال والحياة ، والحلـم والسلوك في روح بودليـر لم تتـم

1 ـ ينظـر •   Lloyd .J.A , 56 et 134 .
2 ـ " أفاعـي الفردوس " "الطـرح " • 61 •
3 ـ 143 •   Les Fleurs du Mal(Le Reniement de Saint Pierre)

حقيقـة ، ففي كلّ مـرّة يحطـم هذه العلاقـة التقـص الموجود بالواقـــع من جهـة ، ومتطلبـات المثال من جهـة أخرى•(1)

وكانت النتيجـة التي توّصـل لها بودليـر،وهي الشيطنـة المستوليـة على السلوك الانسانـي ، المحور الذي عليه دار شعره ، لقد تقـلّد هـذه الشيطنـة عن كامـل وعـي وارادة ، وجعـل منها مركـز فكـره (2)، واختـار دربـه في الشعر ، ولم يكن مضطـرا كما قال محاميـه، مستفيـدا من نصيحـة الناقـد سانـت بوف (Ste Beuve) ، للدفـاع عن صاحـب "أزهار الشر" أتـاء محاكمتـه • وفي دربـه المظلـم هذا سـارأبوشبكـة ينقـب هو أيضا عن فسـاد الطبيعـة الانسانيـة ، مستعينا " بنور، مصدره سـراج مسيحـي" ، من هنا تأكـد ، مثلما تأكـد بودليـر وأثبـت ،أنّ أصـل هذا الفســاد يرجع الى مبدأ الخطيئـة الأولـى الذي أدّى الى ضيـــاع حالـة بدائيـة فطريـة ، سعيـدة ومنتصـــرة •••(3)
يقـول في قصيدتـه " سـدوم " :

لاتعبأي بعقـاب ربـك انـه ... جرثومـة من نارك المتدفعـه
في صدرك المحموم كبريت اذا ... لعبت به الشهوات فجّر اضلعه
في صدرك الدامي مناجم للخنى ... اورثتها نارالذراري المزمعـه
فكل صقع من ضلوعـك تنسمـة ... خلـع على لهب الشباب موزعه(4)

والكائن البودليري، هوأساسا كائن يعيش تجربة الهاوية التي غاص فيها وزلـق لثقـل خطيئتـه ، وانحـدار هالكـه يتـم ببطء• بحيث يتمكـن المنحـدر

1ـ ينظر•59 • 58 • Eigeldinger Marc.
2 ـ ينظر • 56 et 134 Lloyd J. A.
3 ـ ينظـر• Georges Poulet .La Poésie éclatée . 12.
4 ـ " أفاعي الفردوس" • 35 •

من تسجيل كلّ تفاصيل هذا الانحدار دقيقة دقيقة، ومكانا مكانا، وبالتالي يمكن للشاعر أن يقدّر "سلم الدوران الذي عليه تتحطم روحه"، وبما أنّ الهالك ينزل على "سلاليم أبدية بلا درابيز" ولا نور، تراه يتبع خطوة خطوة، ويتحسّس الاتعكافات والمنعرجات . (1)

يقول بودلير :

انحدروا ، انحدروا ، أيها الضحايا المثيرون للشفقة

انحدروا مع ممرّ جهنم الخالد!... (2)

وتبقى الأعماق المظلمة هي أهمّ مناظر وأماكن بودلير في شعره(3).
ويقول جورج بولي (Georges Poulet)، في هذا المضمار، بأنّ الحركة اللولبية المتجهة الى الأسفل حاملة معها من يتبع المنعرجات، من طرف الوجود الى طرفه الآخر، تمثل وتذكر بالحركة التي يخضع لها أسير كارسوري دي بيرانيز (Carceri de Piranèse*)، ووصف بودلير لهالكه في الأجواء المظلمة وهو يتبع طريقا مرسوما له، يمرّ بعالم "بيرانيزي*" . أساسا . (4)

---

1 - ينظر . Georges Poulet ; 13.

2 - Les Fleurs du Mal. (Femmes Damnées) 169 .

3 - ينظر . Georges Poulet . 13 .

* Piranèsi، بالفرنسية (Piranèse) ، رسام ومهندس ايطالي (1720-1778) رسوم بيرانيز (Piranèse) هي على شكل قاعات شاسعة تنتهي بسلاليم تظهر عليها وتختفي صورة ، ودائما نفس الصورة ، - صورة الأسير والهالك، من مسطحة الدرج الى مسطحة، طريق يؤدّي بصاحبه الى الضياع - فكانت هذه الصورة مسيطرة على سابقي بودلير من الشعراء ومعاصريه ، فما كان عليه الاّ أن ينهل من انتاجهم . وأغلب القصيدة الفرنسية في القرن 19 تأثرت بالنظرة البيرانيزية للعالم ، أمثال هيجو وترفال وموسي وغوتيه . لقد تأثر كلّ بطريقته الخاصة ، بمناظر وآثار وسجون بيرانيز ...

4 - ينظر نفسه . Geoges Poulet. 14.

ويتابع المؤلف نفسه ، بأن بودلير اذا كان تأثر بمن سبقه وبمعاصريه في مفهومهم البيرانيزي للعالم ، فانّ تأثره بعمل توماس دي كيتنسي (Thomas de Quincey) : " اعترافات لآكل الحشيش " أكبر وهذا العمل _ أعني الاعترافات _ ماهو الا توسع واسهاب بيانيّ في موضوع الانسان الذي هو أسير حركة فكرة تتكرّر بلا انقطاع، والذي تحت هذا التأثير ، أوتحت تسلط هذه الفكرة التي تتكرّر في حركة مستمرة كأنه يتنزل على سلم لا نهاية له ولا يوصله الى الخلاص،بل الى نهاية جهنمية وشيطانية (1) ، و لذلك ، نادرا ماكان العالم الشعري البودليري الهيا ، بل كان يرأسه الشيطان ويسيّره (2) ، وما الانسان ، فيه ، الا لعبة في يد الشيطان ينزل الى جهنم عوضا من أن يصعد الى السماء (3)،كما جعل من قلبه مقرا لجهنم (4) ، بحيث يخجل و يخاف ويجزع من التأمل في نفسه ، يقول :

آه الهي ! امنحني القوة والشجاعة
لأتأمل قلبي وذاتي من دون غثيان . (5)

وأحسن صورة لحياة الانسان كما يراها بودلير، تجدها مجسدة في قصيدته الافتتاحية " الى القارئ " .

الاثم والجهالة والخسة والضلالة
شغل نفوسنا الشاغل ووباء أجسامنا الوبيل
فنحن نغذي زواجر الضمير العزيزة علينا
كما يغذي المتسولون ماتلد أدرانهم من هوام (6)

---

1 _ ينظر. Georges Poulet ,14 .

2 _ ينظر.335 Lloyd J.A.

3 _ نفسه . 105 .

4 _ ينظر. Van Tighen.Dictionnaire des Litteratures.336.

آن في ذنوبنا تتطعا وقي توبتنا انحلالا ورجوعا
تؤدي لأنفسنا قيمة الاعترافات مسرفين
ثم تعود فنسلك طريق الوحل مبتهجين
ظنا منا أن دمعنا السخيف قد طهرنا من الشوائب والفجور

الشيطان الثالوثي الجبروت الكيماوي العليم
يهدهد نفوسنا المسحورة بأناة
يهدهدها على وسادة الشر والمحرّمات
ويحوّل كنز ارادتنا الثمين الى بخار وهباء

ابليس يمسك زمام الخيوط التي تحركنا
اننا نجد فيما تشمئز منه النفس مغريات
فتزيد كلّ يوم خطوة في طريق جهنم
نازلين اليها غير مذعورين خلال ظلمات نتنا ٠٠٠ (1)

فالشر في شعر بودلير يسكن النفس البشرية ويسيطر عليها سيطرة غول لا تقهره قوة ، واذا كانت قوة الخير تقف في وجهه فهي لا تقدر على القضاء عليه ، لأن قدرتها محدودة لا تتعدّى أن تخترقه وتحدث تشويها ليس أكثر.

فأثار معتقد الخطأ الأصلي في نفس بودلير ، التي اتضمت

---

5 — Les Fleurs du Mal(un voyage à cythère) 136

6 — " أزهار الشر " (Au Lecteur) ترجمة مصطفى القصري ، 37 .

1 — نفسه ، 37 ، 38 .

اليها ذكريات مؤلمة من الطفولة وظروف قاسية من رجولته ، كلها مجتمعة ملأت عالمه الشعري ، وأسدلت " ستائرها " عليه وأظلمت وحجبت عنه النور الالهي والقوة الالهية ، فتراءى له الخير بعيد المنال ، ينفذ اليه بصره ، كشاعر ، من خلال هذه الستائر ، وهو تائه بين اخوته من البشر ، في مجال رحب للشيطنة ، فجاء شعره صدى لما يعج ويختلج في داخله ، وكانت هذه هي التربة التي تغذت منها جذور " أفاعي الفردوس " وأدخل صاحبها الى الأدب العربي منها نوعا من الشعر الرومنطيقي الطعون الفائر باللذائذ ، الدافق بالشهوة والتضرّم واحتدام الشبق ...(1)

فتجلت لالياس أبو شبكة ، بوضوح ، من منظار بودلير ، " الخطيئة الحمراء " ، وأثرها في بني آدم ، هذه الخطيئة التي دمّرت الخير واحتلت مكانه ، ذلك تماما مثل بودلير في " أزهار السآمة " ، فصوّر بطريقة معلمه بودلير " ... النفس الانسانية في مباذلها ..." (2) معتمدا في ذلك نفسه والحيط والمجهر البودليري الذي ضخّم له كلّ الرذائل الكامنة في :

بؤرة تعبق القذارة منها سُترت بالشفوف والبرفير (3)

وهذه هي البؤرة التي تعبق منها القذارة وينزل اليها الانسان البودليري .(4)

لقد سجل الياس ، على شاكلة بودلير ، القبح والمفسدة في "أفاعيه" ، ولم تجلبه مشاهد الفضيلة والنبل لانه لا يؤمن بوجودهما لدى الانسان ،

---

1 ـ ينظر . الأديب ـ ج 3 . 27 . 1953 .

2 ـ مارون عبود . مجددون ومجترون . 111 .

3 ـ " أفاعي الفردوس " " شمشون " 23 .

4 ـ ينظر " أزهار الشر " (Au lecteur) .

أما ما يتظاهر به هذا الانسان فهو قناع (1) ونفاق (2) ، فجعل من ديوانه " أغاني الفردوس " سجلا لما يغري النفس ويجلبها ثم يحطمها ... والديوان كله نغمة ولحن لهذا المعتقد الرّئيسي الذي استحوذ على ذهن الشاعر فتشعبت منه أفكار كلها تحمل في ثناياها هذا اللحن وهذه النغمة ، ولقد اخترنا لمعتقده قاعدة من هذين البيتين ، حيث يقول :

... شرع المقدر ألا يبقى سوى الخسران
أما الكمال فحلم في هجعة النقصان ... (3)

ولهذا لم ير في الحياة الا صورا اجتماعية ساقطة ، صورا للبشرية تتخبط في نقصها وعيوبها :

انّ قاضي المستعبدين لعبد وقضاة عور قضاة العور (4)

لقد " تعمد ابراز هذه الأعماق المكتومة من حياة المجتمع المعربدة ، حتى ولو أدى به الأمر الى اتهام نفسه بما لم يرتكب ، وذلك ليبعد آفاق نفسه وليغني عالم الشعر بمادة جديدة من التجارب والأحاسيس والحقائق الانسانية " (5) ، ورشح نفسه " للمساخر شاعرا " تشبهها ببودلير يكشف عن حقيقة الحياة البشرية ، وينزع عنها قناع النفاق والكذب ، ويعري الناس كرموز للشر على هذه الأرض ، ورموز للخطأ الأصلي وبالتالي رموز لصفات شيطانية .

---

1 - " أزهار الشر " له قصيدة تحت العنوان التالي (القناع) (Le Masque)
2 - ينظر . " أزهار الشر " "الى القارئ" " . (Au lecteur)
3 - " أغاني الفردوس " " الشهوة الحمراء " . 41 .
4 - " أغاني الفردوس " " شمسون " . 23 .
5 - الأديب . ج 3 . 7 . 1953 .

يقول في قصيدته " شمسون " :

حفلت قاعة العقاب بجمع   من سراة المسوّدين غفير
هم رموز الشقاق والفتن الحمراء   والغدر والزنى والغرور
اقبلوا يشهدون مصرع شمسون   على لذة الطلا والزمور
بؤرة تعبق القذارة منها   سترت بالشفوف والبرفير
أيدين الخاطي جناة صعاليك   ويقضي الفجور ذنب الفجور

••••••••

فاسقطي بادعائم الكذب الجاني   وكوني اسطورة للدهور

وماشمسون هنا الا الشاعر نفسه ، الذي يتألم من وعيه بهذه المظاهر الزائفة ، والنفاق القائم مكان الحقيقة التي أكلها ••• انه يحطم هذه الاعمدة الخيالية التي تشد حقا لا علاقة له بالحق ، ويعرب الشاعر هنا عن الرغبة في ابادة القيم الزائفة والاخلاق الكاذبة •••

انه يخرج من هذا الوجود بفكرة واحدة تملأ ذهنه وهي أن هذه الارض :

فخارة دنستها   خواطر الانسان •(2)

وأن الناس عليها ديدان :

ديدانها مسكرات   بخمرة التيجان
والتاج لوهي قدري   معنى من البهتان (3)

---

1 ـ " أغاني الفردوس " " شمسون " • 23 •
2 ـ " " " الصلاة الحمراء " •51 •
3 ـ نفسه •

لأن خواطر الانسان كلها بنات الطبيعة ، والطبيعة بنت الخطأ الأصلي، فهي دنس وهذا هو صميم التفكير البودليري في شعره •
لم يؤمن الياس بما تظاهر به الانسان من فضيلة وتبل في الخلق والسلوك الاجتماعي " السوي "، لأنه مثل بودلير في قصيدته التي مرت علينا " الى القارئ " ، يرى في الأعماق أشياء أخرى ، غير هذه الظاهرة ، انه واع أيضا بسيطرة الشر في عالم النفس البشرية ، وضعف هذه النفس أمام القدرة الشيطانية ، ونحن لا نرى أن أدونيس قد أدرك جوهر المسألة حين قال : " ••• ولذلك حين يشدد على الشر، يشدد بالمقابل على أن في مقدور الانسان أن يتغلب عليه ويتجاوزه الى الخير " (1) ، ويمكننا أن نستشهد بقول الياس على رأينا :

لما استفاقت عيوني في ذلتي وهواني
عزمت أن أتعرى من شهوتي فنتاني
وقال لي : "الحكم حكمي والأمر طوع بناني (2)

ولقد مرّ بنا هذا المعنى (3) في قصيدة بودلير " الى القارئ " ، ولا بأس اذا أفرزنا هذه الأبيات التي تحتوي على هذا المعنى بالذات حيث يقول :

ومعدن ارادتنا الثمين
يبخره هذا العالم الكيماوي
• • •
أن ابليس هو الذي يحكم الخيوط التي تحركنا (4)

---

1 ـ " مقدمة للشعر العربي " • 80 •
2 ـ " أفاعي الفردوس " " الصلاة الحمراء " • 50 •
3 ـ ينظر ص من هذا الفصل •
4 ـ Les Fleurs du Mal .(AU Lecteur) 5 .

وكما هدهـد الشيطان النفس على وسادة الشر والحرام في " السـ ـ ـ ـ ـى القارئ" " (1) عند بودلير ، ووطأ له كنف الدنيا في قصيدتيه النثرية " الاغراءات " (Les Tentations) (2) ، نجده يقوم بنفس المهام عند الياس فيوطي له "كنف الدنيا" ويغريه :

وطأت لي كنف الدنيا فقلت قفي   يانفس في منهل اللذات وارتشفي (3)

كما نجد قصيدة الياس " الدينونة " (4) تحمل من آثار قصيدتين لبودلير الأولى وهي " الاغراءات " التي ذكرناها آنفا ، وفيها يحاول الشيطان اغراءه ، وجلبه بعدة طرق ، الا أن بودلير يبقى صامدا لا ينساق وراء هذه المغريات ، فيرفضها ويتنكر لها ، فمثله يفعل الياس أبو شبكة في الجزء الأول من " الدينونة " ، اذ يطلب في كل مرة من ابليس أن يبتعد عنه ... والثانية هي " الطارئ " (5) والطارئ هو ابليس الذي لم يكن حضوره متوقعا ، فيظهر ليحاسب أتباعه ومن عبدوه سرا في أعماقهم ، ويضعه الشاعر في مكانة الحاكم المنصف في عالمه ، في جهنم ، ويحاسبهم عما فعلوه ، آخذا عليهم محاولتهم الهروب منه ، ورغبتهم في الفوز بالحياة وبالآخرة معا ، ويجرهم الى العالم الذي هم أهل له . فاستغل الياس وضعية الشيطان الحاكم هذه في الجزء الثاني من " الدينونة " ليجعله يحكم حكما عادلا في عالمه : " سقر " على من اتبع هداه ، كالشاعر (الذي أنشد شعرا وما شعر) ، ورجل القانون الذي (جرّد يل

---

1 _ " أزهار الشر " (AU Lecteur) 5 .

2 _ Baudelaire.Ch. Petits Poèmes en Prose.Oeuvres Complètes.65. (Jacques crepet).

3 _ " أغاني الفردوس " (الصلاة الحمراء) . 51

4 _ " أغاني الفردوس " 56 .

5 _ " أزهار الشر " (L'imprévu) 194 .

قوانيـن مشوّهـة)، ورجـل الدين الذي خالـف (منطـق الرسـل والآيـات والسـور) ...

أما وجود الشـر وغلبتـه على الخير ، في أكثـر نواحـي الحياة الانسانية فهو اعتقاد لم يخـص بودلير وحده ولا اليـاس ، وانما هو اعتقـاد كان ومايـزال لدى الكثيـر من كبار الشعراء العالميين في آداب الأمـم المختلفـة . ويعزي الكثيـر من الشـر القائـم في الحياة الى نفـوذ وسيطـرة الشيطـان وابليـس في الحياة البشريـة ، الشيطـان الذي يغـلّب الشر ويهـزم الخير ، ويوقـع بالنفـس الانسانية في شباك مقاصـده الدنيئـة . وممن اهتمـوا بالشيطـان ، ومثلوا دوره الخطيـر ، ثـلاثـة من كبار الشعراء العالميـين وهم : ميلتـون MILTON في " الفردوس المفقـود " ، واللورد بايـرون Byron فـي " قابيـل " ، وجوتـه Goethe في " فاوسـت " .(1)

الا أن بودلير ، رغم أنه ورث الكثير من الرومنسيين والبرناسيين ، نجـده يختلف عنهم في عـدة مواقـف تجاه الحياة وما تقـوم عليه من طبيعـة وخيـر وشـر ... ، وفي هذا الاختـلاف سنجـد الياس يجاريـه ويتأثـر بـه ؛

لقد اختلـف بودلير فيما اختلف فيه عن الرومنسيين والبرناسيين في موقفـه من الطبيعـة وما تثيـره من مواضـع شعريـة (2) ، هـؤلاء الذين ورثـوا عن نهايـة القـرن الثامـن عشـر نظرتهم الحسنة للطبيعـة ومزاياها ، فجعلـوا منها أحسن مؤتمـن على أسرارهـم بحيث تقـربت الطبيعة الانسانية بالطبيعة الخارجية وتعاونت معها وانسجمت فيها . فـذاقوا الجمـال ، آنـذاك ، والشكليـون ومثلهم البرناسيون تحـدّوا كلهم ميـول الطبيعـة

---

1 ـ ينظر : الهلال . ع 11 . 51 . 1975 . " الشيطان ضد الانسان فـي الأدب العالمـي " . بقلم علي أدهـم .

2 ـ ينظر : 88 . 87 . Jean Paul Sartre.Baudelaire. Ecrits Intimes.

الانسانية واندفاعاتها واحتقروها ، وقدّسوا الأعمال العظيمة التي اهتمت " بالطبيعة الجميلة " (1) .
لقد انحرف بودلير تماما عن هذا الذوق ، فلم يجد جمالا في الطبيعة ولا طيبة ولا سحرا ، فالطبيعي عنده "كريه " " زهيد " وما شدّ ذهنه من مشاهد الطبيعة الا القبح والبشاعة ، وميل الانسان الى الشر ، فتغنى بمناظر تشمئز لها النفس ، فنجده بموقفه هذا يواجه الطبيعة اللطيفة المعفى عنها ، بطبيعة خاطئة فاسدة ، بطبيعة رأى فيها محلا للحرام والجرم ، ومحل " ضياع " ضياع لاتنجو منه الطبيعة الانسانية الفاسدة التي لا أمل لها في الخلاص في عالم الحقائق الفظيعة الذي تعيش فيه مجبرة ، فالشر يمكن قلب الانسان مثل القبح الذي يسكن قلب العالم ، ومن هنا يأتي المرض الخطير الذي يمكن الرغبات والأهواء والاحساسات ... (2)

2 ـ " شيطنة " بودلير وأثرها في " أغاني الفردوس " :

انّ بودلير لم يجد في الأرض " مطابقة للسماء " بل يرى فيها "انعكاسا لجهنم " ولم يجد عليها الا آثار الشيطان من شر وفساد ، مثل "الضحك الانساني ـ (الذي يرى بأن) ـ له صلة حميمة بحدث سقوط قديم وتقهقر مادي وروحي " (3) ، انّه لم يجد الا ضجرا واثما .

أمّا الشيطان ، فلا شك أنّ بودلير تأثر بالرومنسيين في تكبيرهم

1 ـ ينظر . Dominique Rincé. Baudelaire Les Fleurs du mal . 29.
2 ـ " نفسه . 29 . 30 .
3 ـ Oeuvres Complètes . 375 . (J. Crepet).

لشخصه والاهتمام به واعطائه أبعادا جديدة ، لكن شيطانه يتميز بكونه لم يوظفه عنده كشخصية فنية في عمل مأساوي أدبي ، وهو يختلف عن شيطان الرومنسيين في أنه لا يظهر في شكل غريب مخيف ،ولاتحيط بظهوره أجواء مرعبة ، ثم انه غير معروف بشخصه ، وانما بنعوته فقط، فنحن نتعرف عليه من خلال " ضحكته المنتصرة " أو بخطبته المهددة كما جاء في قصيدة " الطارئ" (L'Imprévu) أو " التعذر اصلاحه" (L'Irréparable) ، فهو يتكلم من دون أن يظهر للعيان ،ومن ثم تبقى صفته الجسدية مجهولة لدينا (1) ، وكذلك تجد الشيطان عند الياس، كما جاء في قصيدته " الدينونة " .

واذا كان الشيطان عند أمثال جوته وبايرون لا يندمج ولا يلتحم بشخصيهما ، فاننا لانجده عند بودلير يلتصق به من الخارج فحسب وانما يسكنه ويملكه ، وان كان جوته وبايرون يعرفان بأن الشيطان ساكنهما فهما لم يجسروا على الاعتراف بذلك .(2)
فالشيطان البودليري لايختفي وراء الستائر وتحت الطاولات ،أو يتنكر في شكل أو آخر ، بل يسكن الأرواح علانية ، ويتربع على عرش البشاعة والوحشية في عالم النفس .(3)
ولا يشك فرانسوا بورشيه ، في أن شيطنة بودلير، تعبير شعري ، ولكنه يعتبرها حقيقة وأصلية : لقد اتصف بودلير بالسادية، بنيته لا بفعله ، فكان يحقق ساديته في أحلامه ، هذه الأحلام العاتية الجائرة والمؤلمة ، المتصعدة من الدنس والندم .(4)

---

1 - ينظر ، 240 ، 239 François Porché.

2 - نفسه ، 241 .

3 - نفسه .

4 - نفسه ، 241 ، 242 .

ويضاف الى سادية[1] بودلير الشيطانية ، خاصية أخرى من خصوصيات الشيطنة وهي كرهه للطبيعة الخارجية والداخلية بالنسبة للانسان ، كما كان يكره الخصب ، وأقوى هذه السمات الشيطانية التي احتلت شعره ، والتي بها فاز بتاج الشيطنة ، في رأي دارسي شعره ، هي ثورته ضد الاله ورفضه للحب ، فكان موقفه تجاه السماء موقفا متمردا شيطانيا (2) ، وله ثلاث قصائد تمثل هذا الموقف ، أحسن تمثيل ، جمعها تحت عنوان : " الثورة " (3) : " صلوات الشيطان " و " هابيل وقابيل " و " جحود القديس بيير " وكانت كل الصور التي تمثل شخص بودلير تحمل بذورا شيطانية حسب آراء بعض دارسيه . (4)

---

1 - ويرى فرانسوا بورشيه (François Porché) . 245 - أن هناك علاقة وثيقة في احساس الشاعر ، بين تدفقات الشهوة وتدفقات الدم ، الى حد الاختلاط ، مستنتجا ملاحظته هذه من تغيير بودلير عنوان قصيدته " الهدم " (la Destruction) الى " الشهوة " (la Volupté) قائلا بأن العنوان الأول " الهدم " يبين نية بودلير الأولى في رسم الجانب الشيطاني للشهوة بصفة عامة ، ثم بعد أن انطلق الشاعر في مشروعه هذا أخذ يتعمق في الموضوع المختار ويتوسع ويبسط في الرسم ، اكتشف في الشهوة الجنسية منطقة أخيرة ونهائية حتمية : هي الرغبة في الهدم والنزوع الى القتل .

2 - ينظر . نفسه . 251 .

3 - من " أزهار الشر " : La Révolte:

-"Les Litanies de Satan "

-"Abel et Caïn "

-Le Reniement de Saint Pierre " .

4 - ينظر . Marcel Despertes (Ouvrage collectif) Analyses et Réfléxions sur Baudelaire. "Spleen et Idéal ". 32 .

ولقد وجد الشيطان ، ومآثره بقوة ، في " أفاعي الفردوس " وجوده هنا يشبه وجوده في " أزهار الشر " ، ولم تترك الشيطنة فيه لوجه الجمال مجالاً ، فحتى الطبيعة التي عرف الياس يحبه لها ، الطبيعة اللبنانية ، لم يهتم بها صاحب " أفاعي الفردوس " . وكذلك الطبيعة الانسانية لم ير فيها الياس حبّا ولا صفاء ، ويمكننا أن نصفه ، في " أفاعيه " ، مثل ما وصف صاحب " أزهار الشر " بالثورة والرفض الشيطاني : " رفض الحب ، ورفض الأمل ، ورفض الحياة " (1) وهو القائل في قصيدته " شهوة الموت " :

... ناقم على السماء	حاقد على البشر
ساخط على القضاء	ثائر على القدر
صرت أمقت الصفاء	صرت أعشق الكدر (2)

ولقد جعل من " أفاعيه " رموزا وكنايات " للغريزة الجنسية والاندفاع في سبيلها الى أقصى حدود الرغبة الملحة ... " (3) ، عن طريق السم الزعاف والدم ، والمخالب ، والأفاعي ، والهدم : هدم الحب بمختلف أنواعه ، والنار والدمار والانتقام ، الى غير ذلك من الصور الدامية والحيوانية التي ملأت الديوان ، حتى قال :

غير مشهد الدماء لا أحب في الصور (4)

ممّا جعل أحد دارسيه يقول عنه بأنّه لم يقف في اتجاهه الرومنسي عند هذا الحدّ - (أي حدود الرّومنسية المعروفة) - بل تعداها

---

1 - Anteine Adam . XVI .

2 - " أفاعي الفردوس " . 45 .

3 - المكشوف . ع 211 . 2 . 1939 .

4 - " أفاعي الفردوس " . " شهوة الموت " . 45 .

الى الجنس وطلب الملذات المصاحبة للألم (1) ، فاذا كان بودلير قد وصف بالسادية في حبه الدامي وشهواته السافلة الممزقة الهادمة الى حد المرض ـ وهذا الجو نفسه ملأ " أفاعي الفردوس " ـ فسوف لا نتردد في اثبات نوع من السادية عند الياس أبي شبكة .

ورأى بودلير في مجيئه الى هذا العالم لعنة الهية في قصيدته " بركة " (Bénédiction) (2) ، فجاراه الياس في قصيدته " الطرح " وجعل من وجوده لعنة الهية أيضا ، فكانت هذه اللعنة بالنسبة لبودلير ومثله الياس ، بابا دخلا منه الى العالم السفلي ليفضحا أسراره ، ويكشفا عن الشرور الساكنة قلوب البشر ، فلم يخطئ من قال ، من دارسي أفاعيه ، أنه " يشبه ملاعين الشعراء كبودلير " (3)

ولقد أدخل بودلير تغييرا كبيرا على " رمزية " الشيطان التقليدية ، فجعل من الشيطان رمزا غنيا ومركبا بحيث لا تجده يرأس آفات الانسان وحدها ، بل كذلك أنبل نشاطاته الروحية ، فيرى بأن " الفن الحديث أساسه ميل شيطاني " (4) ، وأن أساس تكوين الشعراء شخصية شيطانية . (5)
ونجد لهذا الرأي أثرا في شعر الياس في قصيدته " الصلاة الحمراء " (6) حيث نجد الشيطان يخاطب الشاعر الياس يقول له :

... لا تستطيع التغني في الحب عن سلطاني
والحب لا يتغذى ان لم يكن شهواتي

---

1 ـ ينظر ، الأديب ، ج 3 ، 27 ، 1953 .
2 ـ " أزهار الشر " ، 9 .
3 ـ المشرق ، ج 4 ، 510 ، 1938 .
4 ـ Baudelaire .Art Romantique . 359
5 ـ نفسه
6 ـ " أفاعي الفردوس "

لقد خصص بودلير خمسة وثمانين قصيدة من ثمانية وعشرين ومائة (128) في ديوانه " أزهار الشر" لوصف الصراع بين السأم والمثال الذي يستحيل اخماده ، ولقد أجهد نفسه في ابراز الأهمية الأساسية لهذه الحالة المؤلمة التي كانت بداية ونهاية عمله الفني • (1)

3 ـ ميزات سأم بودلير ومثاله وأثرها في " أغاني الفردوس " :

والسأم البودليري يختلف عن القلق الرومنسي ، وان كان التمزق الذي نشهده عند بودلير ليس بجديد في عهده بل يمت بصلة للقلق الرومنسي ، مثل قلق شتوبريان (Chateaubriand) أوقلق جيل 1830 الذين ضجروا وقلقوا من تاريخ صعب للمعيشة وللفهم أيضا ••• لكن قلق بودلير له ميزة خاصة تميزه عن باقي " الأمراض المعنوية " التي ابتلى بها الفن ، في القرن التاسع عشر بفرنسا ، وهذه الميزة هي : الرؤية الجلية والضمير الناقد (2) ، زيادة على كونه جمع بين " مرض العصر " هذا الذي عاناه معاصروه و" الشيطنة " (3)•

وحين كان الرومنسيون معجبين بالابهام العاطفي ، والانفعالات الغامضة ، كان بودلير يدخل هذه العواطف والانفعالات في نظام ، بحيث تتمايز وتتصارع في تناقض ، فنجد عنده ، من جهة قوات جاذبية للانحدار الى السأم ، ومن جهة أخرى ، تسوق للسماء وآمال خصبة في المثال • (4)

---

1 ـ ينظر • 49 • Dominique Rincé .

2 ـ ينظر • نفسه • 3 و 4 •

3 ـ ينظر • 109 • Lloyd J. A.

4 ـ " • 49 • Dominique Rincé .

فكان سأم بودلير ابن احساسه القوي ، الذي كان سبب انتصاره، لأنه أحس احساسا قويا أكثر من غيره، وعبر عنه بروعة ، عبّر على الشقاء والبؤس ، الذي لانجاة ، للوضعية الانسانية منه.(1)

وكلمة (Spleen)* ، وهي ماحاولنا ترجمته بالسأم ، قد استعارها بودلير من الانجليزية . ولقد اختار هذه الكلمة لكثرة ايحاآتها ، ولاتساعها لغرضيه الشعري ، ورؤيته الفلسفية للحياة ، فهي كلمة مركبة من حيث معناها ، استخدمها بودلير للتعبير عن ثقل كلّ التخاويف والأمراض التي تنخره ، وشعر بها من خلال ذاته وروحه ، وعن اقتناعه باستقرار آثار الخطأ الأصلي بقلب الانسان المثلة في بصمات الشيطان المخلة بالشرف ، بحيث يبقى الانسان ، دوما ، رهن الخطأ والحرام ، كما عبّر بها عن قدرية الشر، التي ترهق وتهين الانسان وتثبّط عزم الفنان وكان هذا أبشع ما عاناه الشاعر . (2)

والسأم البودليري (Spleen) فيما يرى دومنيك رانسي (Dominique Rincé) يقوم على ثلاثة محاور :ـ احساس قوي ووعي حاد وألم ـ وطبيعة خارجية حزينة تعكس نفسية الشاعر ـ وفساد الرّوح الانسانية نفسها ، ومن هنا يتسم هذا السأم بعدة مظاهر منها : أنه يشبه "الانهيار العصبي" العميق الكلي : فهو ضجر، واضطراب ويأس ، وخوف وألم ، أي كلّ يثقل ويضغط على وعي منهك ومذعور، ويوافق هذه المظاهر الداخلية أو النفسية مظاهر خارجية تعكس المأساة النفسية وتزكيها : سماوات وسخة ، وسحابات كثيفة ، وليال سوداء، وأمطار متواصلة تبعث

---

1 ـ ينظر . Georges Blin . Baudelaire . 10

* ـ هو الغثيان من الحياة رغم وجود الأسباب التي يمكن أن تجلّها .

2 ـ 49 Dominique Rincé

على الغمّ ، وله مظهر خطير وهو فساد الرّوح نفسها ، لما بها من قذارة شيطانية تنهش قلب الانسان من داخله ، ومن هنا يوصم سأم بودلير ببصمة الشيطان وأثر الخطأ الأصلي الذي هو حي دائما لا ينضب ، يتجسّد في الشهوات والاحساسات الانسانية السافلة. (1)

ومن قلب هذا السأم (Spleen) يصف بودلير الوجود الانساني الخانق : "السماء سقف يضغط على العقل الذي يفترسه الضجر الطويل ، فيبعث النفس على الحزن القاتم ، والأرض زنزانة رطبة يتخبط بين سقوفها النتنة الأمل كأنه خفاش ، وسيول المطر كأنها قضبان سجن (...) ومواكب جنائزية تتخلل الرّوح في هدوء والأمل المنهزم يبكي ، والقلق البشع الاستبدادي على قمة رأسي المنحني يغرس رايته السوداء "(2)

أمّا المثال في "أزهار الشر" ، فيأتي في صورة منجمة هاربة كالسراب لا نكاد نلمسه ، فيبقى مجرّد حلم وأمل يتطلع اليه من السأم الذي يقوم الشاعر عن طريقه بمحاولات لبلوغ الحلم.

لقد أحتلّ هذا السأم،بكل مظاهره وخصوصياته ومميزاته،" أفاعي الفردوس" ، واستولى على نفسية الشاعر،فاحتضن الديوان من بدايته الى نهايته ، فلم يتسع " أفاعي الفردوس" الا" لأنواع الشرور التي تسكن قلب الانسان وتسيّره حسب مشيئتها ، بغية الذل له والهوان . ولقد رأينا ألا" تعرض كلّ مظاهر هذا السأم عند الياس، حتى لا تكرر نفس ماجاء عن سأم بودلير، لأنّه هو نفسه ، تبناه الياس في "أفاعيه" ،

---

1 _ ينظر، 53 . Dominique Rincé ،

2 _ Les Fleurs du Mal: "Quand le ciel bas et lourd pèse comme un couvercle " .

وكذلك القول على الشال عنده، ويكفي أنه جعل، هو أيضا من العالم " غالما موحش الآفاق " (1) و " مستنقعا يتنهد " (2)، وأثر الخطأ الأصلي جلي يتخلل قصائد الديوان كاملا ، فوجود الانسان على هذه الأرض هو أول رمز لهذا الخطأ ، الانسان " بخواطره المدنسة "، الانسان الذي هو عبارة عن "قذارة" سارية ، وما هذا العالم الا محل "سقوط " وحرام ، في نظره ،تماما مثل ما رآه بودلير في " أزهاره "، يقول في قصيدته " الطرح " :

وسمعت الحياة تهتف في نفسي فيصدي الهتاف في أبواقي :
"أهلك العائثون في رحمي الحب وسموا الزلال في ترياقي
فطرحت الاقزام في أسواقي عبرا للدمار في العشاق
ورأيت الفردوس لقنت أفاعيه غصوني وكشت أوراقي (3)

واذا كان النقاد قد أقروا لبودلير بالرؤية الجلية والضمير الناقد ، فاننا نجد الأمر كذلك أيضا عند الياس في قوله :

هم الناس في الدنيا تهاويل حنطت بكيت عليهم في جحيمي وعيدوا (4)

وهذا رأي بودلير في الانسان ، انه يرثي لحال من يتيمه الغرور والنسيان " فينحط الى درجة أن يحسب نفسه سعيدا في هذه الحياة " (5)، فكان الضحك والمرح يثيران بنفسه الكره والحقد والرغبة في الانتقام، (6)

---

1 ـ " أفاعي الفردوس " " الطرح " 60 •
2 ـ " " " " القاذورة " 26 •
3 ـ " " " " الطرح " 61 •
4 ـ " أفاعي الفردوس " " القاذورة " • 27 •
5 ـ ينظر • 802 • Oeuvres Complétes de Baudelaire. Gallimard Pléade
6 ـ " أزهار الشر " "الى كثيرة المرح " ((A Celle qui est trop Gaie

فسار الياس ،في " أغانيه " ، على منوال بودلير ، الذي بنى شعره وفنه على هذه الحقيقة الشيطانية والمأساوية ، التي اكتشفها قائمة وراء الحقيقة الدنيوية (1) ، فكان " أزهار الشر " بكامله اعترافا في منتهى الوعي والصراحة ، بوجود الخطأ الأصلي وسيطرته على حياة الانسان (2) ، ولقد أراد بودلير الانسان " كاملا " ،بطرفيه أي في سموه وطلقيته ، وخاصة في أدناه وسفالته ، ورفض أن يأخذه في " وسطه " هذا الوسط الذي يتمثل في الحشمة ، ومراعاة القوانين والتظاهر في الحدود الأخلاقية والاجتماعية (3) ، فذهب ينقب عمّا لايرى ولايسمع عنده (4) ، وذهب مذهب الواقعيين الذين يتوخون ابراز الصورة الصادقة للحياة ، ويصوّرون الواقع كما هو ، مقتنعين أن الواقع العميق شرّ في جوهره ، وأن ما يبدو خيرا ليس في الحقيقة الا بريق كاذب أوقشرة ظاهرية ، وما القيم الا ستار يتخذه الانسان لكي يخفي به ذلك الوحش الكامن فيه... (5)
ولقد حبذ الياس هذا الجانب في شعر بودلير ، اذ يقول : "...وما عتم الأمر أن أخذت الرمزية تعود الى الأصول الرّومنطقية ،وراح الرّمزيون يحذون حذو جيرازدي نرفال وبودلير في التعبير عن أعمق ما في باطن الانسان ، عن أدق انفعالات الحسّ ، عن حياة الروح . وهكذا عادت الرّمزية في تلاميذ الرمزيين الى الحقيقة الأبدية بعد أن حاولت فصل الفن عن الحياة ..." (6) ، فجعل الانسان محور شعره بل " لحمته وسداه" (7) ، ورأى بأنّ الشاعر

---

1 ـ ينظر . 56 . Lloyd J.A .
2 ـ " . 41 . Robert Benoit Chérix .
3 ـ " . 28 . Benjamin Fondane .
4 ـ نفسه .
5 ـ ينظر . الأديب .ج 7 . 14 . 1958 .
6 ـ روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة . 156 .
7 ـ ينظر . م . مؤلفين ، دراسات وذكريات . 165 .

" اذا أنشد فانما ينشد نفسه عارية لا تسترها الأراجيف ولا يحنطها الرياء " (1) ـ على أساس أنه انسان لا على أساس أنه هو ـ ، كما يقول ، في مقدمة الكتاب الذي ترجمه للامرتين " سقوط ملاك " ، " ... ولا نود أن يكون فينا شعراء الشعب بل شعراء الانسانية ". (2) ، فخصص ديوانه " أفاعي الفردوس " ، على صغر حجمه ، " لتصوير نفس كاملة " (3) ، يضعها تحت أضواء كاشفة ، ولقد سن له الطريق صاحب " أزهار الشر " نحو أعماق النفس المظلمة ، وأمده بـ " العدة " التي اتخذها هو لنفسه ، في انحداره الى هذه " الدهاليز " ، المكونة من شجاعة وجرأة وشيطنة ، لقد انساب في رعاية اللعنة ، واعتنق دين الشيطان في سبيل الوصول الى حقيقة هذه العوالم المخيفة المنفّرة .

ولقد أعلن بودلير عن مشروع شعره في قصيدته " بركة " (Bénédiction) ، ومثله فعل الياس في قصيدته " الطرح " ، يقول الشاعران بأن مجيئهما الى الحياة لعنة وعقاب لاثم ، يقول بودلير :

عندما جاء الشاعر الى هذا العالم الضجر، بارادة سماوية ،
صاحت أمه في كفر وتجديف
رافعة يديها الى السماء ، في تشنج وانقباض،
مثيرة شفقة الاله :
ـ " آه ! لما ذا لم أضع وكرا كاملا من الحيات
بدلا من أن أغذي هذه التفاهة !
لعنة الله على ليلة الملذات العابرة
التي فيها حبلت بعقابي ! ... (4)

---

1 ـ ينظر . صلاح لبكي . 157 .

2 ـ 10 .

3 ـ ينظر . مارون عبود . 114 .

4 ـ 9 . Les Fleurs du Mal, Bénédiction

والياس يقـول :

رحـم الأم لعنـة أنت منـه — في دمائـي كانت وفي أعـراقـي
أمعقاب لماتستحق من حبّـي — في لذتي وفي أشـواقـي؟ (1)

لقد هيأ هذا الاتجاه لبودليـر، القـاء الأضـواء القـوية الكاشفـة على " الشيطـان الكامـن في قلـب الانسان " (2)، فأصبـح شاعرالحداثـة، وعن طريق اليـاس عـرف الأدب العربـي المعاصـر هذا الاتجاه، وعلـى طريقـه سار الشعـراء كانوا متحفظيـن مـراعـاة للشعـور العام (3)، فأحـدث أثـرا جديدا في الأدب العربـي ٠(4)٠

لقد قصـد بودليـر، في شعره، " الأتـا الشقي "كما أسمـاه بنجمـان فـونـدان Benjamin Fondane وجعـل قـواتـه الحيـة تطفـو على سطـح العقـل (5)، ورأى بأنه، أي بودليـر، هو الذي رشـح للقيـام بمهمـة كشـف الغطـاء عن الحقيقـة الانسانيـة ـ كما يراها هوـ، ونـزع الغطـاء " الذي تتكـرفيه، هذا الغطـاء الذي تـسج بخيـوط مـن " نفـاق وبهتـان" (6) ومخادعـة الانسـان لنفسـه، حتى يطيـق النظـر اليها، ومخادعتـه للمجتمـع حتى ينسجـم معـه ٠
يقـول في قصيدتـه " الدياجيـر"

انني، واحسـرتاه! ، أشبـه الرسـام الذي حكـم عليـه
الالـه الساخـر، بالرسـم في الديـاجيـر، (7)

1 ـ " أفاعـي الفردوس" ٠ 60 ٠
2ـ ينظر ٠ Oeuvres Complètes . J. Crepet . 359 .(L'Art Romantique)
3ـ ينظر ٠ رزوق ٠ث ٠ر ٠ 204٠
4 ـ ينظر ٠ مارون عبـود ٠ 115 ٠
5 ـ ينظـر ٠ Benjamin Fondane . 231
6 ـ ينظر ٠ " أزهار الشر" ٠ (Au Lecteur) 5 ٠

ومثل بودلير، يلج الياس " الى رحم الشهوة في الضمير الانساني " (1) ماشيا في "الماخر شاعرا" (1)، حاملا " قيثارته" في " بؤرة العار" (3) "ليسقط دعائم الكذب " (4) ، ويكشف عن عالم " موحش الآفاق " (5) . ولذا رأى فيه أدونيس المثل البارز، والأول للاتجاه الذي برز في الأدب العربي الحديث الذي حاول " أن يفضح العالم كما هو ويعرضه في مناخ يشعرنا بحضور الألم والخطيئة والشر ." (6)

ولقد أجمع دارسو شعر بودلير على أن" أزهار الشر" في كاملة اعترافات ، ـ ولانقول اعترافات بودلير أو اعترافات شاعر،فبودلير يعترف باسم الانسان ، في نظره،ـ فيتخذ نفسه أنموذجا أو شريحة بشرية ، ويتتبع ثاياها ، و يجس نباضاتها في تحركاتها ومشاريعها ونواياها ، ويسجلها بأمانة في ديوانه .

وهنا يمكننا أن نطرح سؤالا ، وهو كيف كانت هذه النفس التي عممها بودلير، والتي خرج بها من الذاتية الى الشمولية ؟، يقول جورج بولي Georges Poulet معبرا اياها على لسان بودلير :

" انني رجل ، أي كائن ساقط ، خجل من وجوده ، فاعل للشر، أدوس طينا ووحلا لايختلف عني ، وفي خطبي وفي قبحي اكتشف نفسي شاعرا ، والشاعر لا يختلف عن غيره من الخلق ، الا أن له مميزات تشغلها النفس ، مميزات مشتركة بين جميع الخلق،

---

7 - Les Fleurs du Mal : (Les Ténèbres) 42 .

1 ـ اليا الحاوي . الياس أبوشبكة شاعر الجحيم والنعيم ج II . 31 .
2 ـ " أفاعي الفردوس" (القاذورة) . 28 .
3 ـ " " " " (الدينونة) . 56 .
4 ـ " " " " (شمشون) . 25 .
5 ـ " " " " (الطرح) . 60 .
6 ـ مقدمة للشعر العربي . 88 .

الا أنها تبرز عند الشاعر بوضوح أكثر مما تبرز عند غيره، وتبعث في النفس احساسا قويا بالرعب والكره . أنا بودلير، بما أنني شاعر، آتي المثل الأعلى للسفالة الانسانية ، وليست حالتي استثنائية ، لكن وعيي بهذه الحالة نفسها استثنائي . فلا يغيب عني لحظة واحدة بأن طبيعتي من طبيعة النوع البشري ، طبيعة مذلة ، وأن الوحل الذي أتخبط فيه يملأ مكانا متفردا في السفالة والظلمة ، زلق فيه جميع بني آدم الى الأبد ،وذلك بسبب خطأ يوجد في أصل هذا الخلق ، و يظمئ الجوهر والذات ." (1)

ان "أزهار الشر" هذا الكتاب الذي ألفه صاحبه في " ثورة وغضب وصبر " كان ثمرة جد وكد لأكثر من خمسة عشرسنة (2)، انه "كتاب" ناضج وليس مراهنة فنان مبالغ ، وزع بدقة وتحدد حديقة "أزهار سامة" ، وهو عبارة عن اعتراف احتوى - من وراء حجاب القصيدة الشفاف الى أبعد حد - على السر الكامل لروح معذبة ممزقة ، تتخلله نبرات الذعر والندم والقلق ، والتوسلات للاله ووساوس الشيطان ،(3) انه " السأم " (Spleen) المرهق الذي يحتوي على التوق الى الماضي ، وعلى كل المذلات وكل أنواع الندم ، وهذا ما يجعل من شعر بودلير شعرا بيولوجيا ونفسيا أساسا (4)، شعرا غنائيا وعقلانيا .

لقد حصر بودلير شعره في موضوع الانسان ، وركز على الانسان أضواء كاشفة داخل " سجن القدر" و " سجن الحياة " وسجن الخطيئة بل و " سجن عقيدة السقوط " ، وفي كل الأحوال يظل

1- Georges Poulet . 11 .

2- ينظر . 284 . François Porché .

3- ينظر . 40 . Louis Aguettant .

4- ينظر . 313 . Robert Benoit Chérix .

هذا " السجن " شفافا ، انّه العالم البودليري ، وهوعالم مخيف شغل فكره وحياته وخياله ، فأولاه كلّ عنايته واحساساته ، ووضعه تحت المجهر" ليضخمه ، ويثبت وجوده حقا وشرعا في وجه " النفاق الانساني" ويصدم به هذا الانسان الذي يجهد دوما ، في اخفائه بتظا هرات زائفة تتيه نفسه وحقيقته ، هذا الانسان الشقي الذي لا حول ولا قوة له ، يقول في " يومياته الحميمة " : " تظرية الحضارة الحقيقية لا توجد بالغاز ولا بالبخار ولا بالطاولات المستديرة ، بل توجد في التخفيف من آثار الخطيئة الأصلية " (1) ، ولقد تألم بودلير، كما يرى ذلك جل دارسيه ، أكثر من أي شاعر آخر، بوعيه الحاد وتفكيره في معنى الوجود الانساني ، ومما يعترف له به ، هوأنه كان أكبر شاعر قلق قلقا أساسه الاحساس المفرط ، والهمّ والرعب من الأسرار الخفية التي تحيط بالانسانية (2) ، فسجل قلقه بكل دقاته في "أزهار الشر" وقال : " لقد أودعت فكري وقلبي ، وكلّ ديني (المتكبر) وكلّ حقدي بهذا الكتاب " (3) .

وهذا هو العالم الشعري البودليري الذي جلب اليأس، فجال فيه بخياله واحساساته متبعا ، مثل بودلير ، مراحل سفر الانسان في الحياة هبوطا لا صعودا ، هذا السفر الذي قال عنه اليأس نفسه "حياة الروح " (4) ، فعبر عن هذا كله في " أفاعي الفردوس" ناقلا لنا من هذا العالم صورا نفسية حية للانسان المنحدر على سلم " الخطيئة " المتطلع بشوق وتوق الى نور سماوي متعذّر وصوله ، وهذا الانسان هو الانسان البودليري بكل

1- Oeuvres Complètes . Journal Intime . 52 .

2 - ينظر . 1 . Jean Pommier, La Mystique de Baudelaire .

3 - 192 . Oeuvres Complètes . Correspondances .

4 - ينظر ص من هذا الفصل .

عواطفه واحساساته المتنقلة ، والقلقة الى حدّ المرض، انّه الانسان المنفصم بين السأم والمثال ، فاتسمت قصائده بطابع قصائد بودلير، أعني ، بطابع الاعتراف ، يعرض آثامه أمام الملأ ، ويفحص ضميره علانية ، بحيث يعري نفسه والناس بصراحة وجرأة " لم يعهدها الشعر العربي الحديث ، حتى ليمكن اعتبار أبي شبكة زعيم الأدب الأسود بلا منازع في العالم العربي الحديث " (1).

وقد يقول قائل : لماذا نسينا كلّ الظواهر الموجودة بـ" أفاعي الفردوس" الى شعر بودلير، كظاهرة النفور من الحياة والتشاؤم التي بلغت ذروتها في الشعر العربي القديم ، كما هو الحال عند أبي العلاء المعري ، مثلا ، أو الغزل الاباحي عند أبي نواس، أوموقف التردد عند أبي العتاهية ، الى غير ذلك من المواقف الانسانية التي سبق اليها شعراؤنا ؟ - لكن ما ينبغي التذكير به هنا، هو أنه من الضروري أن ننظر الى العالم الشعري البودليري ، الذي دخله الياس ، ككل مركب من مجموعتين متقابلتين ، لكنهما متداخلتان بعناصرهما ،وهما " السأم والمثال" ، انّه كلّ غير قابل للتجزئة ، وقد حاولنا أن نعرض ، في هذا الفصل وفي الفصل الذي سبقه لأسس أجزائه، وعناصره بتفصيل . انها عناصر متداخلة متشابكة ، تقوّي بعضها البعض ، اكتسبت خصوصياتها وميزاتها من هذا التداخل والتجاوب ، وقد أفرز هذا التداخل والتعامل بين العناصر المتناقضة في غالب الأحيان ، طاقة شعرية ، وجوّا خاصا تغذي منهما شعر بودلير وبهما تأثر الياس في " أفاعيه "، ويمكننا اعتبار هذا الفصل والفصل الذي سبقه، أرضية فلسفية بني عليها شعرهما ، واطار ذهني وروحي، تحركت داخله مشاعر خاصة فرضت تقنيات فنية خاصة لدى الشاعرين، وهذا ما سنحاول عرضه في الفصلين القادمين .

---

1 ـ ايليا الحاوي . ج II . 77 .

الفصل الخامس

1 ـ الاتجـاه الفنــي عند الشاعـريـن :

حاولنـا ، في الفصليـن السابقيـن ، طـرح الأرضيـة الفلسفيـة التي قام عليها شعر بودليـر، والتي وجـدنا لها أثـرا عميقـا في " أفـاعـــي الفردوس" ، هذه الأرضيـة المتمثلة في السأم والمثال من حيث هما اعتقـــاد روحـي وفكـري نتج عنه اعتقـاد فنــي ثم اتجاه فنـي قائـم بذاتـــه له خصـوصياتـه ومميـزاتـــه .

لقد اعتبـر جلّ النقاد والدارسين (1) الياس أبو شبكـة من رواد الشعر الرومنسـي ، وذلك لما اتسـم به شعره من خصـائـص الرومنسية : مـــن انطـواء على النفـس ، وحـزن مخيم ، ونفـس قلقـــة ، ولجـــوء الى أحضـان الطبيعـة وحبها ،وأسلـوب سلـس ليـن ،وألفـا ظ متلائمـة منسجمة الى غير ذلك مما طبـع به الشعر الرومنسـي عامّـة ، لكن مـا هـو جدير بالملاحظـة هنا ،هو أن هذا الحكـم ، ان صحّ بالنسبـة لـ"الألحان" و " الى الأبد " و " نداء القلب " ، فهو غير صحيح بالنسبة لـ" أفاعـــي الفـردوس"، في رأينـا ، لأننا لم نجـد به سعادة ولا تمجيـدا لحـــب الشاعـر ولا لحبيبتـه ، ولم يغنيهـما غناء رقيقـا ، ولم يكـن للطبيعـــة من فيـض سعادتـه حـظ ...كما رأى ذلك رزوق فرج رزوق فــــي الألحـان " .(2)

فديـوان " أفاعـي الفردوس" يختلـف عن باقـي دواويـن الياس، وقـد يكون هذا الديـوان وحـده شاهـدا على موقـف صاحبـه من اختــلا ف المذاهـب الفنيـة الغربيـة حيث قال : أن المدارس والمذاهب الشعـريـة سجـون وقيود ، وأن الشاعر الحق لا يعيش في جوّ العبودية الذي تفرضه. (3)

1ـ ينظـر. صـلاح لبكـي . لبنـان الشاعـر . 188 ـ 189 .

2 ـ " . رزوق ف. ر . 205 ـ 209 ـ 211 .

3 ـ ينظـر . مقدمـة " أفاعـي الفردوس" . 5 .

ويبدو لنا ، أن عدم انتمائه الى مذهب معين من المذاهب المتمايزة ينم عن رغبة له في التعامل مع كلّ المذاهب الأدبية ، والافادة منها كلها حسب حاجة شعره ، والا فما معنى قوله أن : " الشعركائن حي تحتشد فيه الطبيعة والحياة ، فلا يقاس ولا يوزن ، والنظريات مذاهب وأغراض لا تعيش الا على هامش الأدب ، كما يعيش العرض على هامش الجوهر... فالحياة لا جنسية لها ولا أوضاع ولا حدود ، وهي أوسع من أن تضع لها حدودا ومقاييس... " (1) ، وبهذا نجده يقترب من موقف بودلير في ديوانه من هذه المذاهب ، مثل ما استخلص ذلك دارسو شعره ، (2) فيقول أحدهم ، بعدما يصف بودلير بالعبقري في التراكيب الفنية والجمع بين المتناقضات ، بأنه يعني بودلير ، جمع بين النظريات ، وتعداها ، واستوعب مبادئ الجماليات المتناقضة ، ظاهريا ، في الكلاسيكية ، والرّومنسية ، والانطباعية ، والتعبيرية والبرناسية ، فجمع بينها مثل الخزافي ، ولم يتحيّز لطرف ضدّ الآخر ، بل اعتنق كلّ أشكال الجمال التي قابل بينها المنظّرون في تناقض وتعارض. (3)

ونحن لا نستبعد أن يكون الياس ، المتيم بشعر بودلير ، قد اطلع على مثل هذه الدراسات والاستنتاجات ، وأدرك أهمية اتجاه بودلير الفني ، فاحتذى بحذوه ، معلنا بأنه لن يكون من الشعراء الذين يسجنون أنفسهم في مذهب من المذاهب (4) ، فمن سمات الرّومنسية البارزة ، مثلا المزج بين حب الطبيعة والخوف منها أو اجلالها الذي امتلأ به شعر الرّومنسيين (5) ، لكننا لم نجد في " أفاعي الفردوس "

1- م . الأديب . ج 10 . 39 . 1942 .

2 - ينظر . Robert Benoit Chérix . XXVIII.

3- " . نفسه .

4 - " . مقدمة " أفاعي الفردوس " . 5 - 6 - 7 .

5 - ينظر . AGuettant Louis. 25.

حبا لطبيعة أو اجلالا لها، بل ازدراء وتحديا لها، تماما مثل ما هو موجود عند بودلير، الذي كان مصدر ازدرائه للطبيعة فلسفيا. آتيا من أعماق أفكاره، له جذور لاهوتية، وهو امتداد لهذا الاحساس القوي بالخطيئة الأصلية (1)، وما كان لجوؤه الى الطبيعة الا رغبة منه في تدعيم السأم القائم في شعره، ليزيده عمقا وغنى (2).

كقوله مثلا في قصيدته " نشيد الخريف " (3)

ستنغمس في الغياهب الباردة عن قريب
السوداع أيها الصيف الناصع
السوداع للغلياء صيفنا القصير.

أصغي من الآن الى الخشب يرن في بلاط القاعات
أصغي اليه يسقط في اصطدام مأتمي.

الشتاء كله سيحتل كياني :
غضب وبغض ورعشة، وعمل قاس مجبور.
لن يصبح قلبي سوى صخرة جليدية حمراء
كالشمس في جحيمها القطبي.

وكذلك الحال بالنسبة لالياس، فقد استخدم الطبيعة، ووظفها لصالح الاحساس بالسأم وتضخيمه، كقوله في " الشهوة الحمراء " (4)

---

1 - ينظر. A. Louis. 25. 26.

2 - ينظر. A.Louis . 24 - 25 .

3 - " أزهار الشر " (Chant D'Automne) ترجمة مصطفى القصري . 128 .

4 - " أغاني الفردوس " . 43 .

أطفئ ضياك وأظلم مثل اظلامي ... وخلني في كوابيسي وأحلامي
فرب نيرة ، ياليل ! توقظني ... الى العقاف فأنسى عبء أثامي

...

أترى الغصن مذ يمر عليه ... عاصف الريح كيف تذوي زهوره
هكذا القلب حين تلبسه ... الآثام يقسو ، وقد يجف شعوره

ولقد كان حظ الطبيعة في " أفاعي الفردوس " أقل منه في " أزهار الشر " رغم ما عرف ، عن الياس ، من حب لها وتعاطف معها في دواوينه الأخرى ، أمّا بودلير فلم تحظ الطبيعة باهتمامه ، ولقد أعلن في غير مرّة عن عدم ميله اليها وعدم اكتراثه بجمالها ، (1) بل كان يكرهها ويحتقرها • (2)

لقد كره بودلير كلّ ما هو طبيعي ، كره الجانب الطبيعي في المرأة والشهوات الطبيعية ، والسلوك الطبيعي ••• وهل أحب الياس ، في " الأفاعي " شيئا ممّا هو طبيعي في الحياة !؟ ، لقد كره هو أيضا كلّ ما هو طبيعي ، ننفر من كلّ الأهواء الانسانية الطبيعية ، التي تعد في اعتبار كل من بودلير والياس بسمات السقوط أو سمات الخطيئة الأصلية ، وهي فكرة مسيحية ، استغلها بودلير في فنه أكثر من سواه ، فأصبحت المحور الأساسي الذي تدور عليه قصائد " أزهار الشر " ، وكذلك " أفاعي الفردوس " •

---

1 ـ ينظر ، François Porché . 172 .

2 ـ ينظر • Lloyd J.A . 45

2 ـ الشعر الهام أم وحي :

وفي هذا الاطار يمكن ادخال موقف الشاعرين من الابداع الفني حتى نتبين ما اذا كان الشعر عندهما وحيا أو هو وليد العمل والارادة.

ـ فبودلير يرفض فكرة وجود الوحي في الشعر ، مثلما يرفض أي شيء طبيعي ، لأن الوحي طبيعي عنده (1) ، أو في الالهام الطبيعية والفطرة والذاتية غير النقية ، وهو وحده ،يعني الالهام، يؤدي الى الخلط والاضطراب ، ولذا نجده ينادي بسمو الفن عن الطبيعة الخالصة (2) ، ويعتمد الخيال والذكاء (3) ، والشعر عنده ، قبل كل شيء ، ثمرة الجد والكد والارادة القنوية ، والتخطيط ، والرؤية الجلية والوعي الحاد على مستوى الشكل والمضمون معا (4) ، والشاعر اذا كان حاذقا لم يكيف أفكاره بالأحداث ،يعني ألا ينتظر الأحداث تعرض نفسها عليه ، بل هو الذي يتعمد تصور الفعل في مهل ، ويخترع الحوادث ، ويتسق بين الأحداث اللائقة لاحداث الأثر المنشود ، كما يرى بأن العمل الفني يكون حليفه الاخفاق اذا لم تكن كتابة الجملة الأولى فيه تهدف الى تحقيق هذا الأثر النهائي ، ويرى بأنه لا ينبغي أن تتسرب كلمة جوفاء لاتنم عن قصد الشاعر في العمل كله ، بل يتبغي أن تشارك كل كلمة في تكملة التصميم المرسوم مسبقا ، بطريقة مباشرة أوغير مباشرة (5) ، والى غير ذلك مما يضعف دور الوحي في الشعر، وينفي المصادفة في الفن (6) .

---

1 ـ ينظر . Jean P. Sartre . 172 .

2 ـ " . عبد الغفار مكاوي . 70 .

3 ـ " . François Porché . 173 .

وينظر . Jean P. Sartre . 94 .

وينظر . عبد الغفار مكاوي . 70 .

4 ـ ينظر . (Curiosités esthétiques):Oeuvres Complètes.M.J.Crepet.353.

Robert Benoit Chérix, XV

Pascal Pia . Baudelaire par lui-même .93- 94 .

أمّا الياس فهو يرى عكس مايراه بودلير_ وان كان هذا على المستوى النظري فقط ، في رأينا _ ويتنكر لقول بول فليري ، القائل مثل بودلير ، بأنّ الايمان بالوحي في الشعر يقتل الابداع(1) يقول : "كأني ببول فليري يريد أن ينزل الشاعر منزلة النجار أو الحداد يقبل على عمله ساعة يحين موعد العمل أو ساعة يريد العمل ، فيكون فاعلا منفعلا . وهذا أبعد حدود الخطل واستهان فاضح لجوهر الشعر. وايان أهذا هو الشاعر الذي يصطنع العاطفة اصطناعا ليعطيك كلّ ساعة انتاجا كالنجار يعطيك الخزانة في الوقت المتفق عليه " (2) *

وعلى مايبدو من تباعد بين مفهومي الشاعرين حول هذه النقطة، الاّ أنّ ذلك يبقى على المستوى النظري فحسب ، لا على المستوى التطبيقي . فبودلير الرّافض للوحي في الشعر نجده يعترف به في " أزهار الشر" (3) ولا ينكر دور الالهام في عملية الابداع، بل يجمع بين العمل الواعي والالهام (4) ، أما الياس فعلى الرغم من نفيه للارادة في الشعر فاننا نجدها ماثلة في شعره عامّة، وشامخة في أفاعي الفردوس" خاصة ؛هذا الديوان الذي استعار له جوّ" أزهار الشر" ، وقرّر أن يعيش فيه مدة طويلة ، فقضى عشر سنوات ،تقريبا ، في عالم شعري واحد . هوعالم جهنّمي شاق ، تسلح فيه بالصبر والتضحية

---

5 _ R.B.Chérix. XV .(Extrait de L'introduction aux Nouvelles Histoires Extraordinaires D'Edgar A , Poe .Traduites par Baudelaire).

و François Porché . 101 .

6 _ Oeuvres Complètes. Curiosités Esthétiques.M.J.Crepet.363 .

1 _ ينظر . الياس .أ .ش . " أفاعي الفردوس " من المقدمة 8 .

2 _ " . نفسه . 9 . 10 .

* _ انّها وجهة نظر رومنسية أعلن عنها رواد هذا المذهب ، الاّ أننا اذا ماتفحصنا شعرهم وجدنا به بناء أرادوه وهندسة عملوا على تحقيقها .

في سبيل هدف رسمه لنفسه ، وهو التشبيه ببودلير في " أزهار"، وهذا ما رآه ، أيضا ،الدكتور نقولا سعادة وأكد " بانهما ، [يعني بودلير والياس] ، يلتقيان ، لأن الياس يدخل الارادة ، ولوكان ذلك بوضع نفسه في بخار معيّن أو جوّ معين ، فهو تأثر ببودلير، لا نستطيع أن نقول أن شعره كان وحيا ، فالوحي بلا ارادة يصبح هذيانا لا معنى ولا هدفا له ..." (1) .

وما يمكن قوله أيضا ، هو أن أسلوك الياس مسلك بودلير في الشعر، التزام بالوعي والارادة والصحو ، لأن الشعر ، عند من تأثر ببودلير، لم يعد لعبة ، بل فعلا وطريقة أو وجهة في الحياة ، ولم يعد وظيفة تعبير عن الاحساسات المرحة أو الحزينة ، لكن طرح قضية الوضع البشري والقدر الانساني . (2)

ثم من خلال أقوال أخرى لالياس نستشف اعترافه بدور الارادة في عملية الخلق الابداعي ، كأن يقول مثلا :" أن الأدب كالحياة جاف باهت بدون " ماكياج " ، والماكياج في الأدب هو الفن ، وهل يصلح الأدب بدون فن ، أن الأديب العظيم هومن يجمع في ريشته ألوان العصور ويستعين على تطبيقها ، ذوقه وعقله وشعوره ، والذوق والعقل والشعور هي عدّة الأديب ..." (3)

= عن : فرانسوا بورشي . 298 ، 173 . François Porché

3 - ينظر . " أزهار الشر" قصيدتيه (Le Guignon) et (La Musé Malade)

4 - ينظر . Lloyd J-A . 15

و " J. P. Sartre . 94

و " . عبد الغفارمكاوي . 70 .

1- قضايا أدبية .134 .

2 - ينظر . Marcel Ruff . 205 .

3- الجمهور. ع 65 . 6 . 1938 (نقلا عن رزوق فرج رزوق . 105)

ونلمس هنا تنكره لما هو طبيعي مثل بودلير • وفي مكان آخر يرى بأن الوحي هو حالات نفسية عند تأثرها بقدرة خارقة ، والقدرة الخارقة هي جوهر نفس الانسان ، واذا كانت النفس مفطورة على الصفاء وتهيأت لها عوامل الثقافة المكملة فانها تنقي الشعور من أدرانه (1) وهنا مرّة أخرى يجمع الياس بين الوحي والارادة في عملية الخلق الابداعي •

3 ـ وحدة الكتاب :

ومن مظاهر ارادة الياس، كما قلنا ، انه أخضع شعوره وفكره وذوقه••• للسير في خط واحد ، وللبقاء في جوّ موحّد ، فكل قصائد " أفاعي الفردوس " ، رغم ما يبدو عليها من تنوّع، تتآزر لخدمة موضوع واحد يطرح الشاعر فيه قضية الوضع البشري، والقدر الانساني أمام وعيه الحاد ، تماما مثل ما فعل بودلير• فيبدو خيط متين ، ووحدة عميقة يربطان بين أبيات القصيدة الواحدة، وبين قصائد الديوان مجموعة (2) ، فاذا كان هناك من يرى أن كلّ ما يربط بين أجزاء " أفاعي الفردوس" هو الطابع العنيف، والأسلوب القوي ، وأن الديوان ليس ملحمة متشابكة الحلقات أو فكرة يسير الشاعر في ركبها (3)، فهناك من يرى عكس ذلك تماما ، فلا يرى في " أفاعي الفردوس" مجموعة قصائد بل يرى فيها قصيدة واحدة في قصائد (4) ، قصيدة تمثل مأساة النفس، وهي مأساة تتوسط النقيضين ، السأم والمثال ، هذا الاطار الذي جالت داخله روح الشاعر الممزّقة ، فنقل لنا كلّ الاحساسات في صيغة الاعتراف الكامل الصادق (5) على طريقة بودلير الذي كان ديوانه هو أيضا

---

1 ـ ينظر • الأديب • ع 10 • 39 • 1942 •

2ـ ينظر • محيي الدين صبحي • نظرية النقد العربي وتطوّرها الى يومنا • 186 •

3 ـ " • جورج غريب • 294 •

4 ـ ينظر • مارون عبود • 110 •

5ـ " • نفسه •

اعترافا صادقا لما في نفسه من شر وأمل وضعف وسقوط ، فقيل عنه بأنّه رواية واعتراف شعري ، يتميز بطابع الوحدة ، نشأت أبياته من شهوة شاب عبقري مريض وندمه ، زلق في الدناءة وهو في حالة وعي مأساوي لايقدر على التخلص منه أو استرجاع كرامته (1) ، وقيل عن " أفاعي الفردوس" بأنّ النظر فيه "كالنظر في بئر يغور ماؤه ويدور دون أن يخرج منها الى شاطئ أوينِد فيع وراء أفق ، بل كأنما هو يغور الى القعر ليخرخ على حالته الأولى الكرة بعد الكرة " (2) .

ويعتبر بعض دارسي شعر بودلير أن "أزهار الشر" نصب تذكاري للصراع المأساوي الذي يعاني منه الانسان المنفي في هذه الأرض بسبب الخطيئة ، يوجهه ، بالقوة ، حنين سرمدي نحو الاله (3) ، وهذا هو المصير الذي أراده الياس " لأفاعيه " ، ألم يقل في قصيدته "الشهوة الحمراء " : (4)

ستقول الأجيال كان شقيا   فليقدس في جملة الأشقياء

ثم ألم يقل أيضا :

ويرفع الحب لي فيكل زاويـة   من القلوب ضريحا خالدا عالي

فكان ، اذن حضور ارادة بودلير في بناء شعره ميزة من ميزاته، وكان متمسكا بهندسته وفي أبعد حد مّا جعله يسمى بحق كتابا وليس ديوانا (5) اذ جاء عبارة عن قصة ، أوتسجيل شعري لرحلة الانسان في الحياة، رحلة الانسان الواعي بسقوطه ونفاه ، رحلة داخل الاطار الزمني وخارجه،

---

1 ـ ينظر . 77   Camille Mauclair .

* ونذكر هنا أنّ الياس ترجم هذا المؤلف الى العربية .

2 ـ مجموعة مؤلفين . دراسات وذكريات . 117 .

3 ـ ينظر .   R.B. Chérix ; XXX.

=

يعتي في واقعه وفي خياله . واليأس وان لم يضمّ ديوانه مثل ما فعل بودلير، الآن أجزاء التصميم التي اعتمدها بودلير موجودة : كالصراع النفسي ، والتمزق الروحي بين السأم والمثال ، والنفور والثورة والتمرّد ، والحنين الى الفردوس المفقود ، ومحاولة التخلص من الواقع الفض ، ثم الاخفاق ، فالعودة الى البداية من جديد وهكذا الى ما لانهاية له ، ولئن كانت هذه العناصر متداخلة غير منتظمة ، فانها قائمة لم يخرج عنها اليأس، ولا يمكن أن يكون بودلير نفسه قد خطط " لأزهاره " قبل أن ينظم قصائده (1) ، ولكنه نظمها في اطار معين، منطلقا من اعتقادات راسخة في نفسه (2) ، متبعا ،كما رأينا ،الخط البيانـي لرحلة الانسان ، المادية والروحية ، في الحياة ، ولمّا انتهى من عطه ، بدت له عناصر التصميم واضحة ، فما كان عليه الا أن يصنف قصائده في تصميم جاء به الموضوع العام الذي حبس الشاعر فيه نفسه ، وقد أصرّ كل الاصرار على أن ينظر الى كتابه نظرة موحدة،حتى أنه استشاط غيظا عندما انتهى الحكم على "أزهار الشر" بحذف ثلاث عشرة قصيدة منه ، وقال في رسالة لحاميه : "يجب أن يحكم على الكتاب ككل ليستخلص منه مغزى مرعب " . (3)

ثم أتبع قوله بأن كتابه هذا قائم على التناقض، فلا يحق أن يؤخذ بعين الاعتبار طرف من التناقض دون الآخر ، والا فسد المعنى وضاعت قيمة الكتاب (4). وبمجرّد أن ظهرت الطبعة الأولى للكتاب قال

= 4 ـ "أغاني الفردوس" . 43 .

5 ـ ينظر . 52 A . Louis ;

و ينظر. A. ADam , XV , XVI

1 ـ ينظر . R. B. Chérix . XVII

2ـ " . الفصل الثالث من هذا البحث .

3 ـ Oeuvres Complètes . Claude Pichois . 103, 104 .

4 ـ ينظر . نفسه .

عنه النقاد بأنه " عمل أدبي أشد وحدة " (1) .
وهكذا كان " أفاعي الفردوس " مثل " أزهار الشر " أنشودة واحدة جاءت خالية من الأمل ، وهي تحليل دقيق للسوداوية أو المانخولية في مختلف أشكالها يقوم على التأمل الاستبطاني ، والوعي الحاد بالخطيئة ، وأنشودة تعبر عن شقاء الانسان الضائع وغربته، وعلى أمله الذي يتغذى من ألمه الناتج عن الندم ،الذي يتغذى هو أيضا من اصطدام الطبيعي والالهي ، أو الخير والشر بروحه ، ومحاولته الوصول الى الطهر والقداسة،هذه المحاولة الفاشلة دوما ، والمتجددة بلا انقطاع . (2)

4 ـ رسالة الشاعر والشعر : (استخراج الجمال من القبح والقبح من الجمال) :

انها لأنشودة رائعة ، رغم لحنها الحزين ، ونغماتها المستلهمة لآلام الانسان العميقة ، وشرور الحياة ، وكدرها وتلوثها ، وما خلفه الخطأ الأصلي من دمار وخراب في بني آدم ، تلك التي تمثلت فيها مهمة الشاعرين من حيث هما فنانان ، ووظيفة الشاعر عند بودلير هي استخراج الجمال من القبح والسمو بما هو عادي مبتذل وبشع الى مستوى الفن والجمال .
وهو القائل في مشروع قصيدة اختتامية لديوانه : (3)

كن ، أنت شاهدا على أنني قمت بواجبي ،
بصفتي كيماويا وروحا مقدسة ،
لأنني استخلصت من كل شيء جوهره ،
لقد أعطيتني طينك ، فصيرته ذهبا .

---

1 ـ ينظر . A. Louis . 52 .
و " . R.B. Chérix . XIV , XV
2 ـ نفسه XVII . XVI

=

أوكما يقـول في قصيـدة أخرى : الساعـة (L'Orloge) • (1)

أيها المرح الفانـي ، آن الدقائـق شوائـب معـد ن ،
فـلا تتركها تفوتـك دون أن تجنـي منها الذهـب

وهذا الياس بغـوص، هو أيضـا ، في الدنـس ويظـل طاهرا كالقـد يس، يقوم بمهمتـه شاعرا في استـخلاص الجمال من القبـح ، يقـول في قصيدتـه : في هيكـل الشهـوات " (2)

أمّا أنا ، ولو استسلمت أمـس الى ……… خمر الليالي ، فقلبي ليس ينشعـب
قد أشرب الخمر لكن لا أدنسهـا ……… وأقرب الاثـم لكن لست أرتكـب

لقد نهج بودليـر في مفهومـه للفـن وفي رسالتـه فنـانا ، وذلك بالبحـث الشاق في أعماق الطبيعـي لاستخـلاص الجواهر المدفونـة فيه، وقـراءة لغتـه المظلمـة وترجمتها الى لغـة الشعر الشفافـة (3) واقامـة عـلاقات، ولوكانـت مؤقتـة ، و " مماثـلات " ولوكانت ضعيفـة بين وجهيّ الكون : الواقـع وما فـوق الواقـع (4) • وفي هذا المضمـار يقـول بودليـر بأنّه لمن امتيـازات الفـن الخارقـة ، آن البشاعـة المعبّـر عنها فنيـا تصبـح جمالا وآن الألـم الموزون والضغـم يملأ الروح ابتهـاجا هادئـا • (5)
انهما يريـان بآن العلاقات و " المماثـلات " ضعيفـة جدا بين الواقـع والمثال ، فالواقـع كلـه بشاعـة وضـلال وقلـب الانسـان فيـه ملـيء بكـل

- 3 ـ ينظر : Max Milner . 169 .
  و " : Lloyd J .A 345 .
- 1 ـ Les Fleurs Du Mal .87
- 2 ـ "أغاني الفردوس" • 32 •
- 3 ـ ينظر • 55 • Dominique Rincé .
- 4 ـ " • نفسـه • 41 •
- 5 ـ ينظـر• Oeuvres Complètes . Y.G. Le Dantec . 1040 .

أنواع الشرور التي سكنت رغبات الانسان وشهواته واحساساته ، انّه قدر يستحيل الافلات منه أو التكيف به ، ويتقلدان هذه الشرور ، رغم نفورهما منها ، ويغوصان الى أعماقها ،ولا يتجنبانها ، بل يجعلان منها أساس شعرهما ،فيعملان على وصف الواقع والطبيعي تحت نور الوعي ،وخلق ما فوق الطبيعي في الوقت نفسه داخل القصيدة ، معتمدين في ذلك قوى الحلم والخيال .

وكان أمل الشاعرين الوحيد في " الخلاص" يكمن في قدرات سحر الشعر وتساميه ، الذي هو وحده القادر على ايجاد مافوق الطبيعي المثالي داخل الطبيعي ، بناء على اعتقادهما بأن في بشاعة الواقع الطبيعي تخمد خميرة مافوق الواقع ، وينبغي اقتفاؤها واثارتها وايقاظها (1) ، وكلّ من بودلير والياس يعبران على سعادتهما بوصولهما الى عوالم شيعة لا يصل اليها الاّ الشاعر بوساطة شعره .

يقول الياس في " شمشون " (2)

ان تكن جزت الخيانة شعري   في ضلالي ،فقوتي في شعوري!

ولقد احتوت قصيدة " شمشون " هذه كلّ معاني قصيدة " الألباتروس" (L'Albatros) التي تعالج قوة الشاعر وعدم انسجامه مع مجتمعه. ويمكن أن نجتزئ منها هذه الأبيات :

الشاعر يشبه أمير السّحب الجشاء ،
الذي يلاحق العاصفة ويسخر من رامي السهام ،
منفيا على الأرض وسط سخريات ،
تمنعه أجنحته العظيمة من السير . (3)

---

1 ــ ينظر ، Dominique Rincé . 30 .

2 ــ " أغاني الفردوس " . 21 .

3 ــ Les Fleurs Du Mal (L'Albatros) 11 .

وفي قصيدة أخرى ، " سمـوّ " (Elévation) ، يقول :

طوبى لمن استطاع الارتماء
في أحضان الحقول الهادئة السنية
بهزة عنيفة من جناحه القوية
فوق الضجر وفوق الحزن العميق
الذي ينوء به كاهل العيش المغيم.

طوبى لمن أحلامه كالقبرات
يرتفعن في الفجر الى السماء منطلقات
فيحلق فوق الحياة، ويتفهم بدون عناة *
لغة الأزاهير ولغة الأشياء الصامتات . (1)

فهذه هي رسالة الشاعر، عندهما ، وحظه من السعادة في الوقت نفسه: رفع مستوى الواقع البشع ، عن طريق المجاز ، لاقامة علاقة بينه وبين عالم الفن الصافي . (2)
لقد أثبتا سخرية القدر المحزن، وشرّه وبشاعته في ديوانيهما مستعيرين لذلك المشاهد المظلمة المنحلة ، من جيف متعفنة ، وقذارة وديدان، وشيخوخة محتضرة، وترمل كريه ، ونهم فظيع ، واستلهما القبح الطبيعي المبتذل ، اذ هما من هذه التربة الكريهة للطبيعة الفاسدة المنهارة، يقطفان أزهار شعرهما (3) ، فيخلقان سحرا جديدا من نوعه، مصدره هذه البشاعة والحماقة والشيطنة (4) ، وهذا ما عبّر عنه الياس في هذين البيتين من قصيدته " سدوم " . (5) حيث يستلهم السموم والمهازل ليقول شعرا :

---

1 ـ "أزهار الشر" . ترجمة مصطفى القصري . الشاعر بودلير . 46 .
* عناة يقصد بها عناء .
2 ـ ينظر . Lloyd J.A . 244 .
3 ـ ينظر . Dominique Rincé . 34 . =

علمتني لغة النبوءة عندما فجرت ألغام السموم بمنجمي
سيرت قلبي في المهازل شاعرا وذررت مسحوق العظات بعرقمي

ويقول أحد المهتمين "بأغاني" الياس :" قارن قصيدته" القاذورة"بقصيدة (الجيفة) لبودليرفي "أزهار الشر" تمسكه وهو يحاكيه ، ومع ذلك فلأول مرة يقرأ العرب هذا الشعر..." (1)

الا" أننا وجدنا في قاذورة الياس أثر عدة قصائد لبودلير ،أما علاقتها "بالجيفة" فقد تلتقي بها في الرمز ،فكلتا القصيدتين ترمز الى المادة العفنة، الى الطبيعة الانسانية الساقطة من جهة ، والى مهمة الشاعر في استخلاص الجمال من هذا العفن عن طريق الشعر من جهة أخرى . وبعدما يصف كل منهما تفاصيل العفن في صورة مضخمة تحتوي الشاعرين نفسيهما ، يخرجان من هذا الوصف العفن بما يرمز الى رسالتهما شاعرين .
يقول بودلير في "جيفته" (La Charogne)

حينذاك قولي أيتها الحسناء
قولي للهوام التي ستقضمك بالقبلات
انني احتفظ بالصورة والروح السماوية
لغرامي المنحل المفكوك . (2)

= 4 ـ ينظر . Oeuvres Complètes .J . Crepet . 357 .
5 ـ "أغاني الفردوس" .
1 ـم . الثقافة . ع 426 . 20 . 1947 . (الياس أبو شبكة كاتبا وشاعرا) . (رفائيل بطي) .
2 ـ "أزهار الشر" . ترجمة مصطفى القصري . 95 .

ولقد جاء في دراسة لجيفة بودلير أن الشكل الالهي الذي احتفظ به الشاعر من الحب المعفن المنحل هو القصيدة نفسها • (1)

كذلك عند الياس يبقى الدنس مصدرا للطهر، وفي القبح يحيا جمال ينفذ اليه الشاعر مخترقا هذا الدنس والقبح ، بحيث يغزوه ويصبح دنسا بنفسه ، فيحس ويلمس جمالا نائما داخله ، لقد " خبر حبّ البغايا وأنشد العذاب شعرا بغيا " ، (2) تماما مثل بودلير الذي " اتبعت روحه البغايا الى جحيمهن " (3) •
يقول الياس في " قاذورته " : (4)

لئن تك نار البغض تلظى بعينه	ففي قلبه النوار للحب مزوّد
يحس فراديس الحياة بروحه	وليس يرى الا جحيما يهدد!
كما يثبت الصفصاف في عاصف الدجى	وللأفق وجه هابط الغيم أربد

• • • • •

كذلك يبقى في دجى النفس ثابتا	جمال له في قبة النفس فرقد

ويعرض الياس في قصيدته هذه الى القذارة ،منتشرة في مواضع مختلفة، في الحياة ، وكأنه يفصّل ويوضح ما لمّحت اليه قصيدة بودلير،لأن بودلير في " الجيفة " يعرض علينا مشهدا واحدا للعفن ، لكنه أكثر ايحاء وغنى من " القاذورة " التي نلاحظ عليها الحاحا وتفصيلا مما يضيع على المعنى قوته وايحاءه •

ولقد وجدنا أثر " الجيفة " في قصيدة أخرى لالياس هي " شمشون"، في بيت ضمنه الشاعر فحوى نهجه في " أفاعي الفردوس" حين يقول :

1- ينظر • Juliette Hassine . Essai sur Proust et Baudelaire 94

2 - " أفاعي الفردوس " • " حديث في الكوخ " •

3 - Les Fleurs du Mal. "Les Femmes Damnées"

4- " أفاعي الفردوس " •

غير أني أجني من الجيف الجرداء ـ مهما قذرت ـ شهد قفير* (1)

فالياس يستخلصُ الشهد القفير من الجيف الجرداء" مثلما يستخلص بودليـــو " الصورة السماوية من غرامه المتعفن " .ولقد عبّـر بودلير في " الجيفـــــة" عن غرور الانسان من جهــة ،وعبثيــة الوجود الانساني من جهة أخرى، واتخذ المرأة بطلــة تتحرك في جــوّ الغرائــز الحيوانيــة وتحركها ، يقــول مخاطبــا عشيقتــه بعدما يصــف عفــن الجيفـــة :

على أنك ستكونين شبيـــهة بهذه القاذورات
شبيهـــة بهذه النتـــونـة النكـــراء
ياكوكــب مهجتي وياشمس طبيعتـــي
أنت يا مــلاكي أنت ياكل صبوتي
نعم ،ستكونين مثلها ياعروس عرائس اللطف والرقة والنور
بعدما تغسليـــن وتكفنيـــن
وعندما ترقدين تحت الأعشاب الطفيليــة والكــلأ
لتخمي بين العظــام النخــرة
حينــذاك قولــي أيتها الحسنـــاء
قولي للهوام التي ستقضمك بالقبــلات ... (2)

ويستفيــد الياس من " الجيفــة " في قصيدة أخرى هي " ســـدوم " :

ترنمي ماشئت في حمــأة البلـــى حتى يجف بكِ الرضــاع وتهــرمــي
حتى تضاجعك الأفاعي في الدجى ويصير حسنك مخدعــا للأرقـــم
حتى يفور الدود معك وينتشي يمتص جيفــة عرضــك المتهضـــم
حتى يدبّ الموت فيك وتمحــي ذريــة المهد الأثيـم المجــرم (3)

---

1 ـ "أفاعي الفردوس" . 21 . *قفير : كلمة عامية يعني بها هنا الخالص .
2 ـ " أزهار الشر" (La Charogne) ترجمة . مصطفى القصري . 95 .
3 ـ " أفاعـــي الفردوس " .

وكما لاحظنا، فأن هذه الأبيات تمت بنسب الى قصيدة أخرى لبودلير وهي: "الندم المتأخر" .(1) التي يقول فيها :

عندما ترقدين ياحسنائي السوداء
في قبر أسود الرخام
وعندما لايكون لك مخدع
الا قبو مثقوب في حفرة
وعندما يخنق الحجر صدرك الخائف
وفخذيك بخطوطها الناعمة الساهية
يضع قلبك أن يضرب* أو يريد
ويضع قدميك من أية جهة يريداتها *
عند ذاك يناديك القبر الشبيه بأحلامي الأبدية
لأن القبر يفهم الشاعر
ويهمس لك في ليالي السهاد الطويلة
"أيتها الغانية ماذا يجديك
أنك لم تعرف مم يبكي الموتى ؟ "
ثم يأكلك الدود أكل الندم .

وهكذا كانت الجيف والديدان والعفن المادي بصورة عامة ،والروحي منه بصورة أخص، مصدر الهام في كل من الديوانين " أزهار الشر" و "أفاعي الفردوس" ، ويعتبر بودلير هو رائد أدب الجيفة عند المهتمين بأعماله(2) ، فهو الذي اختار أن يخرج عن نهج أشهر الشعراء الذين اختاروا "الاقاليم

---

1 ـ " أزهار الشر" (Remords Posthume) . ترجمة .ابراهيم ناجي . 110 .
*يبدو لنا أن كلمة يدق أنسب هنا .
* يبدو للباحثة أن تغيير الجملة : (من أية جهة يريداتها) بـ (من السعي في المغامرة) يكون المعنى أقرب الى الأصل .
2ـ ينظر . W.T.Bandy et Claude Pichois.Baudelaire devant ses Contemporains . 279 .

الأكثر زخرفا في عالم الشعر " ، ليرشح نفسه لاستخراج الجمال من الشر[1]، فلا يمكن أن يكون الياس قد تأثر بغيره، أو يكون الشبه القائم بين ديوانيهما من باب المصادفة ، بل لقد اتبع الياس هذا النهج عن وعي وقصد ، ومما يرجح قولنا هذا ، رضاه عن محتوى محاضرة وردت في موضوع "أفاعي الفردوس" ، يقول صاحبها : " ... وفي لوحات أبي شبكة من دقة التصوير ما لاتراه الآن نادرا في لوحات الأقدمين والمعاصرين من شعرائنا ، لأن ريشته تجود على القبح من ألوانها بقدر ماتجود على الجمال ، فهو لا ينزلق بها على الشر انزلاقا بل يثبتها في مجالها حتى يتشبها في أقصى الحقيقة ، فيأتيك بأروع ما يصور القبح ، ويصف الشرور والضلال ". (2)
ويرجحه أيضا قوله من قصيدته " الدينونة " (3)

كم شاعر خبثت فيه عرائسه	فراح يطلي بأنياب وأظفار
من المواخير أو حين الجمال له	معرّف الشهوة السفلى بأزهار

انه هو الياس في معطف بودلير يتكلم عن نفسه وعن بودلير، وعن نهجهما الفني .

وما هو جدير بالملاحظة هنا هو الوجه الآخر لمصدر الهام الشعر عند بودلير وعند الياس ، وهو لا يقل أهمية عن الوجه الأول الذي كان : استخلاص الجمال من القبح ، وهو استخلاص القبح من الجمال ، انها مهمة ذات وجهين متناقضين ، هذا التناقض والقلق والاضطراب الفكري والروحي والفني هو الذي تخصص فيه بودلير، ورسخ قاعدة تداخل العناصر المتناقضة في الرؤية الفنية ، فصار كل شيء يحمل نقيضه : في القبح جمال وفي الجمال قبح .

---

1 - ينظر . Spleen et Idéal . Analyses et Réflexions sur Baudelaire.30-31

2 - فليكس فارس . المكشوف . ع 211 . 1939 .

3 - " أفاعي الفردوس " . 56 .

وعلى ضوء هذه الرؤية التي تبناها الياس في " أفاعيه " تفهم ماجاء في الأبيات التالية ، - وهو يناقض فيها قولته السابقة " بأنه يجني الشهد القفير من الجيف الجرداء " (1) - يقول :

فرأيت المسخ المخيف على أكمل حسن ، والقزم في العملاق
ولسان الثعبان في قبلة الصديق والسم في الشراب الواقي
وسمعت الفحيح في النغم العذب وصوت العدو في الميثاق (2)

وقد جاء عند بودلير في قصيدته : " الصوت " (La Voix) قوله :

ومنذ ذلك العهد وأنا مثل الرسل
أضحك في المآتم وأبكي في الافراح
وأجد مذاقا حلوا في الخمر الأشد مرارة
وفي أغلب الأحيان أرى في الأفعال أكاذيب . (3)

وقال في قصيدته :

هرمس أيها المجهول الذي يلازمني
والذي ما انفك يرهبني
بعيداس سويتني
بميداس أكثر العلماء كآبة .
بقدرتك حولت الذهب حديدا
والجنة جحيما . (4)

---

1 - " أفاعي الفردوس " . " شمعون " . 21 .
2 - " " " . " الطرح . 60 .
3 - 183 . Les Fleurs Du Mal . 183 .
4 - " " " "(Alchimie de la douleur) 83

كما استخلصنا العواطف الخسيسة من العواطف النبيلة : كالكذب من الصدق ، والنفاق من السلوك السوي ، والظلم من العدل ، والخيانة من جمال الأمومة ، والخبث من قداسة العلاقة الزوجية ، الى غير ذلك من السلوك الانساني والمظاهر الاجتماعية البراقة الخادعة في نظرهما .

5 ـ ماهو الجمال عند الشاعرين :

- الجمال المنقذ .
- الجمال الخادع .
- الجمال القاتل .

وما يمكن طرحه من سؤال هنا : ماهو هذا الجمال الذي أقرّه بودلير في الفن واستهوى الياس في " أغاعيه " ؟ ـ انّه يتمثل ، كما شاهدنا ، في القصيدة نفسها المستلهمة القذارة ، لأنّ الفن اذا احتضن القذارة قلبها جمالا ، ونجده يتمثل في الجانب الرّوحي والمثالي والاحساس القوي بالحرمان منهما وبالألم الناتج عنه ، انّه جمال يستحيل تحقيقه ، لأنّ تحقيقه يتوقف على الجمع بين مالا يجمع ، ويقوم على التناقض ، وهذا التناقض هو الذي يسمح للشاعر بأن يتخلص من واقعه ويتجاوز حدوده ، وهذا الياس يقول في قصيدته " سدوم " (1)

شاهدت من خلل اللهيب حدائقا ... كانت نواضر في الفصول الأربعه

مثل قول بودلير في قصيدته " الصوت " (2)

من وراء زينة
الكون الفسيح الى أبعد ظلمة في الهوة
أرى بجلاء عوالم غريبة .

---

1 ـ " أغاعي الفردوس " . 35 .

2 ـ 183 . Les Fleurs Du Mal . (La Voix)

آن الجمال الذي نشده بودليروجدنا صداه القوي في " أفاعي الفردوس " ، جمال غريب، ومن سماته البارزة الغرابة ،ولقد وصف النقاد " أزهار الشر " بالغرابة العميقة ، وأقرّوا بأن بودلير كان يجد اللذة في احداث الدهشة واثارة الاستنكار (1) ،أوماسماه هو ب : " اللذة الارستقراطية في الازعاج " (2) ، فلجأ في ذلك الى الاضافات التي تدل على الغرابة والمفارقة لخلع طابع عدواني ومثير على الجمال (3) . فلم يقم الجمال الذي تشده الشاعران على الزخرف (4) ، فبودلير يقول : " لن يقدر زخرف جمال ما علىإشباع قلب نهم كقلبي " (5) ، ويصرّح في مكان آخر بأن " الجمال يكون دائما مدهشا " (6) ، والشاذ والمدهش جزء أساسي من الجمال بل ميزته وطابعه الخاص (7)* ، وسنرى هنا كيف يحاول تحديد وتعريف ما يسميه جماله ، يقول : " انه شيء مضطرم وحزين ،شيء مبهم ، يترك مجالا للتخمين ... " (8) ، ويرى في الجمال خليطا من اللذة والخوف ، يحمل في ثناياه الكآبة والتعب والتخمة ، والسرّ والأسف والندم والشقاء ، وفي الوقت نفسه ،لا يرى أنّ الفرح يتعارض مع الجمال ، وانما يرى فيه أحد ميزات الجمال الاشد ابتذالا ، أما الكآبة فهي رفيقته الشهيرة ، حتى يقول بأنه : " لايمكن تصوّر نموذج جمال خال من الشقاء " . (9)

---

1 _ ينظر. A. Louis . 8

2 _ Journal Intime . Fusée . 32

3_ ينظر. عبد الغفار مكاوي . 73 .

4 _ " . Pascal Pia . 86.

5 _ ينظر. " أزهار الشر " (Hymne à la Beauté) . 28 .

6 _ W.T.Bandy et Ch.Pichois 245(Curiosités Esthétiques)224 et 268.

7 _ ينظر . Pascal Pia . 86

* يقول المؤلف بأن هذه الظاهرة _ (الغرابة) _ لاقت نجاحا كبيرا ، في السبعينات ، في شعر ملارمي Mallarmé ورامبو Rimbaud وكوربيير Corbière ، =

ولقد يتبين لقارئ "أزهار الشر" تفضيل صاحبها لأشكال جمالية تنطوي على الحزن والشقاء والثورة (1) ،وكذلك يمكننا القول بالنسبة لـ "أفاعي الفردوس" أليس صاحبه هو القائل :

سمعتني أقول شعرا شقيا   يستفز الآلام في سامعيه (2)

انّه جمال يستحيل تحديده في اطار معين ، أو وصف دقيق ،لكنه يعد الشاعر بايصاله الى المثال الذي يتوق اليه دوما ،وأملا في هذه الوعود، نجد الشاعر يحلق في أجلام تظل جوفاء رغم ما يصاحبها من آمال. والجمال الذي ترتاح له نفس بودلير ليس بالجمال البسيط المبتذل ،وها هو ذا يأخذ المرأة مثلا ليوضح فكرته عن الجمال فيقول : " سأحاول ان شئتم ، تطبيق أفكاري على شيء محسوس ،على ماهو أشد اغراء في المجتمع، على وجه المرأة مثلا . رأس جذاب جميل ، هو رأس المرأة ، أريد أن أقول رأس يبعث على الحلم (...) ولكن بشيء مشوش باللذة والحزن ، ينطوي على فكرة كآبة وتعب وتخمة كذلك ، أو فكرة معاكسة ..." (3)
وفي قصيدته : " أنشودة الجمال " (Hymne à La Beauté) يقول :

أيها الجمال : أجئت من أعماق السماء أم صعدت من هاوية ؟
في مقلتيك جحيم وألوهة
يخلطان الخير بالاثم خلطا مبهما
ولهذا يكون فعلهما فعل السلاف ...
في مقلتيك للغروب والفجر معا . (4)

= وكذلك في انتاج الرسّامين .

_ 8 . Oeuvres Complètes . Fusée . 420 .

_ 9 ينظر . Pascal Pia . 88

_1 Max Milner . B . Enfer ou Ciel . 139

2 _ "أفاعي الفردوس" . "حديث في الكوخ" . 47 .

_3 صلاح لبكي Pascal Pia. 127. Traduction

4 _ "أزهار الشر" (Hymne à la Beauté) ترجمة ابراهيم ناجي . 69

وهذا الياس تسحره ملامح متناقضة في وجه امرأة :

ملقيه على أشعة عينيك   صباح الهوى وليل القبور
وعلى ثغرك الجميل ثمار   حجبت شهوة الردى في العصير (1)

ويمكن تصنيف الجمال في أزهار الشر" وكذلك في " أفاعي الفردوس " الى ثلاثة أنواع : جمال منقذ ، وجمال خادع، وجمال قاتل ، (2) وفي كلّ حالة ستكون المرأة هي البطلة، تستغل كرمز في الخير وفي الشر على السواء.

والجمال المنقذ : عبارة عن تداخل الاحساسات المتناقضة، كأن يخترق النور الظلمة ، والطهر الدنس، والخير الشر، وعلى ضوء هذه الرؤية الفنية للجمال نجد مثلا الياس غارقا في الدنس، يحتضنه الضلال ، لكن وعيه يقظ يؤنبه ، فتتراءى له جنات مغرية تحده، بلا نقاذ كما جاء في قصيدته "سدوم " وكأنه يخاطب امرأة يرمز بها الى سدوم المدينة التوراتية ، التي يرمز بها الى انتشار الفساد والشرور بين الناس :

عقبت بي الذكرى اليك فأشعلت   قلبي وأجفاني رؤاك الموجعة
شاهدت من خلل اللهيب حدائقا   كانت نواضر في الفصول الأربعة
نشقت من الفردوس عبقة سحره   ومن السماء طيوبها المتضوّعة
خضراء طاهرة الغراس كأنها   بصفاء عدن لا تزال مبرقعة
وكأن من تكفير آدم نفحة   فيها ، ومن صلوات حواء دعه (3)

أو عندما يكاد الفجور يقضي على شمشون حتى تحلّ به روح الاله لتنقذه، في قصيدته " شمشون " :

---

1 ـ " أفاعي الفردوس" " شمشون " . 21 .

2 ـ ينظر .   Noël Taconet. Les Fleurs Du Mal de Baudelaire .

thème: Misère et Beauté .43,44,45,46,47 .

3 ـ " أفاعي الفردوس" . 35 .

"هيه شمشون ،أيها الفاجر الزنديق يا عبد يهودة المقهور
أحكيم من العتاة تذرى شعره قينة من الماخور؟"
فتلوى شمشون في القيد حتى حلّ فيه روح الاله القدير (1)

ويقول في المعنى نفسه في قصيدته " في هيكل الشهوات " :

لي مهجة كدموع الفجر صافية تقاوتي والتقى أم لها وأب
لي ذكريات كأخلاقي تؤنبني فلا يخالجني روغ ولا كذب
أبقى لي الأمس من غلوائي عفتها ولم يزل في دمي من روحها نسب
وحق روحك ياغلوا إولو غدرت بي الليالي وأصمت قلبي النوب
ان كنت في سكرة أو كنت في دعر ومر طيفك مر الطهر والأدب (2)

انّها ذكرى الماضي السعيد التي تخترق الحاضر الشقي ،فتنتشل الشاعر من شقائه وخطأه ، انها معان وردت في قصيدة لبودلير ، وهي : " الفجر الرّوحي " (3) (L'aube Spirituelle)

عندما يختلط الفجر الأبيض القرمزيّ
بالشال القاضم ،
يستيقظ ملاك داخل الوحش السّاكن ،
بعطية سرّ خفي منتقم .
. . . . .
بالنسبة للرجل الذهول الذي يحلم ويتألم ،
تتفرج سماوات روحية منيعة ، وتغور بجاذبية الهاوية .

---

1 _ "أغاني الفردوس" . 21 .
2 _ نفسه . 21 .
3 _ Les Fleurs Du Mal . (L' Aube Spirituelle) 51 .

هكذا يا آلهتي يكون الانسان في صحــوة وطهر

على أنقاض المعاصي ودخانهـــا
ترفرف ذكراك ، مكبّــرة أمام عيني ،بلا انقطـاع
صافيــة أكثــر ، ووردية أكثر ، وساحــرة أكثــر ،

.....

لقد غطـت أشعـة الشمـس على أضـواء الشموع
هكذا طيفـك ، دائمـا منتصـر ،
مثل الشمـس الخالـدة ، أيتها الرّوح المتألقــة .

أو عنـدما يقــول في قصيـدة أخرى :

في احـدى الليالي كنت قـرب يهوديـة بشعـة ،
وكأنني جنـب جثـة طلقـاة ،
وجـدت نفسـي أفكـر ، قرب هذا الجسد المأجور ،
في الجمال الحزين الذي يمتنـع عنه تـوقـي . (1)

انّه جمال يفجـر الأنوار في قلـب الظلمات ، وينقـذ الشاعر من عذابه بوعيه في السقـوط ، في السأم عامـة وفي غرائـزه خاصـة ، وهذا اليـأس مـرّة أخرى يخاطـب المرأة ويطلـب منها أن تطهّـره :

فانشقـي فـورة الحرارة من جسمي   وغـذّي قـواك من اكسيـري
وامصي ،يادليلة الخبث من قلبـي   فكـم مـرّة مصصـت قشـوري (2)

---

1 _ Les Fleurs Du Mal . 51 .

2 _ " أغاني الفردوس" "سـدوم " . 35 .

أوكما قال بودلير ،في المعنى نفسه في قصيدته : "تحوّلات الهامة" (Les Métamorphoses d'un Vampire) يصف المرأة التي يرى فيها هامة تمتص الدماء ،تحاول اغراء، وتعده بتخليصه من وعيه ، تقول له :

ـ" أنا ،شفاهي ناديـة ، أعرف العلم
الذي يضيّع الوعي العتيق في الفراش العميق..."

.....

ولمّا مصّت من عظامي كلّ نخاعها ،
والتفت اليها في شوق
لأبادلها قبلة حب ، لم أر
سوى قربة ذات جنبين لزجين ، امتلأت كلها قيحا !(1)

أمّا الجمال الخادع : فهو يحمل كلّ أوصاف الجمال الخاصة ، الاّ أنّه يعرف عنه مسبقا بأنّه جمال زائل ،وقناع سرعان ما يزول لتظهر الحقيقة البشعة والقبح المريع ، والشاعر رغم معرفته لهذا كله يقتحمه، وهو واع بأنّ النور الذي يراه ليس الاّ خداعا ، ووهما ، ووجها براقا يخفي وراء ظلمة وسواد الندم ، ولقد اختار بودلير الحب بصفته أحسن مجال لتطبيق أفكاره الجمالية ، وجاراه الياس في ذلك ، فكان الجمال الخادع في الحب مسلكا للانفلات المؤقت من الوضع الانساني ،انه بساب يؤديهما الى لمح الجمال الخاطف والحلم القصير .
ولقد ردّد الياس في عدّة أبيات هذه الفكرة . يقول في قصيدته "شمشون" (2).

1 ـ Les Fleurs du Mal . Les Métamorphoses d'un vampire .

2 ـ أفاعي الفردوس" . 21 .

ان في الحسن ، يادليلة إأنعمي — كم سمعنا فحيحها في سرير
أسكرت خدعة الجمال هرقلا — قبل شمشون بالهوى الشرير
والبصير البصير يخدع بالحسن — وينقاد كالضرير الضرير
أنت حسناء مثل حيّة عدن — كورود الشارون ذات العطور
أعورت شهوة من الحبّ عينيه — وكم أعور الهوى من بصير

انّه الجمال الذي يعد بالسعادة ، لكنها سعادة قصيرة العمر ، سرعان ما يهوي صاحبها من عل ليحس بالألم أكثر، ومابيد الشاعر أن يتبرم من طاعة شهواته وغرائزه ، فيصبح العبد المسيّر والضرير المنقاد ، يعساف نفسه المنقادة لكن لاحول ولاقوة له ، وفي شخص الأنثى تمثلت هذه الغرائز الهائجة والشهوات الحيواتية ، وكانت هي قائدة الرجل الى الخطأ الأكبر ، اقتداء في ذلك بأسطورة آدم وحواء التوراتية، فكانت " أميرة الشهوة الحمراء " (1) عند الياس مثل ما كانت عند بودلير " ملكة المحرّمات " (2) ، ووسيلة استغلها القدر الانساني لا سقاطه في الخطيئة ، يقول عنها الياس :

ملقيه فيين نهديك غامت — هوة الموت من الفراش الوثير
هواة أطلعت جهنم منها — شهوات تفجّرت في الصدور (3)

ويقول بودلير :

لمّا الطبيعة العظيمة بنيّاتها المختفية
تستخدمك ، أيتها المرأة ، ياملكة المحرّمات

---

1 — " أغاني الفردوس " " الشهوة الحمراء " ، 41 .

2 — Les Fleurs du Mal . Tu mettrais L'univer entier dans ta ruelle . XXV .

3 — " أغاني الفردوس " " الشهوة الحمراء " ، 41 .

ـأنت ، أيها الحيوان البشع ـ لتكوّن عبقريا • (1)

ورغم أن الشاعر يرى في هذا الجمال خدعة ، فهو يتشبث به ويطلبه، لأنّه يؤثر في النفس، ويصرف الوعي عن الشاعر ، ولولحظات، والشاعر يفضل خدعة هذا الجمال على صدق الواقع ، وهذا بودلير يقول في قصيدته : "حب الكذب " (2) (L'Amour du Mensonge)

ألا يكفي أن تكوني الظاهر
لتسلّي قلبا يهرب من الحقيقة ؟
مهما كانت حماقتك أو عدم اكتراثك ،
قناعا ،أو زخرفا ، فتحيّتي ! اني أعبد جمالك •

ثم يقول في قصيدة أخرى :

دعوا دعوا قلبي يسكر بكذب
ويغوص في عيونك الجميلة مثلما يغوص في حلم جميل • (3) •

ويقول أيضا :

مسكين الجمال العظيم ، أن تهر بكائك الجميل
يصل الى قلبي الحائر ،

---

1 _ Les Fleurs du Mal . Tu mettrais l'univers entier dans ta ruelle . XXV .

ونجد المعنى نفسه في قصيدة اليأس : "غلواء " :

وانظر أخيرا نظرة سريعة مختلف الشرور في الطبيعة
يبدولك المقت اذا فتعلم كيف أرادت " وردة "جهنم •

2 _ Les Fleurs du Mal .(L'Amour du Mensonge) 110 .

3 _ " " " " . (Sempre Eaden) 45 .

كـذبك ، يسكرنـي ، وروحــي تشــرب
من الموج الذي يفجـرّه الأ لـم من عينيـك ٠ (1)

ويدلنا جـوّ هذه الأبيـات الأخيرة لبودليـرعلى جوّ أبيات من قصيـدة لاليـاس "حـديث في الكـوخ " (2) حيث يقـول :

قلت في مقلتيك خمر العذارى فهي اكسيرك الذي تحجبينـه
ماخمور الكؤوس مهما تلظـت كخمور القلب الذي تعصرينـه
تسكبين الشعر الطروب في العين وفي النفس غير ماتسكبينـه
انّ فيها آيات حـزن أليـم ورمـوزا في الليالي حزينـة !

ونجـد موقـف الشاعر تجاه المرأة يتحول من نظرته اليها سقطة في الخطأ ووسيلة في يد القدر لجلب الرجل الى الدرك الأدنى ، الى نظرة أخرى ، فمثلما استخدمها القدر في اسقاطه ، استخدمه لاسقاطها ، ويصبحان اخوة ، ربطت بينهمـا الخطيئة الأولـى ، وورثتهما نقصـا جعلهما يشقيـان في الحيـاة لتعويضـه ، والبحث عمّا يحسّان به من أثر للكمال في نفسيهما ، لكن هذا الكمال يظـل سـرابا ، والسعادة وهما يحدثان بنفسيهما فراغـا ونهما لا يمـلأه ولا يشبعـه شيء ، ويبقـى هذا الأثـر للخير جـذوة في نفـس الشاعـر لا تنطفـئ ، وفي هذا السيـاق يقـول بودليـر :

ملعـون هو ، أبدا ، الحالم غير النافـع
الذي أراد في غبائـه أن يكون الأوّل
ليتكـفّل بمسألـة عقيمـة متعـذّر حـلّها
فيمـزج بأمـور الحـب الشـرف !

الذي أراد أن يجمـع ، في وفـاق صـوفـي ،
الظّـل بالحـرارة ، والليـل بالنهـار ،
لن يسخّـن ذاتـه المشلولـة أبـدا
على هذه الشمس الحمراء التي تسمّى الحب ! (3)

---

1 _ Les Fleurs du Mal . (Le Masque) 26 .

2 _ " أفاعي الفردوس " ٠ 47 ٠

3 _ Les Fleurs du Mal .(Les Femmes Damnées) 169 .

فشقاء واحد يجمع بين الذكر والانثى فهما أخوان مشتركان في النقص بينما شفقة أخوية ممزوجة بالهلع والرعب تظل خلفية قائمة دائما وراء رمز المرأة للجمال الخادع والقاتل معا ، فالشاعر يرى في نفسه ما يراه في المرأة ، ويرى نفسه فيها . يقول الياس :

أسليلة الفحشاء إنارك في دمي فتضرمي ماشئت ان تتضرمي
أنا لست أخشى من جهنم جذوة مادام جسمي ، ياسد وإجهنمي (1)

ويقول مرة أخرى :

مالي ارى القلب في عينيك يلتهب أليس للنار، يااخت الشقا ،سبب ؟

....

ولا تخافي عذ ولا ،فالعذول مضى والعصر سكران، يا اخت الشقا،تعب
طريقه الشك ، اتى سار، يملكه وحلمه الشهوات الحمر والقرب(2)

ومهنا حاول الانسان ، في نظرهما ، تعويض الفراغ الذي يحسّه لن يفلح ، فيظل نهمه قائما ، وجشعه قاضا ، يحاول دائما ايهام نفسه باشباعها ولكن بدون جدوى فما فسد به لن يصلح .
يقول بودلير :

ان عقم شهواتك اللاذع
يظمئ عطشك ويصلب بشرتك .
انتن اللواتي ، لحقتكن روحي الى جهتمكن ،
أخواتي المسكينات ، أحبكن بقدر ما أشفق عليكن
من أجل آلامكن الكئيبة ، وعطشكن الظمئ . (3)

1- " أفاعي الفردوس " " سدوم " . 35 .
2- نفسه " في هيكل الشهوات . 32 .
3- 169 . Les Fleurs Du Mal.(Les Femmes Damnées).

وفي سياق هذا النهم غير الشبيع بقول الياس :

وسوف تنسين ، ياأخت الدما إفهمي كما نسيت على رغم الدماء ، فمي !
عشرون قلبا شربت الحب من دمها وما شبعت ، ولم يشبعك شرب دمي
اذن فسوف تظل النفس جائعة حتى يجف دم في غلفها النهم (1) !

ويقول ثانية :

سترجعين ! ... ولكن مثل آمالي جوفاء مشلولة في جسمك البالي !

ويقول ثالثة :

ان ترجعي دمك الشهي لتبعه كم جدول في الأرض راجع منبعه (2)

أما الجمال القاتل : فهو يتسم بالعنف بما فيه الثورة والتمرّد والرغبة في الانتقام والسخط والحقد وحتى الانتحار ، فجاءت صوره دامية مرعبة ، تصعد منها موسيقى عنيفة حزينة تحدثها المخالب والأنياب على الأجساد الباردة ، ومصّ نخاع العظام ، والدم ، بشكل سادي ، تملأ جوّ الشاعر بنغمات اليأس والضجر والغثيان . انّه جمال ينفي الواقع ، وينفي الوجود بما فيه الشاعر نفسه ، ومن أجل ذلك يودي الشاعر بنفسه الى الهلاك ، ويقول فرانسوا بورشي François Porché ، بأنّ بودلير اكتشف في الشهوة الجنسية منطقة أخيرة ، ونهاية حتمية ، وهي الرغبة في الهدم والنزوع الى القتل (3) ، وعلى هذه التربة السامة ينبت بودلير "أزهاره" ، ولقد استخدم الياس نفس التربة ونفس العناصر ليؤلف "أفاعيه" :

---

1 ـ "أفاعي الفردوس" "الشهوة الحمراء" . 41 .

2 ـ " " " سدوم " . 35 .

3 ـ Baudelaire Histoire d'une âme . 245 .

وإذا كان الشاعر يحس ويعي الشر العالق به ، فانه يحسّ ويعي في الوقت نفسه بأنه يستحيل الخلاص منه ، فتظل هذه الشرور بمختلف أنواعها جذوة حية تذكره بعقابه ومنفاه في هذه الأرض، ومن هنا يحسها الشاعر " نصلا " يتحرّك في جرح قديم ، واهانة تدوسه باستمرار ،وفي الوقت نفسه يحس بأنه موجود بوجودها لا مفكّ له منها ، بل أن لها عليه سلطة المولى على عبده ، أو المعبود على عبده ، فتتساوى الكراهية والحاح الحاجة اليهافي نفسه .

ويلجأ بودلير ، ومن بعده الياس، الى الغرائز الجنسية ليبلورا اعتقادهما الفكري في الفن ، فيتخذان المرأة رمزا لهذه الغرائز والشهوات تصنع بهما ما تشاء ، وهذا الياس يقول :

أصبح الليث في يديك أسيرا فأطرحيه سخرية للحمير
ان قاضي المستعبدين لعبد وقضاة عور قطاة العور
هم رموز الشقاء والفتن الحمراء والغدر والزنى والغرور (1)

ولقد جاءت قصيدة بودلير " الهامة " (2) -(Le Vampire)- لتصف بدقة استيلاء هذه الشهوات ، التي يرى فيها هامة تمتص دمه ، ونصلا يشق فؤاده ، وشيطانا يسكنه ويهينه ، لكنه مرتبط بها ، بل هي آفة تسكنه ، وقد حاول استعمال ارادته للتخلص منها ثم حاول الانتحار، الا أن للارادة والانتحار يحتقرانه ، ويقولان له بأنه ملعون لا يستحق أن يغاث من عبوديته ، لانهما لو أغاثاه لسوف ينقض ما فعلا ويعود اليها من جديد .

ولهذه القصيدة الاثر الكبير في قصيدة الياس " الصلاة الحمراء " (3) حيث تساوي رغبته في الخير والنور، رغبته في البقاء في الشر والظلام، يقول :

---

1 - " أفاعي الفردوس" " شمشون " . 21 .

2 - Les Fleurs Du Mal .(Le Vampire) 37

3 - " أفاعي الفردوس" . 50 .

ربّاه عفوك اني كافر جان ... جوعت نفسي وأشبعت الهوى الفاني
لمّا استفاقت عيوني ... في ذلتي وهواني
عزمت أن أتمرّى ... من شهوتي فتاني
وقال لي : الحكم حكمي ... والأمر طوع بناني

. . . . .

أدعوك والظلمة تحرقني ... فلا تجيب وتلوي لا تنجيني
أعرضت عنك غداة القلب ضللني ... كأن شهوة قلبي عنك تغنيني
وحين أوقظت من سكر الهوى خجلا ... يحثت عنك وكاد العار يخفيني
فلم تمل قلبك الرحمن عن ألمي ... وقلت : " تطلبني بين المساكين "
لكنني عدت بعد الـ ... تكفير عن تيهاني
الى ذنوب جسام ... كثيرة الألوان

ويقول أيضا في سلطان الشهوات عليه :

سترجعين ولا أقصيك عن جسدي ... حتى تحلّ الليالي الحمر أوصالي
حتى يحل وباء الخلد في كبدي ... ويعلق العار من بعدي بأذيالي!
وكلما ذكراسمي مرّ في فمه ... ذكر التي صقلت للموت أغلالي
ذكر التي احتضرت عمري بشهوتها ... وخلدت عمرها الدامي لأجيال! (1)

ويقول بودلير :

تطير الفراشة مفتونة نحوك أيتها الشمعة
تتفرقع ، تلتهب ، وتقول :اننا نبارك هذا المشعل!
العاشق يلهث منحن على جميلته
كأنه محتضرا يلامس قبره . (2)

1- " أفاعي الفردوس " " الشهوة الحمراء " ، 41 .

2- 28 . Les Fleurs Du Mal . Hymne à la Beauté .

وإذا آثنا بقول أحد رفاق الياس ، عن" الأفاعي " : " هو اعترافات صارخة تتواثب منها الشهوة الحمراء لاعجة محتدمة ، يمقتها الشاعر ثائرا عليها يريد أن يطّهر دمه منها ،ناقما على نفسه لاستسلامه اليها " (1) قلنا انّ الشاعر يصبح اذن عبداً لشهواته يذوق كلّ أنواع العذاب من أجلها ، فيمقت نفسه لما يتأجج بها من غرائز وآثار جهنمية تدينه وتسقطه، فيثور و يتمرّد ، و ينتقم لكرامته من هذه الآثار في نفسه ، وفي نفس رفيقته ، مثلما تنتقم هي منه لكرامتها :

مهلا إكلانا ياسدوم مسلح ... فلظاك في جسمي وثأرك في فمي (2)

حملت منجله في العهر منتقما ... من النساء فهاتيه لتنتقمي (3)

ويقول بودلير:

سأمتص ، لأغرق حقدي ،
السّلوى والجيّد من سمّ الشوكران
من الأطراف الفاتنة لجيدك الرقيق
الذي لم يسجن قلبا أبدا . (4)

ويقول في مكان آخر :

لتمرّني أنيابك على هذه اللعبة الغريبة
ينبغي أن يكون لجهاز أسنانك قلب في كلّ يوم
أيتها الآلة (...) شاربة دماء الناس (5)

---

1 ــ م •مؤلفين • دراسات وذكريات • 20 •

2ــ "أفاعي الفردوس" • (سدوم) • 35 •

3ــ (الشهوة الحمراء) 41 •

4ــ 164 • Les Fleurs Du Mal . (le Lethé) . 164.

5ــ 31 • " " " " . (Tu mettrais l'univers entier dans ta ruelle):.

والياس يقول :

أنا اتحدنا ليوم واحد ، وغدا يأتي فيخلفنيّ قوم بحبهم
وسوف تنسين ، ياأخت الدما إفهم كما نسيت ، على رغم الدماء فمي !
عشرون قلبا شربت الحب من دمها وما شبعت ولم يشبعك شرب دمي (1)

وكأن الحب آلة ضخمة مرعبة تلتهم الشاعر وتمزّقه تمزيقا ، لكنه لا يستطيع الاستغناء عنها ، بل سيضحي تضحية بشعة عن نوع من الاختيار والرضى من أجل تذوّق الجمال .

يقول الياس :

ومن القصيدة نفسها :

خلقت تحترفين الموت فاقترني مني فاني احترقت الموت من قدم
هاتي من العهر أشكالا ملونة نعهر بها بعضنا بعضا وتنهدم
هذا هو الليل فاسقي السم هاتفة لعلّ في الناس قوما بعدما شربوا
خربت قلبي وأطعمت الوحوش دمي في كلّ مخلب وحش منهما خرب

وفي قصيدته " حديث في الكوخ " (2) يقول :

لا تجسّي قلبي فلم يبق فيه من بناء الماضي سوى أخشاب
قلت للمرأة التي آلمتني حين قالت : الله ! ما يشقيه ؟
"لي قلب أفرغته فاتركيه في الهوى فارغا ولا تملأ يه !"

وهذا بودلير يقول :

تنساب يدك بلا جدوى على صدري الذميل ،
ان ما تبحثين عنه ياأختاه

1ـ " أفاعي الفردوس " . "الشهوة الحمراء" . 41 .
2ـ نفسه . 47 .

موضع خريته مخالب الأنثى المفترسة وأنيابها ،
لا تبحثي بعد عن قلبي فقد أكلته الوحوش
أردت شيئا فكان ، أيها الجمال يا وباء الأرواح الوبيل
أحرق هذه الأفلاذ التي زهدت فيها الوحوش
بعينيك المتوهجتين اللامعتين كالأعراس • (1)

والياس مثل بودلير يدعو حبيبته للموت :

فلنمت يدا بيد ولتغب البريق
بين شهوة الجسد والرحيق ! (2)

وهذا بودلير يقول :

تخيلي يا بنيتي
تخيلي يا شقيقتي
عذوبة رحيلنا الى هناك لنعيش معا
لنتحاب في هنا
لنتحاب ونغني • (3)

وسيبقى هذا الجمال سرابا وسرا خفيا يثير ، دوما ، اهتمام الشاعر القوي ، ويسبب له جراحا وضنى ، يقيم له علاقة بما هو الهي (4) ، وهذا هو الجمال البودليري ، الذي وجدنا له أثرا واضحا في " أفاعي الفردوس " وعلى العموم ، فهو جمال يتسم بالغموض والابهام ، والالمام به في حقيقته

1- " أزهار الشر " Causerie. ترجمة مصطفى القصري ، 118 •
2- " أفاعي الفردوس " " شهوة الموت " • 45 •
3- " أزهار الشر " "Invitation au Voyage" ترجمة مصطفى القصري • 79 •
4- ينظر • Noël TaConet . 46

صعب،وتحديده في تعريف واحد أصعب ، انّه جمال مركب من المتناقضات (1) ، وليس الهدف من اقامة الضدين وجها لوجه فيه ، تحقيق الجمع بينهما ، أوخلق ألفة فنية تجعل بعضها ينسجم مع بعض ليكونا عالما واحدا تتفتح فيه شاعرية الشاعر - لأنّ الشعر بهذا المفهوم سيتسم بصفة الاستقرار ، وهذا ما ينافي الديناميـة والحركة الدائمة التي أرادها بودلير لشعره - بل يثبت الضدّان وجها لوجه، أو يخترق الضدّ ضدّه للعمل على خلق عوالم جديدة منيعة " أقل بشاعة وزمن أقل ثقلا " (2) ، عوالم روحية تكمن فيها قدرات الشاعر على التحليق فيها • (3) ، وهذا هو المعنى الذي تضمنته قصيدة الياس "شمشون " وقصيدة بودلير " سمو"•

وكانت أهم العناصر التي قام عليها هذا الجمال - والتي تأثر بها الياس في"أفاعيه " - هي الجرأة الفنية والاحساس المرهف والذكرى والحلم والخيال الخصب والأسلوب القائم على التناقض،مما سنتعرض له في الفصل القادم •

---

1 - ينظر • 141 • Max Milner .

2- " أزهار الشر" • 28 • (Hymne à la Beauté)

3- ينظر • 141 Max Milner .

الفصل السادس

1 - الجرأة الفنيـة :

لقد أسكن بودلير شعره في أراض خربها الخطأ والحرام (1)، وأبى الياس الا أن تستأنس "أفاعيه" "بأزهار الشر" ، فكانت أراضي سخية طبق فيها الشاعران نظرياتهما الفلسفية والفنية ، فكانت الدعارة والفسق والحرام ، وفتنة الشر المتقنعة بالشهوة واللذة بصفة عامة ميدان تجاربهما الجريئة ، والعلاقة الجنسية بصفة خاصة ، وذلك لتجسيد فساد الطبيعة بصورة أكثر، لأن مفهوم الشاعرين المسيحي ، للوجود الانساني يقوم على أنه سقوط في الخطيئة،وأن العلاقة الجنسية سمة بارزة من سمات هذا السقوط ، وفي هذا العالم الساقط يبحثان عن المثال . يقول أحد دارسي الياس في "أفاعيه" : "وأهم ماعني به الشاعر تصوير نزعة الشر في النفس البشرية ، وفي الجنس خاصة، (الشهوة الحمراء) التي تتحكم في تصرف الناس وميولهم وما يكون لها من آثار في المجتمع" (2) .

لقد اتسم سلوك ،كل من بودلير والياس، الفني بالجرأة ، فخاضا في عالم معتم يتخوف البوح به كل الناس ويمقتون الحديث عنه رغم وجوده داخلهم ، ليخرجا منه بجمال فني يمتع النفس، وكان ذلك جرأة بالنسبة للشاعرين معا ،لأن كلا من "أزهار الشر" و "أفاعي الفردوس" آثارا استغراب واستنكار الأوساط الأدبية عند صدورهما ، فلم يكن لهذا المجتمع أوذاك استعداد لتلقي مثل هذا الشعر،الذي يهزأ بالتقاليد الأدبية والاجتماعية والدينية القائمة في عصرهما (3) ، ولنا هذا الشاهد من قول علي سعد عن "أفاعي الفردوس" : " وان من زار البقعة اللبنانية التي ترعرع فيها وعاش أبو شبكة وتلمس الجو المعنوي العميق

---

1 - ينظر . R.B. Chérix . XXIX .

2- رفائيل بطي . الثقافة . ع 426 . 21 . 1974 .

3- ينظر . المكشوف . ع 211 . 1939 .

و . . رزوق . ف . ر. 201 .

=

الجذور في النفوس، ليعجب للجرأة التي استطاع بها أبو شبكة أن يغتني تلك النغمات السوداء المحملة بأنفاس الجحيم وشهوات الجسد ولعنات الروح . وهولاشك يقدّر مدى تحرر هذا الشاعر من قوى المجتمع الذي يحيط به واندفاعه في المناداة بحرية الفكر في معالجة الأعماق التي وضع العرف الأدبي حولها نطاقا من الحظر الشديد " (1) . لقد كسّر الياس ذلك النطاق ليشق طريقا جديدة في الشعر العربي الحديث، كما يشهد له بذلك بعض النقاد في قولة عنه انه " فتح جديد في عالم الشعر العربي على الاطلاق ، اذ لم يسبق شاعر قبل أبو شبكة أن تغذ الى أعماق النفس البشرية وعرّاها من شهواتها ورسم هذه الشهوات في صراحة وجرأة بعيدتين دون تبذل وانحطاط ولاتكلف أو زيف " (2) .

ومثل ما سار الياس في طريق بودلير هذا، سار في طريقه هو شعراء كانوا متحفظين في الافصاح عمّا يحسون به من عواطف جياشة، فاعتنقوا الجرأة والتحدي (3) ، والصراحة المتطرفة (4) في التعبير

= وينظر . Antoine Adam . Les Fleurs du Mal . III

وينظر . 17 . J.P. Fanaux . Baudelaire. Spleen et Idéal . (ouvrage collectif).

1 _ الأديب . ج 3 . 3 . 1953 . الياس أبو شبكة بين نداء الذكرى وجاذبية الهاوية .

2 _ المكشوف . ع 173 . 6 . 1938 . ويشهد ميخائيل نعيمة بأنه لم يعرف شاعرا من شعراء العهد الجديد يستطيع أن يأتي بمثل " أفاعي الفردوس أو يدانيها في وصف الشهوات الجسدية الجامحة . (ينظره دراسات وذكريات . 25) . وقال سليمان فؤاد : وفي اقدام أبو شبكة على ولوج أبواب هذا الفردوس السحري المخيف جرأة مانعهدها في شاعر من شعراء العربية " (ينظر . المكشوف . 182 _ 1939) ، ونفس الفكرة موجودة عند علي سعد . (الأديب . ج 3 . 7 . 1953) .

3_ ينظر . رزوق . ف . ر . 24 .

و " . نذير العظمة . الشعر في معركة الوجود . 41 . =

الفني . وهناك من يرى بأن هذا الجانب المتمرّد في نفس أبي شبكة عنصر أصيل ، (1) وأن الياس لم يكن نسخة من سواه ، بل الرائد في هذا الطريق الجديد ،(2) فلا جدال في أن يكون الياس زعيم الأدب الأسود بجرأته هذه،بلا منازع في الأدب العربي الحديث كما رأى آخرون (3) ونحن نشاركهم شهادتهم هذه مادمنا داخل حدود الأدب العربي الحديث ، الا أنه لا يمكننا ، ونحن نقرأ لبودلير " أزهاره " ، التي قرأها الياس وهضم مدلولها الفلسفي أحسن هضم ، أن نبقى على الرأي نفسه ، فنقول بأن هذه الجرأة هي عنصر أصيل عنده ـ اذا كانت الأصالة تعني الابتكار إـ ، وما علمناه هو أن الياس حبّذ هذا العنصر عند بودلير، وتأثر به ، فظهر ذلك جليا في ديوانه " أفاعي الفردوس" ، وما هذا العنصر الا جزء من مقوّمات شعر بودلير التي وجدنا جلّها شاخصا في ديوان الياس، وهو جزء لايمكن فصله عن باقي العناصر الأخرى . فهذه الجرأة مثلا لوبحثنا عن أصلها لوجدنا لها جذورا تمتّ بصلة الى الثورة والتمرّد والرغبة في الانتقام وحس العبث ، والثقة في النفس، وتأكد الشاعر من شده على حبل الحقيقة ، وايمانه بالخلود في عالم الشعر، الى غير ذلك مما جعل الشاعر يجرؤ على أن يهزأ بغير هوادة بعواطف أخيه الانسان " النبيلة " وبأناه الاجتماعي الذي يرى فيه زيفا ونفاقا (4) . فهذه الجرأة اذن جزء من كلّ يمثل نظرة بودلير في

= 4 ـ ينظر، المشرق ، ج 4 ، 510، 1938 ، /وأيضا ، دراسات وذكريات 25 و 26 .

1ـ ينظره الأديب ، ج 3 ، 3 ، 1953 .

2 ـ " ، رزوق ، ف، ر ، 204 .

3 ـ " ، الأديب ، ج 3 ، 3 ، 1953 .

4ـ ينظر في قصيدتي الشاعرين ، " شمشون " لالياس، و " الى القارئ" لبودلير، و " ، إليا الحاوي ، ج II ، 44 .

الحياة ،هذه النظرة التي وجدت صداها في نفس الياس فتجاوب معها ، وأعجب باهتمام بودلير بالوجود الانساني عموما ، وبالنفس البشرية خاصة ، وهو الذي يرفض النظريات التي تسجن الشعر وتلويه عن قصده فيصبح " زيا يتلون بتلوّن الأهواء " ، ويرى بأن النفس هي التي " لا تخطئ لانها معكس ومصهر لحقائق أبدية هي الطبيعة والحياة " (1) ، ويعلن عن اعجابه بطائفة من الشعراء الغربيين الذين ارتفع شعرهم عن الفرضيات الزائلة الى المصدر الأدبي ،ويتابع " فرأينا بودلير البرناسي يصدر عن نفسه ويلتقي فرلين الرمزي على صعيد واحد..." (2) ، وفي مكان آخر يقول: "حين يطلع فنان عظيم جدا ـ نحاتا كان أو موسيقيا ، أو مصوّرا أوشاعرا على جمهور ما وعصر ما ، بما يناقض جوّ هذا العصر وما اعتاده من طراز في الجمال والأدب ،فانّ ثورة هذا الجمهور عليه تكون عامة" (3)، فكل هذا يدلّ على أنّ الياس اقتدى بجرأة بودلير فكان تابعا لا مبدعا في هذا الطريق ، وما يمكن قوله بجدارة ، هوأنّ تأثره كان عن اقتناع نظري كامل باتجاه بودلير الفني والفلسفي معا ، هذا الاتجاه الذي فرض اعادة النظر في الفن ككل ، في حقوقه وحدوده التي تصدّى لها وتحداها صاحبه بصراحة وعن وعي (4)، انّها جرأة تتغذى ، كما سبق ،من موقف الشاعر تجاه الوجودالانساني كموقف فلسفي خاصّ به : فالانسان يعيش على هذه الأرض سقوطه، وهو واحد لا يختلف عن أمثاله حيثما كانوا ومتى وجدوا ، ممّا جعل بودلير يسترجع المأساة الانسانية المستترة تحت حشمة كاذبة مزيفة (5)

---

1 ـ " أفاعي الفردوس " . من المقدمة . 13 .

2 ـ نفسه .

3 ـ دراسات وذكريات . 205 . "ليون دوده في كلام له عن بودلير".

4 ـ ينظر. 194 . Benjamin Fondane .

5ـ ينظر قصيدتي " الى القارئ " و " شمشون " .

انطلاقا من تجربته الخاصة،واعتقادا منه بأن على الفنان الحقيقي أو الشاعر الحقيقي ،ألا يصور الا ما يشاهده ، ويحسه، كما يجب عليه أن يكون، حقيقة ، وفيا لطبيعته الخاصة . (1) ، وهذا ما مس الوتر الحساس في نفس الياس،وعبر عنه في " أفاعيه "، ولقد اعترف ،بلا حرج بأن في "دون جوان " ،في ديوان غلوا، بطل الشهوات الخبيثة ، شيء من شخصه وهو فخور بذلك (2)، ويقول بأن :" الانسان صورة مصغرة عن هذا العالم الكبير(...)،لم أشأ أن أرسم شيئا لم أشعر به ولم أره لألا أخيط فيه ، وأزيف الحقيقة ، فلذلك بنيت الموضوع على شطر من حياتي الغرامية ، أقول ذلك بكل جرأة ، رافع الرأس" (3)، وذلك لأنه يرى ،مثلما يرى بودليرهأن الضعف الذي يكسر شوكة ارادته ويجعله لا يستطيع الامتناع عن السقوط في الخطيئة قاسم مشترك بين أبناء البشرية فهو ورائي (4)، والانسانية جمعاء تحيا تحت رحمته ، مما جعله يستعير " صورا بودليرية عنيفة غريقة بالشبق والشهوة" (5) ويعلن عن ذلك بشجاعة وصراحة في بيت له من قصيدته "سدوم " قائلا :

وعصبت بالشبق المجرجبهتي   فرفعتها في عصري المتهكم (6)

ولم نلمس وراء تأملاتهما وملاحظاتهما هذه بغية نكراء ،كتشجيع الرذيلة ، بل نلمس أنهما ينفران منها ، وهذا ما أجمع عليه أغلب دارسي شعرهما ،

---

1 ـ ينظر . 320_321 (Curiosités Esthétiques. La Reine des Facultés

2_ " .جورج غريب . دراسات وذكريات . 109 .

3_ نفسه .

4 ـ ينظر . Marcel Ruff. Baudelaire . 14

و " . Georges Poulet . 11 et 12 .

5_ بديع حقي . محاضرات الموسم الثقافي (1960 ـ 1961) .84.

6_ " أفاعي الفردوس" . 35 .

وهذا الياس يقول في قصيدته " الشهوة الحمراء " :

ولتكن هذه الاشارة رمزا　　لاصفرار على الملذات سرّا
لوّنيها بالاصفرار الى أن　　يختم الموت نزعها المستمرا (1)

ولم يلمّح بودلير الى اضطراب الشهوات ، بل صرّح بذلك ، وأدرك خطورتها في حياته ،كانسان ، فاقتحم عالمها ولم يتراجع ، ولعل هذا السبب يرجع الدارسون اليه التعمّق في الاحساس (2) ، وبه اقتدى اليــاس الذي رأى في اتجاهه هذا ،مارآه أحد المهتمين بأدب بودلير، القائل بأن شعر بودلير لم يكن شعرا " واقعيا " بمفهومه السطحي ولا بمفهوم المدرسة التي تحمل هذا الاسم ، يعني الواقعية ، بل هو رؤية حادة للحقيقة العميقة ، التي حطت داخلها قوة فرضت بها وجودها في الوسط الفني ،وما كان حقيقة ، فالانتصار والخلد يبقيان حليفيه دائما وعلى مدى الزمن (3) ، ولقد تفطن الياس الى هذا كله فاستفاد وأفاد ، ومن هذا كله استمدّ كلّ من الشاعرين ثقته بالنفس وبالمستقبل متحديا الحاضر، أوليس هذا ما يقصده الياس، وهو متقدم في " أغانيه " على مالم يجرؤ الاقدام عليه أحد من معاصريه !؟ في قوله :

حتى يحل وباء الخلد في كبدي　　ويعلق العار من بعدي بأذيالي !
غيرأني ،ولي يراع مدمّى،　　سوف ينقى ذكري وتنقى دمائي
ستقول الأجيال كان شقيا　　فليقدس في جملة الأشقياء.
ويرفع الحب في كل زاوية　　من القلوب ضريحا خالدا عالي
أما الشباب ففي أقصى سلالته　　لن ينتسي كيف كانت في الهوى حالي
سينظر الغد في أمسي ويغفره　　لأنّ قلبي كنفسي غير محتال

1- " أفاعي الفردوس " . 43 .

2- ينظر . François Porché . 306 .307 .

3 - " . نفسه . 304 .

وكذلك في قولـه :

أجل ستذكرك الأعقـاب والحقـب ما دام في الأرض من صلب الزنوعقب(1)

أوعنـدما قال بودليـر :

أقـدّم لك هذه الأبيـات حتى اذا ما رسا اسمـي
لحسن الحظ ، في العصـور البعيـدة ،
كمركـب ساعـده شمـأل كبيـر ،
وبعث العقـول الانسـانيـة ، ذات مساء ، على الحلم ،
ذكرك ، مثل الأساطيـر العريـة ،
يُتعِبُ القارئ مثـل سنطـور
وحلقـة أخويـة رمـزيـة
يبقى كأنه عالـق بقـوافـي التعاليـة .(2)

وبودليـر يخاطـب شبيهـه وأخـاه المنافـق بصراحـة ، وبأسلـوب مباشـر في قصيدتـه الافتتاحيـة المعروفـة " الى القارئ " ، أخـاه الذي هو متأكـد من أنـه يفهمـه ، ويحـس مثلـه وسط الشر، بأنه مذنـب وضحيـة في آن واحـد (3) ، ويقينـه بأن الأحيـاء يشتبهون ويعانون المعاناة نفسهـا أمام مصيـر واحـد ، هو الذي مهّد لهذه الجرأة والصراحـة في شعـره ، وهذا ما يمكننـا قولـه عن اليـاس في" أفاعيـه " .

---

1 ـ " أفاعـي الفردوس " "الشهـوة الحمراء " .

2 ـ 45 . Les Fleurs du Mal (Je te donne ces vers afin que...)

3 ـ A. Louis . 20 .21. 57 . 58 .

2 ـ الحساسية في بناء الشعر :

لقد أحسّ كلّ من بودلير والياس احساسا قويا بأنهما مذنبان وضحيتان في آن واحد ، انّه احساس مركب ، يحتل الدواوين ويتولد عنه ألم مزمن ، وستكون هذه العناصر الثلاثة من احساس بالذنب واحساس بالتضحية واحساس بالألم ، مصدرا لكلّ الأحاسيس ومنبعا لها لا ينضب ، تتغذى منه ، ومنه تنطلق ثم اليه تعود .

انّه الصراع والانفصام والثنائية الفكرية المعروفة في " أزهار الشر " و " أفاعي الفردوس " ، ولقد عرف كلّ من بودلير والياس بالاحساس القوي ، والوعي الحاد بمصير الانسان ، والمعرفة الدقيقة بالنفس البشرية ، والنقد الذاتي ، والضمير الحي ، الذي لا يسهو ولا ينام ، والادراك المميز للسقوط ، بحيث كان هذا الاحساس المرهف القوي مصدر ابداعهما الفني في تحليل عواطفهما وأحاسيسهما الى أقصاها (1) ، وبوعي الشر أراد أن يتميز بودلير (2) عن " اخوته الاغبياء " في الشقاء ، ومثله أراد أن يفعل الياس .

وبودلير يولي الحساسية عناية كبرى ، فأوصى الاّ يستهان بحساسية أيّ كان ، لانه يرى ، في حساسية كلّ واحد ، عبقريته (3) ، ولقد اعتمد الياس مثل بودلير نفسه (4) مقياسا لتحليل النفس البشرية والحكم عليها ، فاتخذ كل منهما وعيه الحاد وضميره المتقد سكينا في الجرح الذي يمثل الواقع المعيش ، وحياة السقوط المحتومة ، ولم ينس الشاعران خروجهما من الجنة ، بل لفظهما منها الى هذه الأرض ، ويبقى هذا التصور للحياة كابوسا متسلطا على فكرهما ، وجرحا قديما يتلذذان باثارته واحيائه ،

---

1 ـ ينظر . Lloyd J.A. 120

2 ـ " . نفسه . 112 .

3 ـ " Baudelaire Art Romantique . XII . 426 .

4 ـ ينظر . جورج غريب . دراسات وذكريات . 109 .

وذلك بالغـور في أعماق نفسيهما وطبيعتهما الساقطتين مثلما يغـور السكين في الجرح (1)، فيحدث ألما مرغوبا فيه ومقدسا عندهما، يعتبرانه بركة وسمة من رضى اللّه ،مادام الألم وسيلة للخلاص(2) وخشبة انقاذ للانسان على هذه الأرض .

وهذا الياس يتلذذ بألمه يقول :

أطفئ ضياءك واظلم مثل اظلامي — وخلني في كوابيسي وأحلامي
فربّ نيّرة بالليل ! توقظني — الى العفاف فأنسى عبء آثامي

ولعلنا نسمح لأنفسنا بتجاوز "أفاعي الفردوس" قليلا فنستشهد بأبيات نشرت بعد صدور الديوان بسنوات قليلة ، فقدّرناها جذوة من لهيب "أفاعي الفردوس" لم تنطفئ بعد :

سقيت روحي — من الألم
فمن جروحي — هذا النغم
وكل ما بي — من العذاب
يذوب حبا — على كتابي
يفيض ثورْ — من الشعور
على مدادي
ياحبّ عذب — عذب فؤادي (3)

ولقد قدّس بودلير الوعي والألم اذ يقول :

ان وعي الشر
لانفراج وانتصار عجيبان (4)

---

1 ـ ينظر . 31 . J.P .Sartre .
2 ـ " . 156 . Pierre Emmanuel .
3 ـ الأديب . ج 10 . 10 . 1942 . "العذاب الشهي" .

ويقول :

شكرا لك ربّي ، يا من تمنح الألم دواء لأخطائنا
وهو الزاد الوحيد الذي يهيىء النفوس القوية للمسرات الالهية
رب إني لأعرف انك استبقيت مكانا للشاعر في ركن من
أقداسك السماوية .
الألم هو المجد الوحيد الذي لا تأكله النار ولا التراب ... (1)

ولقد حمل ، كل من بودلير والياس، على نفسه أن يكون شاهداً على ما بنفسه من غرائز وشهوات دنيئة خسيسة (2) ، وأن يكون جلاد نفسه (3) ، وستكون قصائد "أزهار الشر" و "أغاني الفردوس" أحسن شاهد على هذا الصراع القاتل بنفسيهما ، والتسمّم والتحطيم الذاتي المشبّع بالثورة والتعذيب الروحي (4) .
يقول الياس :

أحس في جسدي شوقا يعذبني ففي دمي سورة كالخمر في جامي
. . .
أميرة الشهوة الحمراء ، ان دمي من نسلك الهادم المهدم فاحترمي
. . .
لقد تعبت من الأحلام في جسد مّل العفاف بألوان من الألم
. . .
أشقى بلذتي الحمراء في جسدي ...... (5)

---

1 ـ "أزهار الشر" "Bénédiction" من ترجمة ، ابراهيم ناجي ، 82 .
2 ـ ينظر ، قصيدة "الصلاة" الحمراء" من "أغاني الفردوس" ، 50 .
3 ـ " . J.P. Sartre . 31 .
4 ـ " . Noël Taconet . 55 =
"ـ 4 ـ 85 . Les Fleurs du Mal . "L'irrémédiable "

ويقـول أيضـا :

لا يضمر الحبّ الا في محاجـره فعينـه للهوى والقلـب للثـار (1)

ويقـول مـرّة أخرى :

ولقد ينصر الجحيم فيردي بعضه ما ببعضـه من خـلاق (2)

لكن الفكرة تبـدو أوضـح وأقـوى عند بودليـر منها عند اليـاس، يقـول بودليـر :

في أراض سـرمـدّة محروقـة بلا عشـب
كنت أشكـو الى الطبيعـة ،
ماشيا في غير هدى ،وفي فكـري
أسـتن ،ببطء ، الخنجر على فـؤادي ،
فرأيت ، في عـزّ النهار
غمامـة عاصفـة مأتمية كبيرة، تنزل على رأسـي . (3)

ويقول في قصيـدة أخرى :

أنا الجرح ، وأنا السكيـن
أنا الصفعـة ، وأنا الخـدّ
أنا العجلـة والاعضـاء
والضحيـة والجـلاد
أنا هامـة فـؤادي . (4)

=5 ـ " أفاعي الفردوس " " الشهوة الحمراء " . 41 .
1 ـ " " " الديمونـة " . 56 .
2 ـ " " " الطـرح " . 60 . =

يقـول بودليـر :

آه ، ما أعظـم الدنيا تحت نور المصابيح
وما أحقـرها في عين الذكريـات . (1)

كما كانت ملجـأ الشاعر أثناء محاولاتـه الهروب من الواقـع العام والخـاص عن طريق وسائـل شتى ، ولقد كانت ، هذه الذكرى، على رأس هذه الوسائـل عند بودلير، فعنده ، دون غيره ، لم يؤثـر عليها الزمـن ، بل تبقى كما هي بقدرتها الخـلاقـة ، و "أزهار الشر" كلـه يقـوم على ماضييـن الأول ساطـع فردوسـي سعيـد والثانـي مظلـم لايعوض.(2) وتشكـل الذكرى عنصـرا أساسيا من عناصر شعره ، (3) بل هناك من اعتبـر "كل قصيـدة لبودليـر ذكرى " (4) ، ورأى فيها بودليـر وسيلـة "لا زعاج مصيـره وتبديلـه بمصيـر من نوع جديـد " (5)، حتى ليصـور بأنـه يملـك القـدرة على بعث الماضي في الحاضر والتمتـع بالعيش فيـه ، اذ يقـول :

أنا عليـم بفـن تذكـر اللحظـات السعيـدة
وأعيش ماضـي ، كامنـا على ركبتيـك . (6) .

ويقـول ،أيضا ،متحديا الزمن بذاكرتـه :

وآن الزمـن ، العجوز الشائـن ، (...)
أيها المغتال الأسـود للحياة وللفـن .
لن تقتـل ، في ذاكرتـي ، أبـدا ،
من كانت شهوتـي ومجـدي . (7) .

1- "أزهار الشر" (السفر) ترجمة مصطفى القصري . 137 .

2- ينظـر . 16 . Georges Poulet .

3- " . Boppléon. Psychologie des Fleurs du Mal .T2 .813 .

وهناك قصائد أخرى غير هذه، اعتمد فيها بودلير الذكرى وهي كثيرة(1)، كذلك نجد الياس يستغل هذا العنصر في بناء قصائده، وان كانت نسبة استغلاله اياه تقل عن نسبة استغلال بودلير، ونذكر على سبيل المثال قوله :

والنار تمحق الآلـ تذكار في الأذهان
تلك الليالي المواضي لا يزال لها بين الخرائب في عيني أطلال (2)

وفي قصيدة أخرى يقول :

ذكرت ليلة أمس فاختلجت لها ....
ذكرتها غير أن الشك خالجني : ....
لي ذكريات كأخلاقي تؤنبني فلا يخالجني روغ ولا كذب !
أبقى لي الامس من غلوائي عفتها ولم يزل في دمي من روحها نسب (3)

ورديف الذكرى هو الحلم لأنه يقوم عليها وقد استغل الياس معاني الحلم كثيرا في " الأفاعي " ، على طريقة بودلير ، والحلم الذي يهرب اليه الشاعر بذهنه ، مثله الذكرى يقيمه ويقره في وجه الواقع المعيش، على خط موازله ، فيتحرر فيه من المعقول الى اللامعقول ، ليغيبوا عن الواقع أحيانا ، وعن عوالم غريبة أحيانا أخرى ، انه الحلم الذي يتسع لما يختلج في نفسه من الاحساسات الغزيرة المتشعبة، ولدينامية خياله الخصب ، يقول بودلير :

-4 = Juliette Hacine • 116

-5 Georges Poulet • 39

-6 Les Fleurs du Mal. (Le Balcon) 40

-7 " " " " . (Le Portrait) 44

1- ونذكر على سبيل المثال لا الحصر• 29 (L'aube Spirituelle)(le parfum 'exotique 29) , (Le Cygne), (Le Parfum.43) 51.

=

ستهرب من دون راحة ولا هدنة
نحو فراديس أحلامنا . (1)

وفي قصيدة أخرى يستجيب ، للصوت الذي يناديه فيقول له :

" : تعال ! آه ! تعال لنسافر في الأحلام ،
بعيدا عن الممكن ، بعيدا عن المعروف ! " (2)

ويقول الياس :

حلمت بدنيا - ليتها لا تبدد لذائذ أحلامي ولا كان لي غد !-
أضن بانشادي على الناس سحرها وهل في الورى أذن اذا قمت أنشد (3)

لقد أشار الياس الى هذه الدنيا ، دنيا الحلم ، ببيتين دون تفصيل ، لكنه ضمّنهما ايحاءات كثيرة ، بينما نجد الطرف المضاد ، وهو الواقع ، ينال التصيب الأوفر من القصيدة ، تذكر منه بعض الأبيات :

وأوقظت مذعورا الى شر هاجس كأني روح ، في جثام ، مشرّد
- تفيق من الحلم الشهي الى رؤى : كوابيس في يقظاتنا تتــــرد -
فألفيت دنيا من فواجعها الورى على بابها لوح من الرّق اسود
قرأت عليه احرفا خطها اللظى يروعك منها اثنان : "سجن مؤبد"
وأغمدت في صلب الدجنّة ناظري وفي كل جفن لي من الهدب مبرد
فأبصرت اطباقا تعمّدها يد : أصابع من عظم ، وتصبغها يد
صباغ يفور الخزي منه ملاصقا اذا علقت فيها النواظر تجمد (4)

- 2 - " أفاعي الفردوس " " الصلاة الحمراء " . 50 .
3 - " أفاعي الفردوس " " في هيكل الشهوات " . 32 .
1 - Les Fleurs du Mal .(Le vin des Amants) ;125 .

ويتابع الياس ، الى آخر القصيدة ، ما يحسّ به ويراه من مفسدة وخزي وقذارة الى غير ذلك ممّا تنفر منه النفس وتشمئز ، مجسدا الشرّ المستولي على نفس الانسان في خفاء ، في صور مرعبة غريبة اتسعت لنظرته النافرة من الوجود الانساني .

ولقد أفاد الياس في هذه القصيدة من قصيدة بودلير (الحلم الباريسي) (1) التي يقول فيها :

من هذا المنظر العجيب ،
الذي لم ير مثله فانٍ أبدا .
لا تزال تغتني منه ، هذا الصباح ،
صورة تبدو مبهمة وبعيدة . (2)

وينطلق بودلير ـ حيث وقف الياس في" القاذورة " ـ في وصف عالم الحلم هذا ، بكل تفاصيله وألوانه الزاهية ، في نشوة وذهول وسعادة ، الى أن يسقط من عل في عالم الضجر والسأم ، حيث يستيقظ على ذعر وبشاعة ، وذلك في المقطعين الأخيرين من القصيدة ، فكانت الرابطة التي تربط بين العالمين المتناقضين حركة انحدار مؤلم ، وشبه فنية ، في الوقت نفسه ، يحافظ بها الشاعر على الشطط الروحي الذي انبرى له في شعره .

2_ Les Fleurs du Mal . (La Voix) .183 .

3_ " أغاني الفردوس " " القاذورة " 96 .

4_ نفسه .

1_ 113 . Les Fleurs du Mal . (Le Rêve Parisien) 113 .

2_ نفسه .

يتابع اذن بودلير قائلا :

ولمّا فتحت عيني الملتهبتين باللهيب ،
شاهدت بشاعة كوخي القذر ،
وأحسست بحدّ القلق الملعون
يخترق روحي ،
والساعة ، بنغماتها المأتمية ،
تدقّ بعنف ، معلنة نصف النهار ،
والسماء تصب الغياهب
على العالم الحزين المخدّر . (1) .

وترتاح نفس كل من الشاعرين في عالم الحلم كما رأينا في هذه الأبيات، انّه العالم الذي يدركان فيه الأشياء على مستوى آخر غير المستوى المعروف في الحياة ، وذلك بفضل نشاط خيالهما الذي يعيد تركيب أجزاء الحياة وعناصرها ويشكلها بطريقة غريبة ،غالبا ما تتحدّى منطق الحياة، ولقد أوجد بودلير تطابقات مشروعة بين أشياء تظهر أكثر تباعدا (2)، ولهذا يرى بأنّه يجب على الشاعرأن يتحلى بالحسّ المرهف ، والخيال الدقيق ، فيكون الأوّل سلبيا والثاني نشيطا خلاّقا في عملية الخلق الفني الجديد ، فتقوم العلاقة اذن بين الخيال والعالم المحسوس بفضل عمل الخيال ، ودوره الفعال في ادراك العلاقات بين محتويات المعاني والأحاسيس، فيكون العالم الملحوظ بمثابة "مخزن صور وعلامات" يتصرّف فيه بكلّ حرية ، وكذلك يكون العالم الداخلي للانسان خزّان صور يأخذ منه أدوات بنائه الفني ،(3) وبالتالي يكتسب مفهوم الشعر صبغة جديدة بحيث يصبح "عملية خلق جديدة وليس

1_ 113 . Les Fleurs du Mal . (Le Rêve Parisien) 113 .

2_ ينظر . 69 . Marc Elgeldinger .

وَ يظر أيضا . Lloyd J.A . 57 .58 .

3_ نفسه .

مجنّود تسجيل " (1) ، اذ يقول بودلير بأن الخيال هو التحليل والتركيب في الوقت نفسه ، وهو الذي أقام المماثلة والمجاز في بداية الكون ، انه يحلّل ويفكّك الكون كلّه ليبدع عالما جديدا واحساسا بالجديد ، وذلك بأدوات بناء جمعت وشكلت حسب قوانين لا يمكن أن يكون لها مصدر آخر غير أعماق الرّوح • (2)

وبناء على هذا المفهوم للشعر، لم يتردد بودلير، ومثله أراد أن يفعل الياس ، في انتقاء كلّ الأحاسيس والصور مستخدما كلّ الاعضاء الحسية لابداع احساس سائد في نفسه ، يريد ايصاله ، ف" يطلق العنان للخيال الجامح ، ويصل بالفن الى تجريد أشياء العالم المرئ من شيئيتها ويحيلها الى خطوط وألوان وأغراض قائمة بذاتها " (3) ، وقد يكون هذا ماعبّر عنه الياس في هذا البيت، قاصدا بودلير ونفسه في آن واحد :

مجانين تستاف البلى من خيالهم يناط بهم من نسل عبقر سؤدد (4)

وفي هذا كله نجد تفسيرا لغرابة الصور المرعبة الشاذة عن الذوق الفني السليم في " أفاعي الفردوس" كقوله مثلا :

تطوّفت في غمر من الليل والخنا يعربد والارجاس ترغي وتزبد
وللحمأ الغالي نشيش ورغوة كأن الورى مستنقع يتنهد (5)

1- م • الهلال • ملحق العدد 6 • 19 • 1976 • ويقرّر المؤلف بان مدارس الفن الحديث كلها انطلقت من هذه النقطة •

2- ينظر• Curiosités Esthétiques. L'art Romantique. (tex. Etablis Par Henri Lemaitre). Classiques Garnier . 1962 .

3- ينظر• الهلال • ملحق ع6 • 19 • 1976 • و 194 • Benjamin Fondane

4- " افاعي الفردوس" " القاذورة " 26 •

5- نفسه •

أو كقولـه :

وما سرى في مقاصير اللظى خبر　　حار اللهيب به واستأسلت سقـر
ان الورى اطلقوا ريحا الى سقر　　تقود للنار قوما دانـه البشـر
حتى اطلت من الاشباح طائفـة　　في هودج يتنزى تحته الشـرر
بلـه العيون ضخام كلما وغلوا　　في مسرب من دياميس اللظى صفـروا
تجرهم بومـة حمراء في يـدها　　فأس على جانبيها صور الـدعـر (1)

ونذكـر على سبيـل المثال ، لا الحصـر، هذه الأبيات لبودليـر :

الحـب جالـس على جمجمـة البشريـة
متربعـا على هذا العرش
يتنهـك حرمتـه ويضحك بصلـف ،
وهو يصنع في مـرح
فقاقيـع تصعـد في الهواء
كأنما تريد لتلتحق بعوالـم فوق السماء

• • •

أسمـع الجمجمة عند صنع كل فقاعـة
تستجـد وتئـن وتقـول :
" متى ينتهي هذا اللهـو الوحشـي الساخر ؟
أن ما يبعثـره فمـك القاسي في الهواء
أيها الوحش المجرم الفتـاك !
هو دماغـي ، هو لحمـي ودمـي " . (2)

---

1 ـ " الدينونـة " . 56 .

2 ـ " أزهار الشر " (L'Amour et le Crane) ترجمة مصطفى القصـري . 90 .

ومثل بودلير، يطلق الياس العنان لخياله ، غير متحرّج من اللجوء الى الدرك الأدنى أو الممنوع أو المتقى شره في العرف الأدبي ، في انتقاء لغته وصوره من أجل ايصال معانيه المقصودة ، ويرى في ذلك الدكتور نعيم عطية بأنه " لن يكون ... بحسب منطق الأسور تشويها ، بل اعادة خلق ... وحتى ماهو دميم وغير أخلاقي بلغة القواميس الوضعية يمكن الآن يكون بلمسة الفن قبيحا أوغير أخلاقي ، فانّ الجميل ليس غريبا فحسب بل هو أيضا نقي من شوائب المصطلح الدارج[1]"، ولعلّ في هذا جواب عن تساؤل من قال في " أفاعي الفردوس " : "... نتساءل بصدد هذا الشعر الجريء العاري عن اللبس والغموض لماذا سلك أبو شبكة هذه الطريق ولم يجنح الى الرمز والايماء ؟" (2) .

4_ التناقض الظاهري في : الصورة واللغة والموسيقى :

ومما يلفت الانتباه ، أيضا ، في " أفاعي الفردوس " هو كثرة تلاعب صاحبه في الجمع بين ما لا يجمع ، وتركيب صور من معان متناقضة متنافرة مختلفة غير متجانسة ، انها ظاهرة ميزت " الأفاعي "، استعارها الياس من " أزهار الشر" ووظفها حيث وظفها بودلير في التعبير عن العاطفة واحاطتها بالأسرار الخفية ومنحها قوة التأثير . ولقد وجدنا جذور هذه الظاهرة في رؤية بودلير الفنية ، الذي يرى بأنّ الشعر ينتمي الى الفنون الأخرى ، كالرسم ، والطبخ ، والتجميل ، التي بامكانها التعبير على أي احساس كان : سواء أكان الاحساس بالعذوبة أم المرارة، بالغبطة أم البشاعة ، وذلك يجمع هذا الموصوف بتلك الصفة ، سواء على أساس المماثلة أم التضاد (3) فالجمع بين الصفة والموصوف على أساس المماثلة شيء مبتذل وعام، أمّا الجمع بين الأضداد والتعبير

1 _ الهلال . ملحق العدد 6 . 19 . 1976 .

2_ الثقافة . ع 426 . 21 . 1947 . بقلم رفائيل بطي .

3 _ ينظر . 193 . LLoyd J .A .

بالمقابلة ،فذلك مما لا يمكن أن يكون مبتذلا ، بل خاصية من خصوصيات شعر بودلير، وهو القائل بأنه قابل في شعره ، الكفر بالتوسل الى الله، والفحش والفجور بالأزهار المثالية ، وأنه كان من المستحيل التعبير عن قلق الروح وسط الشر بطريقة أخرى غير هذه (1) ، كما يرى بأن هذا التناقض أساسي يجد فيه الشاعر ، بلا شك ، توازنه، وذلك بتمرين الرمز ذي المعتبين وخلق حقل تفساتي يشترط عليه أن يبقى داخل حدوده ، والا فسيهلك ،فالحفاظ على الابهام في الشعر ، وعلى الطابع الملغز لكلمته ضرورة لضمان نجاح الشاعر(2)،

ولقد طبق بودلير هذا الابهام واعتمده أساسا في فنه ،(3) وجاراه الياس في ذلك في " أغانيه " ، انه ابهام مصدره شطط الحس الباطني ، كما سبق أن رأينا ذلك في الفصلين السابقين ، وهو ، في الوقت ذاته ، الشكل الفني الذي فرضه الموضوع أو المعنى نفسه ، شكل يقوم على التناقض الظاهري ، والتنافر والتباعد ، في توازٍ على مستوى الصورة واللغة والأسلوب ، ابهام يهدف من ورائه الى تنوع في الايحاء ، وفتح الآفاق الواسعة للاحساس، لأنه تعبير عن الاحساس الباطني اللا متنهى ، منطلقه العقيدة الرمزية الشاملة بكل سعتها ، والتعامل سيكون مع عمق المعاني لا مع مصطلحها المبتذل ، ولقد انطلق بودلير هذا العمق (4) ، وأحسن مثال على ذلك قصيدته المشهورة (العلاقات) :

الطبيعة معبد تبعث أحيانا
من أعمدته الحية أصوات مبهمة ،
فيمضي الانسان خلا لها(خلال) غابات من رموز
ترنو اليه بنظرات أليفة • (5)

---

1 ـ ينظر • 195 • Oeuvres Complètes. Claude Pichois .

2 ـ " • 111 • Pierre Emmanuel .

3 ـ نفسه •

وكالأصداء الطويلة التي تمازج بعيدا
في وحدة عميقة قاتمة ،
رحيبة كالليل ... كالضياء ،
تتجاوب الأصوات والألوان والعطور . (1)

وان اختلف هذا المقطع الثاني ،في صورته ،عن المقطع الأول ،فهو يحتوي الفكرة نفسها فالأحاسيس المختلفة المتنوعة تتجاوب فيما بينها مثل الصدى الآتي من بعيد :عطور وألوان وأنغام تمتزج في وحدة غامضة مكتنفة بالأسوار، وعلى هذا المستوى تتقارب الاحساسات المتباعدة المتنافرة غير المتجانسة ، تتراسل وتتجاوب ،ومن هذا المنطلق نجده يقول في مكان آخر :

يا له من تحوّل صوفي
لكل أحاسيسي الذائبة في واحد ،
نفَسُها يحدث موسيقى
مثل ما يمدّ صوتها عطرا . (2)

انها الحواس، تتبادل فيما بينها الوظائف ، ولقد وصف هذا عنده بالتلاعب المتقن على أوتار العاطفة (3) ، ولم يكن تزاوج الصور

= 4 ـ ينظر . 73 . 72 . 71 . Aguettant Louis.

5 ـ " أزهار الشر " ترجمة أبو العيد دودو .

1 ـ " " " " (Corréspondances) ترجمة أبو العيد دودو .

2 ـ Les Fleurs du Mal. (Tout Entière.) 47.

3 ـ ينظر . 76 . 75 . A. Louis.

في شعره ، من أجل اثارة العواطف فقط ،أو من أجل تأكيد لحظات التجربة الانسانية التي أحستها العواطف ولمستها ، بل من أجل اثارة العواطف نحو ادراك لحظة من التجانس الكوني . (1) وهنا تبرز أصالة بودلير الفنية (2) ، فكان علينا أن نعود الى أصل هذه الظاهرة ـ نعني ظاهرة التناقض الظاهري ، والتقابل في الصياغة الشعرية ، التي وجدناها قائمة في " أفاعي الفردوس " ـ لنبين منطق الشاعر في لجوئه الى هذه الظاهرة .
لقد تنفست روح كلّ من بودلير والياس ، المكتظة بالمتناقضات ، من شهوات وذكريات وندم ، في آن واحد ، داخل قصائدهما ، فما كان ذكاؤهما الا شاهدا مؤلما يقظا بصيرا (3) ، فسجلا في ديوانيهما هذا التمزّق ، والثنائية الفكرية والتوازي على مستوى المضمون والشكل ، أوليس بودلير نفسه القائل بأنّ : " الثنائية في الفن نتيجة لثنائية الانسان " (4) وازدواجيته !؟ .

ولقد بدأ بودلير يسجل انطلاقا من عنوان ديوانه ، مشاعره في هذه الثنائية ، فجمع بين الزهرة والشر ، متحديا المألوف في المعرفة الانسانية ، وقلّده الياس فجمع بدوره بين الأفعى والفردوس ، ابتداء من العنوان ، وهو جمع بين شيئين من حيزين أوحقلين متناقضين ، وذلك باعتبار الزهرة والفردوس من مصدر ينافي مصدر الشر والأفعى ، وكأننا بهما يعلنان عن نهجهما الفكري والفني بدء من عنوانيهما . ولقد استغل كلّ من الشاعرين هذه الظاهرة ، في أغلب الأحيان ، في خدمة ضبابية العاطفة والأحاسيس.

1ـ ينظر . أرشيبالد مكليش . الشعر والتجربة . ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي. 81 .

2 ـ ينظر . عبد الغفار مكاوي . 82 .

3ـ " . Max Milner . Baudelaire . 217 .

4 ـ Curiosités Esthétiques(Textes Etablis Par Henri Lemaitre)456 .

يقـول بودلـيـر وهو يجمع بين صفتيـن متعاديتيـن ، الواحـدة مصـدرها النـور والثانيـة مصـدرها الظلمـة والسواد :

انّـي أتعـرّف على زائـرتي الجميلـة ،
انها هي ! سـوداء لكنها مشرقـة ٠ (1)

ويقـول :

انها تبهر كالفجـر
وتعـزّي كالليـل ٠ (2)

ويقول أيضـا :

لن يصبح قلبي سوى صخـرة جليدية حمراء ٠ (3)

كما يقـول في مكان آخـر :

تحمليـن في عينيك الغـروب والفجـر ٠ (4)

ويجمـع الياس بين الصفتيـن نفسيهما قائـلا :

ملقيـه نفي أشعـة عينيـك صباح الهوى وليـل القبـور (5) ٠

ويقـول أيضا ، يجمـع بين العـذوبة والسم :

وعلى ثغـرك الجميـل ثمـار حجبـت شهوة الردى في العصيـر
شرب السم من شفاتهـا الحرى الى ملمس الردى في الثغـور (6)

---

1 _ Les Fleurs du Mal . (Tête à,Tête)

2 _ " " " " . (Tout Entière) 46 .

3 _ " أزهار الشر " (نشيد الخريف) ترجمة مصطفى القصـري ٠

4 _ Les Fleurs du Mal .(Hymne à la Beauté). 28 .

مثـل قـول بودليـر :

أيها السّم الحبيـب المعدّ من طرف الملائكة! أيتها الخمر العذبـة،
انك تخـربتنـي ، يا حيـاة وموت قلبـي ! (1)

وقـولـه :

كنت أشرب نفسـك ، أيتها العذوبة! أيتها السّم ! (2)

ويعبـر الياس عن الشطط النفسـي فيقـول :

وجهـك الشاحـب الجذاب ترهبني ألوانـه يتشهى فوقهـا اللهب (3)

ويتسـاءل قائـلا :

لذة الاثـم كيف تمقتها النفـس ويحلو عصيرها في المـذاق (4)

وهذا المعنى نفسـه نجـده عند بودليـر في قولـه :

وأجـد مـذاقـا عـذبـا للخمـرة الأشـد مـرارة . (5)

= 5 ـ " أفاعي الفردوس" " شمشون " . 21 .
6 ـ نفسـه . ويقول " في هيكل الشهوات " . 32 :
طيـف من الشهوة الحمراء تغزوله خمر الليالي وفي أعماقه العطب

1 ـ (Le Flacon) 52 . Les Fleurs du Mal
2 ـ (Le Balcon) 40 . " " " "
3 ـ " أفاعي الفردوس " " في هيكل الشهوات " 52 .
4 ـ " " " " " الطـرح " 60 .
5 ـ 51. (La Voix) Les Fleurs du Mal .

أو في قوله :

مجنونة جننت بها ،
اني أكرهك بقدر ما أحبك . (1)

حيث يجمع بين الحب والبغض ومثله فعل الياس :

لئن تك نار البغض تلظى بعيته ففي قلبه النوار للحب مزوّد (2)

. . .

لا يضمر الحبّ الا في محاجره فعينه للهوى والقلب للثأر (3)

وهكذا نجد الياس متأثرا بهذه الظاهرة في الجمع بين الأضداد عند بودلير ، فتستقل الكلمة ، في شعره ، وتقوم بذاتها وتثبت وجودها جنب أختها ، ولاتكون عالة عليها ، أوتحيا في ظلها ، لقد أدخل هذا التناقض والمقابلة على تراكيبه وتعابيره ، ما تميّز به ديوانه " أفاعي الفردوس " .
وما كانت هذه الظاهرة الا نتيجة حتمية لبداية تأملية وقاعدة فكرية، فكل من المضمون والشكل يدخل في اطار " السأم والمثال " وهو الصراع والتناقض الذي سكن كلّ جزئيات شعرهما ومقوّماته ، من شعور وأفكار ، وما تأتى عنهما من مواقف وتعابير فنية .
ولقد جمع الياس ، مثل بودلير ، بين صفات وموصوفات أوصفة وصفة لا تليق ببعضها ولاتتناسب بل انها متعادية مختلفية متناقضة ، فقرن الحسن بالأفعى ،والضرر بالبصر ، والحقارة بالعظمة ، والخدعة بالجمال ، والسم بالقبلة ، والشر بالهوى ، وجعل الغلّ رمزا للصراحة

---

1 _ 165 Les Fleurs du Mal . (A Celle Qui est trop Gaie)

2 _ " أفاعي الفردوس" " القاذورة " ، 26 .

3 _ " " " " " الدينوتة " ، 56 .

واليواقيت رمزا للغدر الى غير ذلك ، تماما مثل مافعل بودليـر اذ الحيوان المفترس الشرس معبود عنده ، والمسخ المخيف في مظهر متراخ ، والضحية ظيّعة ، والبريء مذموم ،والشهوة عقيمة ، والخجل قرين الفجور ،والنور قرين الشحوب ، والملاطفة قرينة القوة ، والملكة عبدة ...

وتخضع اللغة ،شأنها شأن الصورة والتراكيب ، لمثل هذا النظام،نظام التناقض والمقابلة ، بحيث يمكننا تقسيم القاموس اللغوي ،في الديوانيين معا، الى قسمين متقابلين ، قسم لالفاظ هي بنات المثال،وآخر لالفاظ هي بنات السأم ، فتسجل قائمة طويلة لكلمات الخير بكل معانيه الأصلية والفرعية، وقائمة أخرى تقابلها لكلمات الشر بكل معانيه أيضا الأصلية والفرعية، وسنذكر فيما يلي بعضا قليلا جدا منها ، وكل كلمة من هذه الكلمات تتعلق بها كلمات كثيرة غزيرة تحمل معنى الأصل وتضيف اليه معاني أخرى :

كلمات من مصدر الخير	كلمات من مصدر الشر
اللـه	الشيطان
الملائكة	•
الايمان	الكفر
الفردوس	جهنم
النور	الظلمة
التوق الى الطهر	والرغبة في السقوط
الأمل	اليأس
العفو	التمرّد والعبث
الجمال	القبح (بكل أشكاله)
الروح	الجسد
الحب	الكره
البركة	اللعنة
الطهر	العهر،الفساد ،العفن

الى غيـرذلك من الكلمات التي يمكن اعتبارها مفاتيح النفـاذ الى عالـمـي "أزهار الشر" و "أغاني الفردوس" الشعريين ، فهي تنطـوي في تقابلهـا وتناقضها على معنى هذا العالم الشعري ، وذلك في حركـة الكلمـة وتفاعلها مع ضدها بالتقابـل والتنافـر، لأنها تجتمـع عن غيـر اتفـاق أوتشابـه ، في تمـرّد على العرف في الـذوق الفنـي • فتصطـدم هذه الكلمـات لتحدث همسـات ، وتكشـف عن عوالـم جديـدة حاضـرة دائمـا في خفيـة وتكتم (1) •

انّها ظاهرة تتفـق مع مفهوم الشاعرين لوظيفـة الشاعـر ، كما سبق أن رأينـا في الفصـل السابق ، اذ هي تتمثـل في البحـث عن الجمال أينمـا كا ن ، وقـراءة الغامـض واللا مرئـي في الطبيعـة وترجمته وتحويلـه الى قصيـد ة شعريـة ، اعتمادا على نشاط الخيال أساسـا • هذا الخيال الذي يرقّـع ويصلّح تمـزّق اللحمـة وانقسامها الى واقـع لا يطـاق من جهـة،وحيـاة فرد وسيـة ضائعـة من جهـة أخرى ، فتصبـح مهمـة الخيال في هـذه الحالـة وسيلـة توفيـق وربـط بينهما • ومصدر الهـام المجـاز الشعـري الذي تجتمـع فيه الأضـداد وتضمحـل الاختلافات القائمـة بين الأشيـاء في الطبيعـة • (2)

لقد قامـت الصياغـة الشعريـة ، في الديوانيـن على بسيكولوجيـة حادة وتصميم من حقيقـة عاديـة (3) ،تقـدّم صـورا لاتخاطـب العيـون فحسـب ، لكنها تخاطـب كلّ الجملـة العصبيـة ، فتسبـح في حساسيـة موسيقيـة تكتسـب بها أصـداء مكتنفـة بالأسـرار غير المحـدودة (4) فبين الكلمتيـن ، أوبين التركيبيـن ، يقـوم عالـم شاسـع للشطـط والانفصـام والتبـدّد ، تمـلأه الرعشـة العنيفـة و " شهـوة الحـب، وحـلاوة النغـم المعربـد ، وضحكـة اللـون الصارخ ، وعبـق الرّائحـة، المسكـرة " (5) انـه عالـم يدركه الحـس ، ولكن الوصـف قد يعجـز

---

1 ـ ينظر• Juliette Hácine. 79

2 ـ " • Dominique Rincé . 30 .

3 ـ " • R. B . Chérix . 60 .

4 ـ " • Guettant Louis .

عن تحديده بدقة ، أونقله بأمانة من مستوى الحس الى مستوى الفكرة المجسدة ، انه يشبه الصوت الذي يحدثه اصطدام شيئين متناقضين لينطلق صدى لا ينتهي في الأجواء ، ثم ينعكس جمالا صامتا يملأ الأرجاء وهو مختنف لكنه يطير في كل مكان ليستولي على العقول والألباب •

= 5 - بديع حقي • محاضرات الموسم الثقافي 1960- 1961 • ج 18 •

الخاتمة :

لقد اتضح لنا من خلال ما تم عرضه من الفصول السابقة أنّ تأثر الياس أبو شبكة في " أفاعي الفردوس " ب " أزهار الشر " قام على جانبين ، جانب يخصّ الموضوع أو الفكرة ، وجانب يخص الشكل أو القالب الفني •

لقد كان للمواضيع البودليرية أثر بليغ في ديوانه " أفاعي الفردوس" ، ومع هذا فاننا لا نستبعد أن يكون الياس قد فكّر في هذه المواضيع قبل اطلاعه على " أزهار الشر" ، الا أنها ظلت خواطر تتناثر في ذهنه المتشبع بالتراث العربي القديم ، ولم يهتد الى لمّ شملها ، وتنظيمها والتأليف بينها بحيث تبدو له ، هي نفسها أو بعض منها ، في شكل متكامل ، الى أن أطلع عليها في شعر شاعر من بلد غير بلده ، ومجتمع غريب عن مجتمعه ، و زمن بعيد عن زمنه ، أعني به بودلير ، فرأى فيه ثمرة الشجرة التي كانت ماتزال بذرة في يده هو ، فاتبع خطاه الفنية عن وعي واقتناع لأنّه رأى فيه نفسه وفكره فتبنى مواضيعه وأفكاره في أفاعيه •

ولقد فرضت هذه المواضيع شكلا فنيا خاصا بها ، يحمل خصوصياتها ومميزاتها ، وهو الشكل الذي اختاره بودلير وارتضاه لشعره ، مهّد به لظهور الرمزية في الأدب الحديث ، ولقد استفاد الياس كثيرا من وجهته الفنية ، وحاول تطبيق تقنيات منها في ديوانه •

ولرمزية بودلير ، كما رأينا ذلك في فصول هذا البحث وجهان ، أحدهما ديني ، والثاني جمالي ، فهو يدعو الانسان ، على المستوى الديني الى أن ينشد الوحدة الالهية ، انطلاقا من الواقع ، بينما

ينادي ، على المستوى الجمالي ، بالوصول الى تجربة نفسية تجتمع وتتحد فيها كلّ معطيات الحواس ، أو الى ادراك كلّي ، في وحدة "مظلمة عميقة" ، وهذه هي التجربة التي تعودنا اليها عليه " تزامن الأحاسيس" ، ومن هنا يستخدم الشاعر المجاز والتشبيه القائم على المماثلات ، والمعادلات بين معطيات الحواس من جهة ، والأفكار والأحاسيس من جهة أخرى . ولقد تجد أثر الاتجاه العمودي أو الوجه الديني لهذه الرمزية واضحا عند الياس بكل خصوصياته ، بخلاف الوجه الجمالي لها ، الذي لا نكاد نلمسه مكتملا واضح المعالم عنده ، وان كان يحاول الجمع بين وجهي رمزية بودلير ، بشكل يجعلنا نحسّ بأثر هذا الوجه الجمالي يتخلّل قصائد " أفاعي الفردوس " ، تنم عنه بعض عناصره ، مثل الغرابة ، واثارة الدهشة ، والجرأة الفنية ، وغير ذلك ممّا يسهم في ظاهرة التناقض ، أو التناقض الظاهري ، واعتمد الياس كما فعل بودلير قبله الذكرى والحلم والخيال الذي يتحرّر فيه الشاعر من كلّ قيد ، ويعمد الى تغيير الدلالات اللفظية والمعنوية المتواضع عليها ، واعادة تركيبها وتسخيرها لمعاني مجرّدة ، تسمو بالشاعر ويسمو بها الى مستوى تسقط فيه الحدود بين الدلالات ، فتتداخل وتتعادل فيه وظائف اللغة والمعاني لخدمة فكرة الشاعر ومقاصده الفنية .

واذا كان الياس قد تأثر ، كما رأينا ، بمنهج بودلير الفني في " أفاعي الفردوس " ، وهو المنهج الذي تميز عن مناهج الرومنسيين السائدة آنذاك ، فاننا نجده ، يحيد عنه في دواوينه الأخيرة ، حيث ينساب شعره انسياب الشعر الرومنسي العادي المحبّ للطبيعة والمرأة وللحبّ بصفة عامّة ، وكأن الياس ينتهي في هذا الشعر الى الانعتاق من جوّ " أفاعي الفردوس" الجهنمي . لكن من يعش مع الياس في جوّ "أفاعيه" الشعري ، يدرك أن من دخل جوّ هذا العالم

الشعري ، يستحيل عليه أن يخرج منه من دون أثره ولهذا فأنا لا أذهب مذهب القائلين بأن الياس تخلّص تماما من كلّ آثار جوّ " أفاعي الفردوس " ، كما لا أرى رأي من حكم بأنّ الياس أبو شبكة بلغ قمة النضج في " أفاعي الفردوس " ، ما دامت هذه المرحلة ، في اعتبارنا ، مرحلة انتقالية بالنسبة للشاعر ، بل نرى بأن شخصية الياس الفنية لم تكتمل فيما خلفه من أعمال أدبية ، لأنّ المنية خطفته وهو في مشواره الأدبي قبل أن يتم نضجه الفني ۰ وقد كان مايزال يبحث عن هويته الفنية ، وشخصيته الأدبية موزّعة بين تراث الأدب العربي القديم ورمزية بودلير ورومنسية الغربيين ۰

المصـــادر العـــربيـــة :

مؤلفـــات اليـــاس أبو شبكـــة :

- "أفاعـــي الفردوس". (ديـــوان) . الطبعة الثانية ، دار المكشوف، لبنان، 1938.
- "الى الأبـــد". (") ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف، لبنان، 1944 .
- "غلـــواء". (قصيـــدة) مكتبـــة صادر . لبنـــان . 1945.
- روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ، الطبعة الثانية ، دار المكشوف، لبنـــان . 1945
- سقوط ملاك . قصة لـ: لامرتين ، ترجمها الياس أبو شبكة الى العربية ، مع التقديم لها . مكتبـــة صادر . بيروت . 1922 .

شعـــر ومقالات نشـــرت له في دوريـــات مختلفـــة :

• أعـــذب الشعر. (شعـــر)	الأديـــب	ع 2 ، 1942 .
• عـــودة الجنـــة. (مقـــال)	"	ع 3 ، 1942 .
• التفكير اجتماعي. (مقـــال)	"	ع 4 ، 1942 .
• هكذا تكلمـــوا. (مقـــال)	"	ع 5 ، 1942 .
• في الحديقة القديمة.(مقال) ، أرض الميعاد (شعر)	"	ع 8 ، 1942 .
• فكتور هيغو. (مقـــال)	"	ع 9 ، 1942 .
• أحبـــك (شعـــر)	"	ع 9 ، 1942 .
• في حديث الشعر.(مقال) ، العذاب الـــهي (شعر)	"	ع 10 ، 1942 .
• الانسان الصحيح . (مقـــال) ، استغراق (شعر)	"	ع 11 ، 1942 .
• مختارات لدي غول. (مقال)	"	ع 1 ، 1943 .
• في أعماق الصدور. (مقـــال)	"	ع 2 ، 1943 .

• الناسك . (شعر) الأديب ع 3 ، 1943 .

• ذكرى البحيرة . (مقال) " ع 4 ، 1943 .

• الثالوث البكر . (شعر) " ع 5 ، 1943 .

• مصابيح من خزف ، (مقال) ، نوار (شعر) " ع 5 ، 1943 .

• أبو شبكة ينير السبيل أمام نقاده ، المكشوف ، ع 173 ، 1938 .

• الشاعر قيثارة تنبض بحياة معاصريه ، المكشوف ع 211 ، 1939 .

• كتاب . (مقال) المناهل ع 1 ، 1937 .

• أصوات ثلاثة خاطبتني . المناهل ع 8 ، 1937 .

<u>المصادر الفرنسية</u> :

.Les Fleurs du Mal .(Introduction,relevé de variantes et notes par Antoine Adam)Edition Garnier Frères.Paris 1961

.L'Art Romantique . Garnier Flamarion . Paris . 1968 .

.Oeuvres Complètes de Charles Baudelaire(Petits Poèmes en Prose, le Spleen de Paris).M.Jacques Crépet .Louis Conard;Paris. 1917.

.Curiosités Esthétiques. L'Art Romantique,et autres oeuvres critiques. Textes établis avec introduction,relevé de variantes,notes et Bibliographie par Henri Lemaitre.Garnier Fréres.Paris 1962.

<u>المترجم من مؤلفات بودلير</u> :

• " زهور الألم " ترجمة مصطفى القصري ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1964 .

• " أزهار الشر " ترجمة إبراهيم ناجي ، الطبعة الأولى ، المطبعة المنيرية بالأزهر ، القاهرة 1954 .

المراجع العربية :

•أدونيس علي أحمد سعيد • مقدمة للشعر العربي •الطبعة الثالثة •دار العودة • بيروت •1976 •

•أرشيبالد مكليش •الشعر والتجربة •ترجمة سلمى خضراء الجيوسي • مؤسسة فركلين للطباعة والنشر • 1963 •

• ايليا الحاوي • الياس أبو شبكة شاعر الجحيم والنعيم •الطبعة الثانية • دار الكتاب اللبناني • بيروت 1980 •

• باسكال بيا • ترجمة صلاح لبكسي • المطبعة البولسية جونيه لبنان • 1969•

•بديع حقي وجودت الركابي • محاضرات الموسم الثقافي •مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري • سوريا •1960 •

•جورج غريب • أعلام من لبنان والمشرق •دار الثقافة •بيروت • 1968 •

•جورج غريب • الياس أبو شبكة • دراسات وذكريات •دار الثقافة • بيروت• 1979 •

•حامد حفني داود • تاريخ الأدب الحديث (تطوّر معالمه الكبرى ـ مدارسه) • ديوان المطبوعات الجامعية • الجزائر • 1983•

•حلمي مرزوق • تطوّر النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأوّل من القرن العشرين •دار النهضة العربية •بيروت• 1983•

•درويش الجندي •الرمزية في الأدب العربي •مكتبة نهضة مصر بالفجالة مصر • 1958

• رزوق فرج رزوق •الياس أبو شبكة وشعره • الطبعة الأولى •دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر • بيروت • 1956 •

•ريتا عوض • الياس أبو شبكة •الطبعة الأولى •المؤسسة العربية للدراسات والنشر• بيروت • 1983 •

•سابا يارد نازك • الياس أبو شبكة قلب سال شعرا • الطبعة الأولى •بيت الحكمة • بيروت • 1968•

•سامي جورج خوري والياس رحيم •الياس أبو شبكة في غلواء •دراسة ديوان • منشورات
دار مكتبة الحياة •بيروت • بدون تاريخ •

•سامي الكيالي •خمر وشعر •دار الرائد •حلب • 1963 •

•شكري فيصل • مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي عرض ونقد
دار العلم للملايين • بيروت • بدون تاريخ •

• شوقي ضيف • دراسات في الشعر العربي المعاصر • الطبعة الرابعة
دار المعارف بمصر • 1969 •

• صلاح لبكي • التيارات الأدبية الحديثة في لبنان أو (لبنان الشاعر)
جامعة الدول العربية • بيروت • 1954 •

•عبد الرحمن صدقي •الشاعر الرجيم بودلير •مطبعة المعارف • مصر •بدون تاريخ •

•عبد الغفار مكاوي •ثورة الشعر الحديث من بودلير الى العصر الحاضر •
الهيئة المصرية العامة للكتاب • مصر • 1972 •

•عبد اللطيف شرارة • الياس أبو شبكة • دار صادر للطباعة والنشر • بيروت
• 1965

• علي درويش •دراسات في الأدب الفرنسي • الهيئة المصرية العامة
للكتاب • مصر • 1973 •

•عمر الخيام •رباعيات الخيام •ترجمة أحمد الصافي النجفي •الطبعة
الأولى •دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر •دمشق •
• 1984

•عيسى الناعوري •أدباء من الشرق والغرب • الطبعة الأولى •دار منشورات
عويدات • بيروت • 1966 •

•غالب غانم •شعر اللبنانيين باللغة الفرنسية 1903 ــ 1968 •
منشورات الجامعة اللبنانية •قسم الدراسات الأدبية • بيروت
• 1981

•غالي شكري •شعرنا الحديث الى أين ؟ الطبعة الثانية • دار الآفاق
الجديدة • بيروت • 1978 •

•قاهر حسني فهمي •تطور الشعر العربي الحديث في مصر 1900 ــ 1950 •
مكتبة نهضة مصر بالفجالة • مصر • 1958 •

•كرم ملحم كرم • مناهل الأدب العربي •مكتبة صادر •بيروت •بدون تاريخ •
•كمال سليمان الصليبي • تاريخ لبنان الحديث • دار النهضة للنشر (ش • م • ل)
بيروت • 1967 •
•لامرتين • سقوط ملاك - أو "آلهة لبنان" •ترجمة الياس أبوشبكة
مطبعة مكتبة صادر • بيروت • 1922 •
• مارون عبود • نقدات عابر • دار الثقافة • بيروت • 1959 •
• مجددون ومجترون •دار العلم للملايين • بيروت• 1948•
•مجموعة مؤلفين (بدون نص) • الياس أبو شبكة دراسات وذكريات • الطبعة الأولى •
دار المكشوف • بيروت • 1948•
•مجموعة أساتذة • محاضرات الموسم الثقافي الرابع 1963- 1964 - الأدب العربي
الحديث واتجاهاته • بجامعة بيروت العربية •
•محيي الدين صبحي •نظرية النقد العربي وتطورها •الدار العربية للكتاب ليبيا •تونس
• 1984
•ميخائيل نعيمة • الغربال الجديد • المجلد 7 • دار العلم للملايين •بيروت•
• 1973
•مصطفى عبد اللطيف السحرتي • الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث • مطبعة المقتطف
والمقطم • القاهرة • 1948 •
•مفيد محمد قميحة • الأخطل الصغير حياته وشعره • الطبعة الأولى •دار الآفاق
الجديدة • بيروت • 1982 •
•مناف منصور •الانسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث • مركز
التوثيق والبحوث • بيروت 1978 •
•منيف موسى • الشعر العربي الحديث في لبنان • الطبعة الأولى •دار العودة
بيروت • 1980 •
•موريس كرانستون • سارتر بين الفلسفة والأدب • ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد
دار مكتبة الحياة • بيروت 1975 •
•نخبة من شباب الطليعة في الفكر والأدب • الشعر في حركة الوجود •دار مجلة الشعر•
بيروت • 1960 •

• نقـولا سعادة • قضايا أدبية • الطبعة الأولى • دارمـارون عبـود • بيـروت • 1984 •

• ياسين الأيوبـي • مذاهـب الأدب (معالم وانعكاسات) •الطبعة الأولى • المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع • بيروت • 1982

المراجـع الفرنسيـــة :

.Aldous Huxley . L'Ange et la Bête.(Traduction Française de Jules Castier). La Jeune Parque .Paris .1951.

.Badreddine Kassem. Baudelaire Poète des Fleurs du Mal.Im. de L'université de Damas .

.Benjamin Fondane. Baudelaire et L'expérience du Gouffre. Pierre Seghers . Paris . 1947 .

.Camille Mauclair. La Vie amoureuse de Charles Baudelaire.Flamarion. France . 1927.

.Dominique Rincé .Baudelaire Les Fleurs du Mal et autres écrits . Im.Aubin. France .1983.

.François Porohé .Baudelaire Histoire d'une âme.Flamarion Editeur . 1944 .

.Gaston Bouthoul . Les Mentalités (que sais-je?).Presse Universitaire de France .Paris. 1952 .

.Georges Blin . Baudelaire .Gallimard .Paris.1939.(4° édition).

.Georges Poulet . La Poésie Eclatée.Im.des Presses Universitaires de France. France 1980. (1 ° Edition) .

.Jacques Vier . Histoire Substances et Poésie des Fleurs du Mal. Archives des Lettres Modernes .Paris.1959.

.Jean Paul Sartre. Baudelaire(Ecrits Intimes)Edition Gallimard. France. 1970 .

.Jean Pommier .La Mystique de Baudelaire. Les Belles Lettres. Paris .1932.

.Juliette Hacine .Essai sur Proust et Baudelaire. Edition A.G. Nizet .1979 .

.Lagarde et Michard .XIX Siècle .Bordas .France .1963 .

.Louis Aguettant .Lecture de Baudelaire . Les Cahiers Bleus du Club National du Disque .Paris .1957.

.Lloyd James Austin .L'Univers Poétique de Baudelaire(Ouvrage Publié avec le Concours du Centre National de recherche Scientifique .Mercure de France .Paris .1956.

.Marc Eigeldinger .Le Platonisme de Baudelaire. A La Baconnière Neuchatel.Paris . 1951 .

.Marcel A.Ruff .Baudelaire(Collection:Connaissance des Lettres) Hatier .Paris .1966.

.Max Milner .Baudelaire Enfer ou Ciel ,qu'importe! Plon . France . 1967 .

.Noël Taconet .Lecture de Fleurs du Mal de Baudelaire. Thème :misère et Beauté,Concours Scientifique 1985/1986 .Blin. Paris .

.Ouvrages Collectif .Analyses et Réfléxions sur.. Baudelaire . Spleen et Idéal .Edition Marketing.Paris. 1984 .

.Pascal Pia .Baudelaire Par Lui-même ."Ecrivains de Toujours" Edition Du Seuil .Paris.1954 .

.Pierre Emmanuel .Baudelaire La Femme et Dieu. Edition du Seuil . 1982 .

.Rémy Chauvin .Les Surdoués(Etude americaine). Marabout . Paris . 1975 .

.Rebert Benoit Chérix. Commentaire de "Fleurs du Mal ". Librairie E. Droz .Minard.Suisse 1962.

.Van Tieghem .Dictionnaire des Litteratures.T 1.Presses Universitaire de France .1968 .

.W.T Bandy et Claude Pichois. Baudelaire devant ses Contemporains . Edition Du Rocher.France.1957.

الـدوريـــات :

•الآداب ع 1 • 1955 • وثبة الشعر اللبناني • مريس صقر •

•الأديب ع 9 • 1942 • الشعر الرمزي • نقولا فياض •

ع 10 • 1942 • الشعر الرمزي • نقولا فياض •

ع 2 • 1952 • الرمزية في الأدب العربي الحديث • عيسى الناعوري •

ع 3 • 1953 • الياس أبو شبكة بين نداء الذكرى وجاذبية الهاوية •
علي سعد •

ع 3 • 1953 • في ذكرى الياس أبوشبكة • أحمد أبو سعد •

ع 6 • 1956 • الياس أبوشبكة والمرأة الأفعى • عادل الأعور •

ع 6 • 1956 • في الواحدة صباحا شارل بودلير • الطيب الشريف•

ع 2 • 1958 • الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين •
سامي نسيب مكارم •

ع 4 • 1958 • الشعر العربي في لبنان بين الحربين العالميتين •
سامي نسيب مكارم •

•الثقافة ع 426 • 1947 • الياس أبوشبكة كاتبا وشاعرا • رفـئيل بطي •

•الحديث ع 2 • 1937 • فلسفة اللذة والألم • اسماعيل مظهر •

•الطريق ع 4 • 1979 • الوجه الآخر لرومنطقية الياس أبوشبكة • يمنى العيد •

•المشرق ع 4 • 1938 • أفاعي الفردوس بين الشهوة الصاخبة والعفة المتائية •
جان عزيز •

•المعرفة ع 251 • 1983 • أبوشبكة "الشاعر المتمرد" نجاح العطار •

•المقتطف ع 1 • 1939 • الحركة الأدبية في سورية ولبنان • رضا توفيق عبد الحق
حامد •

•المكشوف ع 182 • 1939 • شاعر يصفع الشعراء بأسواط من لهيب • سليمان فؤاد •

فهرس الأعلام العربية :

فهـرس الأعـلام بالفرنسيـة :

- فهـــرس الموضـوعـات -